

# نظم الفلسفة الغربية

GAQD5183



## نقد الفلسفة الغربية

### المحتويات

- الدرس الأول : مدخل حول المادة، وتعريف الفلسفة، وشرايطها ٢٢-٧
- الدرس الثاني : تابع: شرائط الفلسفة، ونشأتها ٣٥-٢٣
- الدرس الثالث : العرب والفلسفة ٥٠-٣٧
- الدرس الرابع : المسلمون والفلسفة ٦٤-٥١
- الدرس الخامس : مواطن التفلسف في البيئـة الإسلامية ٧٧-٦٥
- الدرس السادس : التفرق والاختلاف بين المسلمين في إطار علم الكلام ٩٤-٧٩
- الدرس السابع : تابع: التفرق والاختلاف بين المسلمين في إطار علم الكلام ١١٠-٩٥
- الدرس الثامن : حركة الترجمة عند المسلمين، ومراحل الفلسفة الغربية ١٢٦-١١١
- الدرس التاسع : الفلسفة اليونانية وأشهر مدارسها ١٤٣-١٢٧
- الدرس العاشر : تابع: الفلسفة اليونانية وأشهر مدارسها ١٦٤-١٤٥
- الدرس الحادي عشر : الفلسفة الغربية في العصور الوسطى ١٨٣-١٦٥
- الدرس الثاني عشر : تابع: الفلسفة الغربية في العصور الوسطى ٢٠١-١٨٥
- الدرس الثالث عشر : الفلسفة الحديثة ٢١٩-٢٠٣
- الدرس الرابع عشر : فلسفة الشك عند رينيه ديكارت ٢٣٨-٢٢١

## نقد الفلسفة الغربية

- الدرس الخامس عشر : الفلسفة الوضعية الإلحادية عند أوجست كونت ٢٣٩-٢٥٦
- الدرس السادس عشر : الفلسفة الوجودية لدى الغربيين ٢٥٧-٢٧٣
- الدرس السابع عشر : أشهر فلاسفة التشاؤم الغربيين في الفلسفة الحديثة ٢٧٥-٢٩٣
- الدرس الثامن عشر : من اتجاهات الفلسفة الحديثة: فلسفة القوة ٢٩٥-٣١٢
- الدرس التاسع عشر : الفيلسوف الإنجليزي "ديفيد هيوم" ٣١٣-٣٣٢
- الدرس العشرون : مذهب العقلانية ٣٣٣-٣٥٠
- الدرس الحادي والعشرون : أهم النقاط حول نقد الفلسفة الغربية ٣٥١-٣٦٦
- قائمة المراجع العامة : ٣٦٧-٣٧٠



مدخل حول المادة، وتعريف الفلسفة، وشرائطها

عناصر الدرس

٩	العنصر الأول : مقدمة حول المادة
١٣	العنصر الثاني : تعريف الفلسفة
١٨	العنصر الثالث : موضوع الفلسفة
٢٠	العنصر الرابع : شرائط الفكر الفلسفي



## مقدمة حول المادة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رحمة الله إلى العالمين، سيدنا  
ونبينا محمد، وعلى إخوانه النبيين المرسلين، والمستمسكين بهديهم إلى يوم  
الدين؛ أما بعدُ:

في البداية نسرد عدد من الملاحظات حول المادة التي ندرسها، وما يحيط بها من  
أمور، نشير إليها لنبدأ بها مسيرتنا.  
وهذه المقدمات:

**أولاً:** المادة التي نحن بصدد دراستها مادة "الفلسفة الغربية".

وليس بخافٍ أن الفلسفة بذاتها مادة جافة وجامدة، وجمود المادة وجفافها يخفف  
منه ويذهب به الإقبال عليها والرغبة في معرفتها، والحرص على دراستها، وبذل  
الجهد من المتكلم والمتلقي في شرحها وفهمها والاهتمام بها.

**ثانياً:** هذه المادة لها تسميتان، فتسمى "الفلسفة الغربية" وتسمى كذلك "الفلسفة  
الأوروبية" وقد ورد الاسمان للمادة في أوراق الجامعة، لكن نلفت الأنظار بدايةً  
إلى أن الاسم الذي نختاره لهذه المادة هو "الفلسفة الغربية"؛ فهي التسمية  
الصحيحة، حيث إن الفلسفة الأوروبية هي نسبة إلى تلك القارة الصغيرة بين  
قارات العالم، وتقييد الفلسفة بالأوروبية يخرج فلسفاتٍ كثيرة ومذاهبَ عديدة  
ليست من أوروبا، أما تقييدها بالغربية فيجعلها تشمل مع الفلسفة الأوروبية  
الفلسفات الأمريكية والأسترالية وغيرها، فالأوروبية إطلاق ضيق، والغربية أعم  
وأشمل.

**ثالثاً:** الفلسفة تقوم على الفكر الإنساني أو هي نفسها فكر إنساني، فالكلام عليها هو في جوهره كلام عن الفكر الإنساني، لذا نجد ضرورياً أن نفسح المجال للكلام عن الفكر الإنساني الذي هو أصله الفلسفة، أو هو الفلسفة نفسها.

وحديثنا عن الفكر الإنساني يتركز في النقاط الآتية:

**النقطة الأولى:** أن الإنسان يعيش في حالة تفكير دائم، فالإنسان مخلوق مفكر، ومعنى أنه في حالة تفكير دائم أنه لا يمر وقت يكون فيه غير مفكر، ولذلك عرف المناطقة والفلاسفة الإنسان: بأنه حيوان ناطق! وحيوان ناطق أي حي مفكر، فمعنى حيوان: حي، ومعنى ناطق: مفكر، والمناطقة أو الفلاسفة حينما يعرفون الإنسان بأنه حيوان ناطق، لا يقصدون المنطق الذي يكون عن طريق الحنجرة واللسان وكذا... إلخ، أو الأصوات التي يقولها الحي، وإنما يقصدون بكونه ناطقاً أنه مفكر.

**النقطة الثانية:** التفكير الإنساني يقسمه المختصون إلى أنواع ثلاث:

**الأول:** التفكير اللاواعي، وهو ما يكون عليه الإنسان أثناء ذهوله أو انشغاله أو نسيانه أو تعبته، هذا هو النوع الأول من التفكير الإنساني هو التفكير اللاواعي.

**الثاني:** التفكير العادي، وهو ما يتعاطاه الناس في شئونهم الحياتية جميعها، ويكمن فيه تفكير عامة الناس في عامة أمورهم في البيت، وفي السوق، وفي المتجر، وفي كافة مناحي المجتمع.

**الثالث:** التفكير الفلسفي وهو تفكير خاص لفئات خاصة.

والتفكير الفلسفي هو موضوع حديثنا؛ ولأنه كذلك فقد وجب أن نوفيه حقه ولو بإيجاز، فما لا يدرك كله لا يترك كله.

رابعاً: التفكير الفلسفي لا يوجد في أي مكان ولا في أية بيئة، ولكن له شرائط خاصة تحفزه وتحركه، وتساعد على نشأته وتكوينه.

#### شرائط التفكير الفلسفي:

**الشرط الأول:** البيئة فالفكر الإنساني الفلسفي لا ينشأ في أية بيئة، وإنما ينشأ في بيئات معينة لها خصائصها ومميزاتها، فالبيئة التي ينشأ فيها الفكر الإنساني الفلسفي تكون عادةً حول المياه العذبة الوفية الكافية كمياه الأنهار مثلاً، لذلك نجد الحضارات الإنسانية لم تنشأ إلا على ضفاف الأنهار؛ في الصين، في الهند، فيما بين النهرين بالعراق عند بابل أو آشور، ثم على نهر النيل؛ لأن من شرط التفكير الفلسفي الاستقرار والتفرغ من المشاكل الحياتية، وكل هذه الحضارات - التي أشرنا إلى أماكنها - كان لها تفكير فلسفي وكانت لها فلسفة.

**الشرط الثاني:** أن التفكير الفلسفي نوع من الرفاهية والتنعم لا يوجد إلا حيث يكون الاستقرار والإقامة الدائمة، لذا لم نجد للقبائل الرحل أو الأقوام الذين يزاولون الهجرات والانتقال، لم نجد من هؤلاء جميعاً فكراً فلسفياً ولم نجد لهم فلسفة.

**الشرط الثالث:** التفكير الفلسفي لا يغرق في الحاجات اليومية المادية من طعام وشراب ومأوى، ولا ينشغل بها ولا يعمل في مجالها، ولكنه يهتم بالأمر العامة التي تشمل الموجودات جميعها، مثل البحث في الكون وخالقه بِحَيْكٍ ومثل البحث حول أصل الموجودات ومصيرها، ومثل البحث حول خيرية الأفعال وشريرتها، ومثل البحث في البداية والنهاية، والهدف أو الغاية والمصير من هذا الوجود بصورة عامة أو من وجود الإنسان بصورة خاصة؛ فالتفكير الفلسفي الإنساني لا

يهتم بالأمر الجزئية الوقتية أو الأمور المادية، وإنما - كما قلنا - يهتم بالأمر العامة التي أشرنا ومثلنا لبعضها.

**خامساً:** انطلاقاً من البند الثاني والثالث، نلاحظ أن الفلسفات الإنسانية مساوقة لنشأة الحضارات التي نشأت في الهند والصين وأرض الجزيرة، أو ما بين النهرين، وأوضح من هذا كله وجود الحضارة والفكر الفلسفي حول نهر النيل بمصر.

**سادساً:** من باب الإيجاز والتوضيح، نقول: إن الفكر الإنساني لكي يكون فلسفياً أو لكي تنتج عنه فلسفة معتبرة، لا بد له من ثلاثة شروط:

**الأول:** شرط في البيئة.

**الثاني:** شرط في الفكر.

**الثالث:** شرط في الفكر ذاته.

- **أما شرط البيئة:** فكما ذكرنا لا بد أن تكون بيئةً مريحةً على مياه عذبة أو على الأنهار، وأن تكون غنية وافيةً بحاجات الإنسان التي يحى فيها.

- **أما الشرط في الفكر:** فذلك واضح من الشرط السابق أن يكون مستقراً مستغنياً عن هموم العيش ومشاكل الحياة المادية، قد كُفيَ هذه المشاكل وكفي همومها، وأيضاً لا بد أن تكون لديه خلفية ثقافية ينطلق منها إلى التفكير في الأمور العالية، الأمور الدائمة، الأمور العامة، والإنسان بدون هذه الخلفية الثقافية سيظل قابلاً مكانه لا يجد حافزاً ولا معاوناً على أن ينطلق من بيئته الفكرية العادية إلى البيئة الفكرية الفلسفية.

- **أما الشرط في الفكر:** فأن يرتفع التفكير لدى الإنسان عن الأمور المادية الجزئية الوقتية، وأن يكون هذا الفكر منصباً على الأمور العامة والمصيرية، كالبحث في

## نقد الفلسفة الغربية

### الدروس الأولى

أصل الوجود، أو في الإنسان بدءاً وانتهاءً، ثم هدفاً ومصيراً، أو في القيم وخيرية الأشياء وشريتها، إضافةً إلى شيء هام وهو أن يتسم هذا التفكير بالجدية والذكاء والعمق، وأن يخلو عن السذاجة والسطحية.

هذه شرائط التفكير الفلسفي من وجهة نظرنا، وأنظار المنصفين من مؤرخي الفلسفة.

لكن هناك من وضع شروطاً أخرى لغرض أو لأغراض وأهواء في نفسه سنتعرض لها حين نتحدث عن نشأة الفلسفة، وعن البيئة التي نشأت فيها.

### تعريف الفلسفة

#### تعريف الفلسفة:

الفلسفة تعرف من جهتين أو اعتبارين:

الاعتبار الأول: تعريف مبنى الكلمة

#### الفلسفة لغةً:

كلمة "فلسفة" ليست كلمة عربية، لأن العرب لم تكن لديهم فلسفة لكي يضعوا هذه اللفظة علامةً على هذا المعنى أو هذا النشاط الفكري، لم يكن هنالك لديهم فلسفة. ونحن نعلم أن اللغة إنما هي دلالة وضعية، كلما كان لدينا معنى معين وضعنا كلمة أو لفظة تدل عليه، وما دام العرب لم يكن لديهم فلسفة فطبيعي أنهم لم يضعوا كلمة تدل على هذا المعنى الذي لا وجود له عندهم، بالتالي إذا كلمة فلسفة لم تكن معروفة في اللغة العربية.

كان العرب لديهم حكمة ولديهم ذكاء ولديهم بلاغة، لكن لم يصل كل هذا إلى ما يسمى بالفلسفة، لذلك جاءت كلمة فلسفة ضمن ما جاء من عند اليونان من فلسفات وأفكار فلسفية مترجمة عندما ترجم من اليونان إلى اللغة العربية ترجمت الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية والثقافة اليونانية، ترجمت معها الكلمة التي تدل على ذلك.

فكلمة فلسفة كلمة يونانية، وهي مكونة من مقطعين:

**المقطع الأول:** "فيلو".

**المقطع الثاني:** "سوفو أو سوفي".

الكلمتان معاً "فيلو سوفي"... هذا نطقها باللغة اليونانية، "فيلو" تعني حباً أو تعني محبةً، "سوفي" تعني حكمةً أو الحكمة، ف"فيلو سوفي" باللغة اليونانية تعني حب الحكمة أو محبة الحكمة. وإذا نحن تجوزنا في استعمال الكلمة باعتبارها قد نحتت أو اشتقت من اللغة اليونانية وعربت عندنا، فيجوز لنا أن نتصرف فيها نوعاً من التصرف، ولذلك يجوز أن نقول: حب الحكمة، نقول: الاشتغال بالحكمة، نقول: البحث عن الحكمة، هذه كلها معنى كلمة فلسفة.

فلسفة كلمة منحوتة من اللغة اليونانية عُرِّبَتْ وأصبحت كلمة نستعملها في لغتنا دلالة على هذا المعنى الذي نريده من الفكر الإنساني الفلسفي. هذا معناها في اللغة.

**الفلسفة اصطلاحاً:**

**التعريف الأول:**

العلماء أو المؤرخون للفلسفة أو الفلاسفة أنفسهم، الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام مثل الفارابي وابن سينا، هؤلاء لهم تعريفات كثيرة حول كلمة فلسفة



من حيث الاصطلاح أو من حيث المعنى والمضمون والمحتوى. فهؤلاء الفلاسفة ذكروا تعريفات كثيرة لمعنى كلمة فلسفة، نذكر بعضها.

فعلى سبيل المثال قالوا: "إن الفلسفة هي حكمة الحكم وصناعة الصناعات". وهذا التعريف تعريف من جهة هويتها ومنزلتها ومكانتها بالنسبة إلى العلوم والمعارف الأخرى، حكمة الحكم وصناعة الصناعات، هناك صناعات كثيرة لدى الإنسان والإنسان لديه حكم كثيرة، لكن أحكم هذه الحكم وأفضل هذه الصناعات قالوا عند الفلاسفة المنتسبين قالوا: إنها الفلسفة، فإذا كان لدينا حكم كثيرة فأحكم هذه الحكم هي الفلسفة.

### التعريف الثاني:

وهذا تعريف للكندي - والكندي فيلسوف العرب، دخل إلى الفلسفة مسلماً ونحسب ولا نزكيه على الله، ولا نتقحم قدر الله فيه، نحسب أنه خرج من الفلسفة أيضاً مسلماً وإن كان على حرف؛ أما الفيلسوفان الآخريان الفارابي وابن سينا فقد فسقا عن الملة جملةً وتفصيلاً - الكندي عرف الفلسفة بأنها التشبه بأفعال الله تعالى قدر الطاقة، وهذا تعريف عند الكندي من حيث غايتها وتأثيرها في المشتغلين بها، وهي بهذا المعنى غاية لا تُدرك وأمل لا يتحقق.

### التعريف الثالث:

بأنها العناية بالموت، وقد أرادوا بذلك تعريف الفلسفة من جهة غايتها وأهداف المشتغلين بها، وقد أرادوا بالموت هنا ليس الموت الحقيقي الذي هو مفارقة النفس للبدن، وإنما أرادوا الموت المعنوي، أرادوا هنا إماتة الإنسان شهواته بحيث يصبح

فاضلاً؛ فأن يميت الإنسان شهواته ونزواته ونزغاته بحيث يصبح فاضلاً خيراً... هذا هو المراد من تعريفهم الفلسفة بأنها العناية بالموت.

#### التعريف الرابع:

عرفوا الفلسفة: بأنها معرفة الإنسان نفسه، قالوا: هذا هو تعريف الفلسفة... الإنسان هذا الذي يقال عنه دائماً هو الكون الأصغر فيه ملكات وفيه إمكانات وضعها الله -تبارك وتعالى- فيه، لو أن الإنسان انتبه إليها أو تفكر فيها أو حاول أن يعرف منشأها وفاعلها وخالقها ومبدعها ﷻ لكان الإنسان بهذا فيلسوفاً كبيراً، ولأخذت هذه الاجتهادات بيده إلى معرفة ربه ﷻ.

#### التعريف الخامس:

هناك تعريف آخر فقد عرفوا الفلسفة بأنها: "علم الأشياء الأبدية الكلية بماهياتها وعللها على قدر الطاقة" وهو تعريف لابن سينا وشارك فيه أيضاً الفارابي. لكن الفلاسفة يقسمون الأشياء التي يعرفها الناس أو يعرفها الإنسان ويشتغل بها، يقسمونها الأشياء أو يقسمون الوجود كله إلى قسمين كبيرين، ويضعون فلك القمر - هذا كلامهم - فاصلاً بين عالمين:

#### العالم الأول:

العالم العلوي، العالم السماوي، عالم الثوابت، ما فوق فلك القمر، هذه أربعة أسماء للقسم العلوي من هذا العالم، فلك القمر يفصل بين عالمين، هذا العالم هو الذي عبروا عنه في تعريف الفلسفة هنا حينما قالوا: علم الأشياء الأبدية الكلية بماهياتها وعللها على قدر الطاقة.

فالفلسفة إداً عندهم هي "الاشتغال بمحاولة". كلمة "محاولة" هنا من قولهم: على قدر الطاقة - بمعنى أن الإنسان حينما يفكر في العالم العلوي ويحاول أن يفهمه، لن يستطيع أن يفهمه كما يجب، ولن يستطيع أن يحيط به إحاطة كاملة، لذلك قالوا: على قدر الطاقة.

علم الأشياء الأبدية الكلية ليس بظواهرها ولكن بماهياتها وحقائقها وعللها على قدر الطاقة، قالوا هذا، هذا هو العالم العلوي.

### العالم الثاني:

الذي هو دون فلك القمر، ويقصدون به العالم الأرضي الذي نحن نعيش فيه، ويسمون العالم الأرضي أيضاً بأسماء أولها: ما دون فلك القمر، ثم يقولون عنه أيضاً له اسم آخر وهو عالم العناصر، العناصر هي التراب والماء، والهواء والنار... الماء والتراب، هذان عنصران سفليان، وهناك عنصران علويان: وهما الهواء والنار.

العناصر الأربعة لا توجد إلا في عالم الأرض، ولذلك سمو العالم الأرضي عالم العناصر، وسموا عالم الأرضي كذلك ما دون فلك القمر، وسموه كذلك عالم الكون والفساد، يعني عالم الوجود والعدم: الكون عندهم يعني الوجود، والفساد يعني العدم، والوجود والعدم لا يكونان في العالم العلوي عند الفلاسفة؛ لأنه عالم الثوابت والأبدية، أما عالم الأرض ما دون فلك القمر، فهو عالم الكون والفساد، ولذلك العالم الأرضي يسمونه العالم الأرضي ما دون فلك القمر، عالم الكون والفساد، عالم العناصر.

إداً هنالك أربعة أسماء للعالم العلوي وأربعة أسماء للعالم السفلي.

## موضوع الفلسفة

لم تنشأ الفلسفة عند نشأتها وعند شيوعها عند المشتغلين بها في ذلك الوقت على الوضع الذي هي عليه الآن، ولكن كانت الفلسفة في بداية نشأتها تطلق على جميع العلوم الإنسانية، تشمل جميع العلوم الإنسانية، والفيلسوف كان هو الذي يدرس ويعرف ويشتغل بجميع هذه العلوم.

فالفيلسوف مثلاً كان باعتباره فيلسوفاً أو باعتباره مشتغلاً بالفلسفة، كان يعرف علم النفس، وكان يعرف علم الفلك، وكان يعرف علم الاجتماع، وكان يعرف علم الطب، وكان يعرف أيضاً علم الموسيقى.

ولذلك إذا نظرنا على أرض الواقع، ونظرنا في حال فيلسوف من هؤلاء الفلاسفة وتحديدًا هذان الفيلسوفان الكبيران اللذان ينتسبان إلى الإسلام، أعني أبا نصر الفارابي، وأبا علي ابن سينا. كل واحد من هؤلاء كان فيلسوفاً، وكان العمل الذي يشتغل به أو المعارف التي يشتغل بها يُطلق عليها جميعها مرةً واحدةً فلسفة، فهو كان فيلسوفاً ويعمل بالفلسفة.

## موضوع الفلسفة لديهم؟

كان موضوع الفلسفة في ذلك الزمان الفلسفة التي نعرفها الآن، ثم الطب، ثم علم الاجتماع، ثم علم النفس، ثم علم الفلك، ثم الرياضيات، ثم بعد ذلك الموسيقي، يعني: حتى الموسيقى كانت تدخل في العلوم التي يجب أن يتصف بها الفيلسوف ويشتغل بها، كان هؤلاء جميعاً على هذا الحال. وكانت الفلسفة إذاً بهذا الإطلاق في بدايات الاشتغال بها أو انتشارها في المجتمع أو البيئة الإسلامية،

كانت تشمل موضوعات كثيرة ومتعددة، كان من موضوعاتها علم النفس، كان من موضوعاتها علم الاجتماع، وإن كان لم يتميز في ذلك الوقت بوضوح، كان من موضوعاتها علم الفلك، كان موضوعاتها علم الطب، كان من موضوعاتها كذلك علم الموسيقى، كل هذه في البدايات كانت فروعاً أو كانت موضوعات تدخل تحت عباءة كلمة فلسفة.

وكان جميع الفلاسفة المشتغلين بالفلسفة أو الذين يطلق على الواحد منهم فيلسوفاً، كان يشتغل بهذه كلها ولا بد أن يحصلها جميعها وإلا ما سمي فيلسوفاً.

بمرور الوقت بدأت هذه العلوم التي تشتمل عليها الفلسفة أو تنضوي تحت عباءة الفلسفة تستقل وتتمايز عن الفلسفة التي هي العلم الأم، انفصل عن الفلسفة علم النفس وأصبح علماً مستقلاً أطلق عليه هذا الاسم وهو علم النفس، وأصبح بعيداً عن الفلسفة، وإن كان بالضرورة علم النفس تحديداً وعلم الاجتماع كذلك علما الاشتغال بهما قريب جداً من الاشتغال بالفلسفة؛ لأن كل علم منهما علم نظري في غالبه، وإن كان علم النفس الآن فيه علم النفس التجريبي وكذا، لكن يظل دائماً هو علم يعتمد على التفكير الإنساني المحض في مجمله.

علم النفس تبعه علم الاجتماع، وهو لم يتبعه كعلم مستقل؛ وإنما حينما تمايز علم النفس أخذ معه ما يختص بموضوعات علم الاجتماع، فكان العلمان ينضويين تحت كلمة علم النفس، ثم بعد حين استقل علم الاجتماع عن علم النفس، فعلم الاجتماع حينما استقل لم يستقل عن الفلسفة، وإنما استقل مع علم النفس عن الفلسفة، فاستقل عن الفلسفة حين استقل علم النفس عنها؛ لأنه أخذ مع علم النفس، ثم استقل بعد ذلك علم الاجتماع عن علم النفس.

وأظن أن هنالك إشارة إلى هذا المعنى حين ننظر في الأقسام العلمية في جامعاتنا، نجد منذ زمن قليل -يعني: منذ سنوات قلائل، ربما عشرين عاماً، أو أقل، أو أكثر قليلاً - كان هناك دائماً علم النفس وعلم الاجتماع في قسم واحد، ثم استقل بعد ذلك علم الاجتماع عن علم النفس.

ثم استقل علم الطب وأصبح علم الطب علماً قائماً بذاته، ثم استقل بعد ذلك علم الفلك فأصبح الفلكيون لهم علومهم ولهم معارفهم الخاصة بهم، ثم استقل أيضاً علم الموسيقى، أو استقل فن الموسيقى، لا أدري إن كان الأفضل أن نسميه علماً أو نسميه فناً، أو يجتمع فيه الاثنان، لكن استقل هذا العلم أيضاً عن علم الفلسفة.

بقيت للفلسفة -بعد استقلال هذه العلوم كلها- موضوع هام، وهو علم يسمونه علم الحق والخير والجمال... الخير هو علم القيم، الجمال قيمة من القيم، الحق القيمة العليا في القيم، لكن هكذا يطلق عليه في عالمنا الآن أو بين المشتغلين بالفلسفة... يقولون: الفلسفة دراستها وأساسها الآن الحق والخير والجمال.

### شروط الفكر الفلسفي

#### شروط الفكر الفلسفي:

الفكر الإنساني الفلسفي شرائطه تتمثل في: البيئة والمفكر والفكر  
هذه الشروط إذا توفرت عند المفكر أو في أي وقت أو أي زمن أو أية بيئة أو أي ظرف من الظروف، إذا توفرت هذه الشروط في البيئة والمفكر والفكر، سمي هذا التفكير تفكيراً فلسفياً، ولذلك حين توفرت هذه الشرائط أو الشروط عند المصريين القدماء اعتبرنا تفكيرهم تفكيراً إنسانياً فلسفياً، واعتبرنا نتاج هذا التفكير

فلسفةً، وحين توفر هذا عند الصينيين القدامى أو في بابل أو في الهند، سمينا هذا التفكير فكراً أو تفكيراً إنسانياً فلسفياً، وسمينا ما نتج عنه فلسفةً.

لكن نبتت نابتة سوء في الغرب، فأضافوا شرطاً أو شرطين هامين للتفكير الإنساني لكي يسمى تفكيراً فلسفياً، ولكي يسمى من باب آخر تفكيراً إنسانياً معتبراً له قيمته وله وزنه.

فذكروا أن شرط التفكير الإنساني لكي يسمى تفكيراً فلسفياً له وزنه وله اعتباره، أن يكون التفكير ناشئاً عند الإنسان لمجرد التفكير أو لذات التفكير دونما هدف أو غاية، ودون دافع من خارج الإنسان نفسه، أمر عجيب! قالوا: لا بد أن يكون المفكر مفكراً لا لهدف ولا لغاية، الغاية الوحيدة التي تجعله يفكر هي مجرد اللذة العقلية التي يشعر بها المفكر، وضعوا هنا قاعدة قالوا: والفكر للفكر وللذة العقلية التي يشعر بها المفكر.

هذا يعني: أن المفكر إذا كان فكره يهدف به إلى معرفة ربه أو إلى معرفة ما يرضي الله ﷻ أو يعرف ما ينجيه في الآخرة من عذاب الله، أو لكي يعرف إن كان هنالك آخرة أو ليس هنالك، أو هنالك جنة أو نار أو كذا، قالوا: هذا الفكر إذا كان على هذه الكيفية فهو فكر ساقط ولا يعتبر فكراً فلسفياً بأي وضع من الأوضاع؛ لأن المفكر هنا إنما دفعه إلى التفكير خوفه من الله، أو خوفه من عذاب الآخرة، أو رغبته في أن ينجي نفسه من عذاب الآخرة عند الله ﷻ أو رغبته في أن يعرف ربه، قالوا هذه الغاية وهذا الهدف؛ لأنه هدف بعيد عن الفكر للفكر أو اللذة العقلية؛ وعليه فإن هذا تفكير ساقط، ولا يعتبر فكراً فلسفياً على الإطلاق.

وبناءً على هذه القاعدة، أخرجوا الفكر المصري القديم والفكر الصيني والفكر الهندي وكل هذه الفلسفات القديمة، من كونها فكراً فلسفياً معتبراً، وقالوا: هي فكر ساقط؛ لأن الهدف منها كان البحث عن الله، عن رضا الله، عن كيف ينجي الإنسان نفسه من عذاب الله يوم القيامة، أو في الحياة الآخرة، قالوا: ما دام هنالك هدف آخر سوى الفكر للفكر، فالفكر غير صالح لأن يوصف بأنه فكر فلسفي.

وهذه الشروط التي بينها هي تعبير عن وجهة نظرنا التي نحسبها هي الصواب الذي لا ينبغي لأحد أن يجحده، أو حتى يشغب عليه؛ ذلك لأن شروطنا هذه شروط طبيعة وواقعية، ومن ثم فهي موضوعية.

لكن هناك من رفض هذه الشروط جملةً أو رفض شيئاً منها، وأضاف من عنده هو شروطاً أخرى جعلها هي مناط التفكير الفلسفي، ومن ثم بنى عليها نشأة الفلسفة أو نشأة التفلسف. الأمر إذاً ليس أمر شروط بالفكر الفلسفي، بل الأمر الأساس الذي يسعى كل فريق أن يثبته ويؤكدده هو نشأة الفلسفة، وأين نشأت؟ هل نشأت لدى الشرق القديم؟ وهل كانت بذورها الأولى وخطواتها الناشئة في البيئات الشرقية، حيث الأنهار العذبة والحياة المستقرة والتفكير الراقى لدى الإنسان الشرقي؟ أم أنها نشأت في الغرب الذي حرم الكثير مما توفر لدى الشرق مما يساعد على نشأة الفلسفة أو نشأة التفلسف؟.



تابع: شرائط الفلسفة، ونشأتها

عناصر الدرس

- العنصر الأول : الشروط التي وضعها الغربيون ميزاتاً للفكر  
الفلسفي ٢٥
- العنصر الثاني : نشأة الفلسفة ٢٧



#### الشروط التي وضعها الغربيون ميزاناً للفكر الفلسفي

إن مؤرخي الفلسفة الغربيين قد وضعوا للتفلسف أو للفكر الإنساني الفلسفي شرطاً هو عندهم الذي يميز بين ما هو فكر فلسفي وما هو فكر عادي، ومن ثم يميز الفلسفة عن غيرها، فقد قرروا أن الفكر الفلسفي هو ما زاوله صاحبه انطلاقاً من اللذة الفكرية فقط، دونما دافع يدفع إليه، ودونما غاية يسعى إلى تحقيقها. لقد ذهب الغربيون إلى أن الفكر الفلسفي الذي يعتبر فلسفةً هو ما زاوله صاحبه للذة الفكرية فقط،

وهذا يعني: أن المفكر الذي تشغله قضايا دينه، أو يشغله مصيره في الحياة الآخرة، أو يدفعه إلى التفكير إصلاح حال الناس في مجتمعه، هذا المفكر وأمثاله فكرهم عند الغربيين فكر عادي ساقط لا يعد فكراً فلسفياً، ولا حتى فكراً ذا قيمة؛ لأنه فكر يسعى إلى هدف ويدفعه دافع أو دوافع.

هكذا ذهب الغربيون، وهذا شرط الفكر الفلسفي عندهم.

وهو شرط واحد يتركز في المفكر، والغربيون وضعوا هذا الشرط؛ تعصباً منهم وحقداً على الشرقيين الذين سبقوهم في مجال الفكر بألاف السنين - كما سنبين - ووضع الغربيين هذا الشرط تعصب جنسي مقيت، وانحراف عن الحق واضح وصريح، وبُعد عن منهج العلم ونزاهة العلماء، ولو أنصف هؤلاء الغربيون لعكسوا القضية تماماً، فإن الفكر العابس الذي لا يحقق هدفاً، ولا يسعى إلى غاية، ولا ينزع إلى أداء رسالة، هو الذي ينبغي علينا أن لا نعتبره فكراً ولا نسلك أصحابه في عداد المفكرين، فإن العقل ما عُد ميزة الإنسان الكبرى التي

تميزه عن الحيوان، إلا لأن له رسالة هي فوق العبث، ولأنه يحقق غاية هي أسمى من اللعب واللهو والضرب في بئداء الفكر دونما هدف أو غاية.

إننا يجب أن نزن قيمة الفكر بقيمة ما يسعى إلى تحقيقه من هدف أو غاية، وأن نجعل شرفه على قدر شرف الغاية التي يسعى إلى تحصيلها، وأن يكون قدره لدينا على قدر الدافع الذي دفعه والمحرك الذي حركه لتحقيق الغايات الشريفة والأهداف السامية التي تنفعه، وتصلح من حاله وحال المجتمع الذي يعيش فيه.

ولعل سؤالاً يجول في خاطركم الآن: ما الذي دفع مؤرخي الفلسفة الغربيين إلى وضع هذا الشرط فصيح الخطأ صريح الضلال؟ وليس من شك في أنهم يدركون خطأه، وأنهم لا يجهلون ضلاله، ومع ذلك فقد وضعوا شرطهم ذلك.

لقد أشرنا إلى سبب وضعهم ذلك الشرط حينما قلنا: إن ذلك منهم تعصب جنسي مقيت، إن الغربيين لأنهم يعتبرون التفلسف والفلسفة شيئاً عظيماً في تاريخ الأمم الفكري والثقافي، أرادوا أن يجعلوا الغرب هو مهد التفكير الفلسفي، ومنشأ التفلسف والفلسفة، حتى يجوز فضل نشأة الفكر الفلسفي لديهم، هذا إذا كان للفكر الفلسفي حقيقة أو للفلسفة فضل يذكر؛ لذلك فتشوا في سائر بلادهم الغربية فلم يجدوا بلداً له سبق في الفكر سوى اليونان، فأرادوا أن يتدعوا لها شيئاً لا يوجد عند غيرها ليقولوا: إن اليونان التي تمثل البلاد الغربية كلها تقريباً لها من السبق في الفكر والثقافة ما ليس لغيرها، ومن ثم نظروا في فكر اليونان فلم يجدوا فيه من الخصائص سوى أنه فكر لاه عابس لا وزن له ولا هدف ولا غاية، فاقتنصوا هذه النقيصة التي كان ينبغي أن تؤخذ ضده وتحسب عليه، اقتنصوها ثم جعلوا منها ميزةً وسبباً كبيراً وعظيماً بنوا عليه أن الفلسفة والفكر الفلسفي إنما نشأ أول ما نشأ في بلاد اليونان وعند اليونان أنفسهم.

ويأتي السؤال: ماذا عن الفكر لدى الشرقيين الذين سبقوا اليونان بألاف من السنين؟

قال الغربيون: إن فكر الشرقيين فكر ساقط لا وزن له ولا قيمة، لماذا؟

قالوا: لأنه فكر هادف واع؛ ولأنه فكر يسعى إلى تحقيق غايات نبيلة، وتحقيق منافع عظيمة، ولكنه ساقط لا وزن له، ولا يعتبر فكراً فلسفياً؛ لأنه لا يتوفر له ذلك الشرط الذي وضعوه، وشرطوا أن يكون الفكر مجرداً عن الهدف، خالياً من الغاية، بعيداً عن أن يدفع إليه دافع مهما كان شرف الدافع وتُبل المقصد.

### نشأة الفلسفة

#### نشأة الفلسفة:

يتفق مؤرخو الفكر الإنساني على أن الفكر الشرقي في موطنه الكثيرة قد توصل إلى أهم مجالات الفلسفة، وطرق جميع جوانب القضايا التي دار حولها التفلسف وذلك قبل الميلاد بألاف السنين، فهناك الفكر الفلسفي في الصين، وفي الهند، وفي بابل وآشور فيما بين النهرين، ثم في مصر، إن هذا الفكر الشرقي قد ترك آثاره الباقية قبل الميلاد بألاف السنين، وإذا ما صوبنا النظر تجاه الفكر المصري تحديداً، فإننا واجدوه قد سجل آثاره الثقافية والحضارية قبل الميلاد بخمسة ألاف سنة أو تزيد، وقد خلدت تلك الآثار فيما دونه المصريون منحوتاً من نصب وتمائيل وأهرامات وقصور، وبما دونوه مكتوباً على التماثيل والنصب وأوراق البردي وغيرها، وفيما خلفوا من آثار علمية أذهلت العلماء في كل العصور، وبخاصة في جوانب الطب والتحنيط والهندسة المعمارية.

لقد كان الفكر الشرقي بعامةٍ والمصري بخاصةٍ يعالج في قضاياها أهم المشكلات الفلسفية التي تمثل أساسَ الفكر الفلسفي وجوهره، حيث عني بالبحث عن الحقيقة، وشغَلَ نفسه بالحكمة والتعليل، وتناول كذلك بالبحث الأسئلة التي تدور دائماً حول الكون بدايةً ونهايةً، وهدفاً ومصيراً، وكما أن الفكر الشرقي عني ببحث هذه المشكلات العامة، فقد وضع لها من الإجابات والحلول ما كان يراه صائباً في زمانه وظروفه.

قد ننظر إلى هذه الإجابات على أنها ساذجة خاطئة، وقد ننظر إليها على أنها متخلفة، لكن ينبغي أن ننظر إليها ونقومها في إطار بيئتها وظروفها الزمانية والمكانية، كما ينبغي ألا نقيس شأنهم على أنفسنا، وقد أرسل الله إلينا نبيه يتلو علينا آياته، ويعلمنا الكتاب والحكمة ويزكينا - والله الحمد والمنة - ولم يكن لدى هؤلاء شيء من ذلك ولا أقول: "ذلك كله".

لكن رغم خطأ هذه الإجابات، إلا أننا نقول: إنها إجابات تستحق كثيراً من الإعجاب والتقدير ليس بإطلاق، فهي بإطلاق كاذبة خاطئة، لكنها تستحق الإعجاب والتقدير إذا ما قورنت بما وضعه فلاسفة اليونان وخلفاؤهم وأشياعهم حتى في العصر الحديث إجابةً على هذه التساؤلات.

ولعلكم تتساءلون أنتم أيضاً عن هذه التساؤلات التي تدور حولها الفلسفة أو التفلسف.

ونقول: إن هذه الأسئلة هي لب وجوهر التفكير الفلسفي أو على الأقل جوهر بداياته الأولى، وهي أسئلة توجد لدى جميع الشعوب وينشغل بها كافة الأمم، وهي أسئلة بسيطة طبيعية، لكن الإجابة عليها على قدر كبير وعظيم من الخطر والأهمية؛ لأنها تمثل فكر الإنسان، وأخطر من هذا تمثل عقيدته ودينه حول

نفسه وحول الكون من حوله، ثم عن خالق هذا وذاك، أعني الخالق العظيم -  
جل وعلا- الذي خلق الإنسان وخلق الكون كله.

وليس من شك في أن كل إنسان عاقل ينشغل بمحاولة معرفة نفسه ومعرفة الكون  
حوله، ثم معرفة الخالق الموجد.

وهذا البحث وتلك المحاولة تعبر عنها الأسئلة الثلاثة الشهيرة الآتية:

**السؤال الأول:** من أين؟ عن البداية.

**السؤال الثاني:** إلى أين؟ أي: النهاية.

**السؤال الثالث:** ولماذا؟ أي: وما الهدف بين البداية والنهاية.

مرة سمعت أحد المتحدثين الذين يعتبرون كباراً يجلس في التلفاز ويسأله من حوله  
حول هذه الأسئلة، فإذا هو يقول بلهجته العامية هكذا: "أنا والله يا جماعة لي  
الآن أكثر من أربعين سنة أبحث عن هذه الأسئلة ولم أصل فيها إلى إجابة" يبحث  
عن ماذا؟ يبحث عن هذه الأسئلة: من أين؟ يعني: أنا، والكون كله من أين؟ ما  
البداية؟ ثم يسأل أيضاً: وإلى أين؟ ما النهاية؟ ما مصير هذا الوجود؟ ما مصير  
أعظم شيء في الوجود الأرضي وهو الإنسان؟ ما مصير هذا الوجود وما مصير  
الإنسان؟ ثم لماذا وجد الإنسان ووجد هذا الوجود؟

وملاحظة يسيرة: إن هذا المتكلم يعتبر عند الجميع مسلماً، وديانته في تحقيق  
الشخصية: الدين مسلم، فهل تتخيل مسلم أو هل يتخيل أحدكم أن يجلس  
مسلم يعصر ذهنه؛ لكي يبحث عن إجابات لهذه الأسئلة؟! من أين؟ وإلى  
أين؟ ولماذا؟ لا يكون مسلماً أبداً، ولا مؤمناً أبداً، حتى ولو على حَرْفٍ مَنْ  
يجلس لبحث عن إجابات لهذه الأسئلة من ذهنه هو؛ لأننا نحن المسلمين لدينا

كتاب الله الحق الذي ينطق بالحق، ولدينا سنة رسول الله ﷺ وهي وحي من عند الله.

هل سكت القرآن عن الإجابة عن كلمة: من أين؟ لقد أجاب القرآن الكريم "من أين؟" عن خلق الكون، وكيف خلق الله هذا الكون في أيام معدودات - ستة أيام، واقراءوا إن شئتم أوائل سورة "فصلت" أجاب الله عن خلق آدم، أجاب الله عن المراحل التي مرت بها المادة التي خلق منها آدم: من تراب، ثم من ماء، ثم من طين لازب، هذا التفصيل، أين يجده ذلك الذي يجلس ليعصر ذهنه بحثاً عن إجابة للسؤال الذي يقول: من أين؟ وكل من يعصر ذهنه يقع في خطأ؛ لأنه لا سبيل إلى معرفة ذلك أو شيء من ذلك إلا عن طريق الوحي الشريف؛ لأن هذا غيب، ولا سبيل لنا أن نعرف شيئاً من الغيب إلا من خلال أمرين؛ من كتاب صريح أو سنة صحيحة، وما عدداً ذلك ضرب في بידاء الجهالة.

هذه الأسئلة: من أين؟ وإلى أين؟ ولماذا؟ يدور حولها موضوع الفلسفة أو التفلسف، وهناك أسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل، لكنها جميعاً تدور في فلك هذه الأسئلة الثلاثة:

من أين؟ ربنا أخبرنا، والخبر من ربنا هو خبرٌ من الفاعل الخالق العظيم، ليس اجتهداً ولا استنباطاً ولا ضرباً في بیداء الجهالة... وإلى أين؟ ربنا أخبرنا عن دار البرزخ، ثم عن الآخرة، ثم أخبرنا بتفصيلات لا تكاد تحصي عن النشور، وعن الحشر، وعن الموقف، وعن الصراط، وعن الجنة وعن النار، وعمما فيها كلها. أخبرنا ربنا عن ذلك، فهل يأتي مسلم ليعصر ذهنه ويقول: أنا أبحث عن إجابة إلى أين؟ ولماذا؟ سبحان الله! اقرءوا - إن شئتم - أواخر سورة الذاريات: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٨].



هذه إجابات الثلاثة.

لكن الفلاسفة الذين لا يؤمنون بالله ولا برسوله، والذين حُرِّموا نعمة القرآن الكريم التي نحن نحمد الله أعظم الحمد على هذه النعمة العظيمة، هؤلاء يفكرون في هذه الأسئلة.

إن الفكر الشرقي القديمة قد أجاب على هذه الأسئلة إجاباتٍ خاطئةً يقيناً، لكنها أفضل من إجابات اليونان، أجاب على هذه الأسئلة على فترات متفاوتة وأزمنة متباعدة، لكن لم يصب منها الحق إلا النادر الشاذ، وكان جميعها على خطأ، وكانت أخطاؤها تقترب من الحق أو تبتعد عنه لكن لم يصب الحق منها إلا مَنْ كان على سبيل من رسالة سماوية وعلم إلهي.

الفكر الشرقي - ونعني به الفكر الفلسفي بمصر والصين والهند وأرض العراقين: بابل وآشور - قد اقترب من الحقيقة بإثباته الألوهية، واقترب في بعض فتراته من التوحيد، لكنه ظل في إطار التفكير البشري غير المعصوم، لقد توصل الفكر الشرقي إلى إثبات الألوهية وأثبت التوحيد في بعض مراحلها، لكنه لم يكن تفكيراً ملحداً في أية مرحلة من مراحلها، كان خاطئاً كان معدداً كان مشركاً لكنه لم يكن إلحادياً، لم يكن فكراً ملحداً كذلك الفكر الذي أفرزه لنا فكر وفلسفة اليونان، والذي ظلت آثاره تطفو على السطح عند خلفاء اليونان من الدول الغربية، ومن الفلاسفة الغربيين ومفكريهم الذين تتميز فلسفاتهم في كثير من جوانبها بالإلحاد والعبث.

### أين ومتى نشأت الفلسفة:

لقد ذكرنا أن ثمة خلافاً جذرياً حول هذا الموضوع، فالغربيون ومن لف لفهم أو اقتدى بهم وفتن بأفكارهم من مؤرخي الفلسفة عندنا، مثل أحمد أمين، وطه حسين، وتوفيق الطويل، وزكريا إبراهيم، وزكي نجيب، وكثيرون غيرهم، يرون

## نقد الفلسفة الغربية

أن الفلسفة إنما نشأت عند اليونان وأن مهدها الأول كان هناك في الجزر اليونانية، وحين يكررون ذلك فإنهم يقطعون بالتالي بتاريخ نشأتها، فالفلسفة عند هذا القبيل من المؤرخين لم تنشأ لدى الإنسان إلا حول القرن الثامن أو السابع قبل الميلاد، وقبل ذلك لم تكن هنالك فلسفة، ولم يكن الإنسان يعرف ما هي الفلسفة؟

وقد بينا قبلاً الأساس الذي استند إليه هؤلاء الغربيون ومن سار على نهجهم، حيث اشترطوا في الفكر الفلسفي ألا يكون وراءه دافع أو أمامه هدف، وأن يكون خالياً من كل منفعة أو غاية، وهذا الميزان الذي وضعوه ليزنوا به ما هو فكر فلسفي وما ليس فكراً فلسفياً لم يتوفر إلا عند اليونان، وهم وحدهم الذين سخروا تفكيرهم للبحث في لا شيء، وللتفكير بلا هدف، وكانت فلسفاتهم فلسفةً لاهيةً عابسةً تافهةً، بلا غاية تسعى إليها ولا دافع يوجهها.

أما الشرقيون - ونحن منهم ومعهم - فقد ذهبوا إلى أن التفكير الفلسفي ينبغي أن يكون وراء دافع يدفعه، وموجه يوجهه، كما ينبغي أن يكون أمامه هدف يسعى إلى تحقيقه، ومصلحة يتوخى تحصيلها؛ لينفع نفسه والإنسانية، ولقد كان لدى الشرقيين من المنافع السامية والمصالح العالية ما يسخرون لها تفكيرهم، وكانوا يضمنون بتفكيرهم ومجهودهم الذهني والفكري على العبث واللغو، وبذل الجهد فيما لا يفيد. ومن جانب آخر كانت لديهم من القضايا الهامة والخطيرة ما لا يمكن لعاقل أن يغفله، ومن هنا نجد أنه قد اجتمع لدى الشرقيين أمران:

**الأمر الأول:** حرص منهم على فكرهم، واحترام لعقولهم، وتقدير لإنسانيتهم، أن يبذلوا كل ذلك فيما لا يفيد ولا ينفع تحت دعاوى جوفاء حمقاء، تتكلم عما يسمى الفكر للفكر، واللذة العقلية الخالصة! إلى غير ذلك من أمور يتجمل بها كل عاطل من الفكر، خالٍ من الفهم، ضعيف في العقل.

**الأمر الثاني:** وجود قضايا هامة ومسائل خطيرة لا يمكن لعقل أن يغفلها أو ينصرف عنها، أعني: قضايا الألوهية، والوجود، والذات، والكون: علويه وسفليه، والمحاولات الجادة التي ينبغي لكل عاقل يحترم وجوده ويقدر ذاته وكيانه أن يبحث عنها، ويفكر فيها، ويبدل في محاولة فهمها وحل مشاكلها وإدراك كنهها غاية الجهد الذهني، ونهاية الوعي الفكري؛ كي يصل في النهاية إلى فكر صحيح وفهم صريح لهذه القضايا الخطيرة التي يرتبط بها مصير الإنسان في الدنيا والآخرة.

لكل ذلك يرى مؤرخو الفلسفة الشرقيون ومن كان معهم أن الفلسفة إنما نشأت في الشرق القديم، وكانت نشأتها قبل الميلاد بآلاف السنين، وكان مهدها الأول على ضفاف نهر النيل بمصر القديمة، حيث كان الفكر المصري القديم الذي أثبت الألوهية، وأثبت صلة العبودية بين الإنسان المصري القديم وإلهه الذي توصل هو إليه وخضع له، وآمن به، وأقام من أجله أضخم المعابد التي عرفها البشر، وبنى لنفسه معجزة بنايات في الدنيا كلها - أعني: الأهرامات - إيماناً منه باليوم الآخر والبعث بعد هذه الحياة الدنيا، بكل ذلك لا نجد مسوغاً معقولاً لهؤلاء الذين يسقطون الفكر الشرقي القديم من حصيلة الفكر الإنساني المعاصر، والتفكير الفلسفي المتميز، ويجعلون القيمة كلها والوزن والتقدير لذلك الفكر اللاهوتي العايب الساقط لفلاسفة اليونان الأوائل القدامى.

ونحن لا يخفى علينا الهدف الذي يهدفون إليه من ذلك، فهم لا يجهلون كل ما ذكرنا، لكنهم يقلبون الحقائق فيجعلون الحق باطلاً والباطل حقاً، ويزعمون أن التفكير الشرقي تفكير ساقط والتفكير اليوناني تفكير فلسفي معتبر، كل ذلك لكي يثبتوا أن الفلسفة إنما نشأت عند اليونان الذين هم أجداد الشعوب الغربية، وبذلك يقولون: إن الفلسفة بدأت في الغرب وليس في الشرق، وإن الفلاسفة الأوائل هم اليونان أجدادهم. هذا ما يهمهم، وليس الحق والعدل والإنصاف.

على أن ثمة ملحظاً هاماً لا ينبغي أن نترك المجال دون أن ننبه إليه : ذلكم أن المعركة التي تكلمنا عنها وأثرنا غبارها ، هي التعصب للفلسفة والافتخار بها ، واعتبار الانتساب إليها شرفاً يحاول الغربيون والشرقيون الحصولَ عليه واقتناصه دون الآخرين ، بينما نحن المسلمين لا نجد في الفلسفة ما يوجب شيئاً من ذلك كله ، فلا الفلسفة فخراً وربحاً للمتفلسفة ، ولا الانتساب إليها شرفاً لمن ينتسب إليها أو يتعاطاها ، وبخاصة تلك الفلسفات التي تدور جميعها حول الفكر المناوئ للدين الحق.

فالفلسفة بين وثنية أو إلحادية أو كفرية بصورة عامة ، وهذه الفلسفات بأنواعها قد زاحمت الفكر الإنساني ، وزاحمت الثقافة والمعرفة ، وضيقَت المجال أمام المعارف الدينية التي كان الأولى والأأنفع أن ينشغل بها فكر الإنسان ، وأن يملأ الإنسان بها وقته بدل أن يضيع الفكر والوقت والعمر في الاشتغال بفلسفات كافرة ضالة وأفكارٍ كاذبةٍ خاطئةٍ.

قد يقول البعض : إن الفلسفة لها رنين وطنين ولها وقع ولها مكانة في دنيا الثقافات والمعارف ، فكيف يكون للآخرين فلسفات من هذا النوع ذي الدوي في عالم الثقافات ، ولا يكون لنا نحن المسلمين مثل هذه الثقافة عالية المكانة - نعني : الفلسفة - ؟ كيف لا يكون للمسلمين فلسفة وهي لدى جمهرة الفرقاء أعلى درجات الثقافة؟ وجوابنا على هذا السؤال في أمرين :

**الأمر الأول :** أننا لا نقبل من الفكر إلا ما كان مُسلم المبنى مُؤمن المعنى ، فالفكر المسلم المؤمن هو المقبول عندنا ؛ لأنه هو الذي ندين به ، ونسعى إليه ، ونعمل في إطاره ، وهذا الفكر في أية صورة من صوره وتحت أي مسمى من أسمائه ، سنجدُه هو الإسلام أو هو من الإسلام بسبيل.

**الأمر الثاني :** أننا نحن المسلمون لدينا فلسفتنا الخاصة بنا ، وهي فلسفة عظيمة القدر ، رفيعة المنزلة ، جزيلة النفع ، عالية المكانة ، يغلفها الإسلام من الخارج

ويطبيها الإيمان من الداخل والمحتوى، الاشتغال بها شرف، والانتساب إليها فخرٌ وعز، والعمل بها هو الإسلام والإيمان، إنها علم أصول الفقه، ذلك العلم الإسلامي الإيماني الذي يتفرد بين جميع الثقافات والفلسفات، فلا يوجد له مثيل عند أي من المتدينين ولا من المتفلسفة الذين يتكلمون ويتقنعون، ويتفاخرون بما لديهم من فكرٍ ضالٍّ وأفكارٍ كاذبةٍ خاطئةٍ، هذا العلم هو الذي نفتخر به، ونشرف بالاشتغال به، والانتساب إليه، إن افتخر الآخرون بفلسفاتهم الضالة وأفكارهم الفاسدة المنحرفة، ولن نتدنى بهذا العلم الشريف، فنقيم مقارنة بينه وبين أي من الفلسفات الضالة، فإن المقارنة لا تكون إلا بين المتماثلين أو المتقاربين عند توافر الحد الأدنى من الثقافة، لكن أصول الفقه أو الفلسفة الإسلامية أسمى وأعلى وأعظم من الفلسفات الضالة الكثيرة.

ويكفي أن نقول: إن بين علم أصول الفقه وبين فلسفات ما بين الإيمان والكفر، وما بين الهدى والضلال.

نحن ندرس هذه المادة لا لنعظمها ونقدرها ولا لكي نجعلها تحتل من نفوسنا منزلة فوق ما يحتله الفكر الضال، والفكر الكاذب، لكننا ندرسها؛ لأنه ما لا يدرك لا يترك، وما له مَساسٌ بحياتنا لا بد أن نكون على وعي منه وعلى ذكر بجميع ما فيه. وكما قال الحكماء: ما تعلمت الشر للشر ولكن تعلمت الشر كي أتقيه.

نحن ندرسها لكي نعرف أن هذه الفلسفة التي لدى الغربيين وهذه الفلسفة التي هاجرت من الغرب قفزت إلينا من كل المنافذ، هذه الفلسفة لا بد أن نعرفها لا لكي نضيع فيها وقتًا ثمينًا، بل لكي نعرف ضلالها وفسادها، وبالتالي نعرف النعمة العظمى التي منَّ الله بها علينا، وهي دينُ الله الإسلام دين الله الحق.



## العرب والفلسفة

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : العرب قبل الإسلام ٣٩
- العنصر الثاني : العرب بعد البعثة النبوية الشريفة ٤٨





## العربُ والفلسفةُ:

كثيراً ما يهمل الدارسون الكلام عن العرب والفلسفة، قد ألفنا الحديث عن الفلسفة والفلاسفة لدى اليونان قبل الميلاد ببضعة قرون، وقبل بعثة سيدنا رسول الله ﷺ نتكلم عن الفلسفة والفلاسفة لدى اليونان، ثم نقفز مباشرةً إلى الحديث عن الفلسفة والفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، وبين الحديث عن فلسفة اليونان والفلسفة المنتسبة إلى الإسلام هناك حلقة منسية، أو مهملة، هي الحديث عن العرب والفلسفة.

وهذه الحلقة التي نتكلم عنها الآن تشمل العرب قبل الإسلام، ثم في الصدر الأول للإسلام، وحتى ظهور الترجمة العربية للفكر اليوناني، تلك الترجمة التي انتشرت وذاعت منذ بدايات القرن الثالث الهجري الذي يوافق التاسع الميلادي، فهذه الفترة أو هذه الحلقة من حلقات الفكر لدى العرب - هي فترة أو حلقة قلما يتناولها الباحثون بالدراسة، بل يندر أن يهتم لها أحد ولو حتى بإشارة، عداً شذرات من الحديث عنها لدى المؤلفين العرب من المؤرخين للفكر والمذاهب، كالشهرستاني، والجاحظ، والقاضي صاعد، وأمثالهم.

لذلك وجدنا من باب تصحيح الأوضاع الخاطئة، والتنسيق الصحيح لتاريخ الفكر، وإعطاء هذه الحقبة المنسية حقها من البحث، وجدنا لزاماً علينا أن نركز على موضوع العرب والفلسفة؛ لننظر نظرةً فاحصةً ونفتش ونبحث وندقق ونمحص؛ لكي نقرر في النهاية: إن كان لدى العرب فلسفة أو لم يكن لديهم شيء من ذلك...

## نقد الفلسفة الغربية

وابتداءً قد قابلتني مشكلة قد يراها بعضكم بسيطة أو ليست بذات شأن، لكنني رأيتها غير ذلك؛ لأمر ومسوغات نتكلم عنها بعد - إن شاء الله - هذه المشكلة تتعلق بالعنوان هل نجعل العنوان: العرب والفلسفة؟ أم نجعل العنوان: المسلمون والفلسفة؟ مع ملاحظة أن الفارق بين الأمرين أو بين العنوانين كبير وجوهري، ذلكم أننا إذا اخترنا العنوان الأول "العرب والفلسفة" سيكون البحث والكلام في هذه المحاضرة حول الجنس العربي تحديداً، ولا يدخل في الكلام أحد من غير العرب، أما إذا اخترنا العنوان الثاني وهو "المسلمون والفلسفة" فسيكون هذا الموضوع والكلام فيه شاملاً للعرب وغير العرب من الذين دخلوا الإسلام، ثم اشتغلوا بالفلسفة.

مع ملاحظة شيء هام جداً هنا، صحيح أنه ليس في جوهر موضوعنا لكنه أمر هام بالنسبة للنقطة التي أثرناها الآن، عندما نقول: "المسلمون والفلسفة" لن يقتصر الأمر إذاً على العرب الذين اشتغلوا بالفلسفة، سيكون شاملاً للمسلمين من غير العرب، المسلمين الأعاجم الذين دخلوا الإسلام أفواجا، ثم اشتغلوا بالفلسفة، أمثال هؤلاء من مثل الفارابي وابن سينا وابن رشد وابن باجه وابن طفيل... إلى آخر هؤلاء.

ونحب أن نقرر في عَجالة أن أشهر الفلاسفة في المشرق العربي كانوا ثلاثة: الكندي، وهو فيلسوف العرب، والفيلسوف الوحيد من الجنس العربي أو من بين العرب الذي اشتغل بالفلسفة، ولذلك كنيته التي لا يشاركها فيها أحد غيره هو "فيلسوف العرب" فإذا قيل: فيلسوف العرب، عُرِفَ أنه الكندي. ثم هنالك بعد ذلك الفلاسفة الآخرون ليسوا جميعاً من العرب: الفارابي أعجمي، ابن سينا أعجمي، ابن رشد وغيره من الفلاسفة في المغرب العربي كلهم أعاجم.

يكاد يجمع المؤرخون للفكر الإنساني على أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم فلسفة ولا تفلسف، ولم يُؤثّر عنهم في مجال الفلسفة أو التفلسف شيء قط، وأن إبداعهم في مجال الفكر لم يكن يتعدّى بلاغة اللسان في الشعر، أو قوة الجنان في ذكر العبارة الحكيمة، أو دقة البيان في إطلاق المثل السائغ. يقول الشهرستاني في كتابه (الملل والنحل) عند الكلام عن الحكماء وأصنافهم: "الصنف الثاني حكماء العرب وهم شردمة قليلة، وأكثر حكمهم فلتات الطبع وخطرات الفكر". انتهى كلام الشهرستاني.

وهذه عبارات شديدة قاسية، فهو يصف العرب بأن منهم حكماء، ثم يصف هؤلاء الحكماء بأنهم شردمة قليلة، ثم يقول: "إنهم مع قلتهم وكونهم شردمة فليس لهم من الحكمة شيء". ولا ندري؟! على أي اعتبار وضعهم ضمن الحكماء إذا لم يكن لديهم من الحكمة شيء؟! وإذا كانت كل حكمتهم فلتات وخطرات، و الفلتات التي تصدر عن الإنسان دونما تقدير أو تدبير هل تعتبر حكمة؟ وهل يعتبر قائلها حكيماً؟!.

وعلى كل، فذلك رأي الشهرستاني في العربي قبل الإسلام، والذي تعمد أن يذكره ويؤكدده. ونحن لا ننسى أن الشهرستاني ليس بعربي، ولكنه أعجمي شعوبي، وكانت في زمانه الحركة الشعبية التي قامت تفضل العجم على العرب، وتذكر من نقائص العرب بقدر ما تذكر من محاسن العجم زوراً وبهتاناً.

وإذا كان ذلك رأي الشهرستاني المتهم في ولائه للعرب، فلنذهب إلى رجل آخر؛ لنرى ماذا يقول عن العرب والفلسفة، فهذا هو القاضي أبو القاسمي صاعد بن أحمد، المشهور بالقاضي صاعد، يقول في كتابه (طبقات الأمم) عن الموضوع نفسه عند كلامه عن العرب: وأما علم الفلسفة فلم يمنحهم الله - يقصد العرب - عَجَلٌ شيئاً منه، ولا هياً طباعهم للعناية به.

## نقد الفلسفة الغربية

فالشهرستاني والقاضي صاعد يؤكدان كلاهما على أن العرب لم يكن لديهم فلسفة أو تفلسف، ولكن القاضي صاعد يزيد على الشهرستاني - كما يلاحظ ذلك الشيخ مصطفى عبد الرازق في كتابه (تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية) ونحن معه - : أن القاضي صاعداً يزيد فيبين سبب جهل العرب بالفلسفة، ويبين سبب عدم اشتغالهم بها، ويقرر أن ذلك راجع إلى طبيعتهم التي جبلهم الله عليها، فانعدام التفكير الفلسفي عند العرب، وعدم اشتغالهم بالفلسفة، راجع إلى طبيعتهم كما يقول القاضي صاعد. فالأمر راجع إداً إلى مشيئة الله سبحانه الذي لم يمنح العرب شيئاً من ذلك العلم، وجعل طباعهم تنفر منه، ولا تصلح للاشتغال به. هذا كلام القاضي صاعد.

وهذا غير صحيح على الإطلاق، فانعدام الفكر الفلسفي عند العرب ليس راجعاً إلى طبيعة العرب، بل هو راجع إلى الظروف التي أحاطت بتلك الطبيعة، فحرمتها الاشتغال بالفلسفة، هما أمران إداً عند الشهرستاني وعند القاضي صاعد:

**الأمر الأول:** أن العرب قبل الإسلام لم يكن لديهم فلسفة ولا تفلسف، ولم تكن لهم عناية بهذا الجانب من التفكير الإنساني، وذلك كلام نتفق فيه تماماً مع الشهرستاني والقاضي صاعد، وغيرهم، فذلك حق لا ينبغي إنكاره.

**الأمر الثاني:** فهو تعليل ذلك بأن طبيعة العرب لا تصلح للتفكير الفلسفي ولا الاشتغال به؛ لأن الله تعالى لم يهيئ طباعهم لهذا الفكر الدقيق، وذلك الفهم العميق. ونحن نرفض هذا الرأي جملةً وتفصيلاً، فهو رأي باطل وغير صحيح على الإطلاق، وكما ذكرنا أن خلو البيئة الثقافية عند العرب قبل الإسلام من الفكر الفلسفي ليس راجعاً إلى طبيعة العرب، وإنما هو راجع بالدرجة الأولى إلى

الظروف الحياتية والإمكانات المعيشية التي كانت تشيع وتحكم البيئة العربية وقت ذلك. أما طبيعة الإنسان العربي فليست تقلُّ عن طبائع الشعوب الأخرى في الإنتاج الفكري، بل لعلها تزيد كثيراً، ذلكم أن العربي هو ابن الصحراء.

وقد أجمع علماء الأجناس على أن سكان الصحراء من أصح الناس أجساماً، وأكثرهم ذكاءً وأصفاهم نفوساً وأطهرهم قلوباً إذا فقهوا، وقد كان العرب قبل الإسلام كذلك، والدليل على أن طبيعة العربي لا تقل عن طبيعة الآخرين في الاشتغال بالفكر الفلسفي، أن العرب عندما أتاحت لهم الظروف البيئية، وتوفرت لهم الشروط الحياتية - التي أشرنا إليها قبلًا ونشير إليها بعداً بحوله تعالى - وعندما توفر لديهم بعض ما توفر لدى الآخرين، عندما حدث ذلك فتح العرب مغاليق العلوم، وبرزوا في كل فروعها العملية والنظرية، وكانوا الرواد في العلم التجريبي بفروعه المختلفة، وحين أتيت لهم تراث اليونان والفرس وغيرهم من الفلسفات النظرية والعملية، ترجموا كل ذلك، وشرحوه، ونقدوه، وأضافوا إليه الجديد الذي يذري بالقديم، وكان لهم فكرهم المستقل الذي فاق المتقدمين، ولم يدركه أحد من المتأخرين.

ورغم ذلك، فإن الدعوى التي ذكرها القاضي صاعد والتي طعنت في طبيعة العربي الثقافية ومستواه الفكري المتدني بالنسبة إلى الأجناس الأخرى، هذه الدعوى تلقفها الكثيرون وبخاصة المستشرقون من أمثال "رينان" و"جولد تسيهر" وغيرهم تلقفوها ورددوها ورددها من بعدهم أذيلهم وأشياهم المفتونون بهم، وهؤلاء - أعني: المستشرقين - لم يأتوا بشيء من عندهم وإنما تلقوا وتلقفوا دعاوى الشعوبيين والمخدوعين الذين طعنوا في العقل العربي بخاصة، والعقل السامي بعامة، وجعلوه في منزلة أدنى من العقل الآلي الذي تمثله الشعوب الغربية.

## نقد الفلسفة الغربية

ومن أشهر الذين شهروا بالعقل العربي وطعنوا فيه الجاحظ في كتاباته، وتحديدًا في كتابه (البيان والتبيين) عند كلامه عن العرب، حيث يقول مقارنًا بين العقل العربي والعقل الفارسي: "إلا أن كل كلام للفرس وكل معنى للعجم، وإنما هو عن طول فكرة واجتهاد وخلوة - يقصد بالخلوة هنا التفكير المستقل - وعن مشاورة ومعاونة، وعن طول التفكير ودراسة الكتب، وحكاية الثاني علم الأول، وزيادة الثالث في علم الثاني، حتى اجتمعت ثمار الفكر عندهم، وكل شيء للعرب وإنما هو بديهية وارتجال وكأنه إلهام".

وهذا الكلام رده من بعد الجاحظ كثير من المستشرقين، ثم أخذه عن المستشرقين جمهرة المستغربين الذين يعيشون على فئات موائد الغربيين يرددون ما يقولونه، ويلوكون ما يلفظونه، يقول أحمد أمين -أحد هؤلاء- : لاحظ بعض المستشرقين أن طبيعة العقل العربي لا تنظر إلى الأشياء نظرة عامة وشاملة، وليس في استطاعتها شيء من ذلك.

ويقول إبراهيم مذكور: "لقد صرح "رينان" -مستشرق فرنسي حاقد، من أساتذة طه حسين عندما كان يتعلم في فرنسا، وقد استقدمه طه حسين؛ ليدرّس في كلية الآداب جامعة القاهرة في بداية نشأتها- أنه أول من قرر أن الجنس السامي الذي منه العرب دون الجنس الآري الذي ترجع إليه الشعوب الغربية. وكان لرأيه وزنه في فريق من معاصريه، وعندهم أن العقل السامي -أي: العربي- لا طاقة له إلا على إدراك الجزئيات والمفردات منفصلاً بعضها عن بعض، أو مجتمعةً في غير تناسب أو انسجام أو تناسق أو ارتباط. فالعقل السامي -يقصد العربي- عقل مباعدة وتفريق وليس عقل جمع وتأليف، أما العقل الآري -يقصد العقل الغربي- فعلى خلاف ذلك".

هكذا يقول إبراهيم مدكور، ثم لا يعلق على ذلك الكلام بشيء؛ دليلاً على أنه موافق عليه وأنه يتوخاه ويتبناه.

هكذا طعن بعض المؤرخين للفكر العربي من الشعوبيين كالجاحظ وغيره، وهكذا أيضاً تلقف المستشرقون وأذيالهم من المستغربين هذه الأفكار الطاعنة في العقل العربي، مستندين في ذلك إلى نتائج العقل العربي في الجاهلية من قصائد شعرية وحكم وأمثال ثرية، زاعمين أن هذه هي المثل الذي لا يكذب في بيان حقيقة العقل العربي، بل والكشف عن إمكاناته وطبيعته. وقد تناسى هؤلاء وأولئك - ولا أقول: نسوا، بل أقول: تناسوا؛ لأنهم يدركون أنهم يكذبون على العقل العربي، وأنهم يتجنون عليه - أن العقل العربي كمثل أي عقل بشري أو هو أفضل، العقل العربي هو ابن بيئته، وتناسوا أن التفكير الفلسفي له شروط لا بد من توافرها؛ لكي يرتفع الفكر من المشاكل الحياتية المادية التي يعيشها إلى المستويات الأعلى والأرحب في عالم الفكر المجرد أي: التفكير الفلسفي.

لقد مر بنا كلام كثير عن الشروط التي يجب توافرها للفكر الإنساني حتى يخرج من عالمه الضيق إلى عالم التفكير الفلسفي الرحب، وقد تكلمنا عن هذه الشروط التي وضعناها نحن، كما تكلمنا عن الشرط الذي وضعه الغربيون، وجعلوه دليلاً على أن الفكر هو فكر فلسفي، فنحن وهم متفقون على أن ثمة شروطاً لا بد من توافرها حتى يتوفر الفكر الفلسفي ويوجد، وقد تكلمنا عن هذه الشروط وأفضنا فيها، كما أن الجاحظ في النص الذي ذكرناه آنفاً قد بين بوضوح شرطاً هاماً من شروط الإنتاج الفلسفي، أعني: شرط الخلفية الثقافية القائمة على التدوين والكتابة.

ونحن نجد أنفسنا أمام هذا الهجوم على العقل العربي مضطرين إلى أن نشير - ولو بإيجاز - إلى أهم الشروط التي يجب توافرها؛ لكي يوجد التفكير الفلسفي لدى أي إنسان فرد أو جماعة مؤتلفة.

وهذه الشروط هي :

**الشرط الأول:** أن يكون الإنسان مستريحاً نسبياً في حياته ، توفرت لديه وسائل العيش المريح والحياة المستقرة الآمنة ، وشرطا الاستقرار والأمن هنا شرطان أساسان لوجود الفكر الفلسفي ؛ لأن الإنسان الذي يعيش حياة الفقر والجوع وندرة الرزق ، ويسيطر عليه الشعور بالقلق والخوف من العدوان ونشوب الحرب والقتال ، هذا الإنسان كيف يفكر فلسفياً؟ أو كيف يضرب بفكره في الوجود المطلق بينما وجوده المحدود محكوم عليه بالخوف الدائم ، والأمن والاستقرار في شئون الحياة كلها على قدر كبير من الأهمية والخطر يحتاجه المرء في كافة شئونه ، وليس في التفلسف فقط؟! .

لذلك من الله ﷻ على قريش بهذين الأمرين ، فقال سبحانه : ﴿ فليعبدوا ربَّ هَذَا الْبَيْتِ ﴾ ٢ ﴿ الَّذِينَ أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَءَامَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ﴾ ٤ ﴿ [قريش ٣ : ٤٤].

**الشرط الثاني:** أن تكون لديه خلفية ثقافية تمثل قاعدةً ينطلق منها الفكر إلى الغايات العليا والمجالات الأكثر تجرداً وتعقيداً ، والخلفية الثقافية التي نعينها والتي أشار إليها الجاحظ ، تشمل الفكر وتشمل التدوين جميعاً ، فالتدوين وتسجيل الفكر في الكتب والمدونات أمر على قدر كبير وخطير في نشأة الفكر الفلسفي ، وهذا الذي أشار إليه الجاحظ عندما تكلم عن الكتابة ، ووجوب تسجيل الفكر في الكتب ، وقد بين أن التدوين في الكتب تمتد فائدته إلى أكثر من الحفاظ على الفكر من الضياع ، ففائدته تمتد إلى تيسير الاطلاع على الفكر الموروث ، وتيسير الانتفاع بها للأجيال القادمة ، كما يضمن عدم ضياع الفكر أو فقدانه.

هذه مجمل الشروط الواجب توافرها في أية بيئة ؛ لتكون صالحة لوجود الفكر الفلسفي بها ، ولكي تكون على حال تؤهلها للتفكير الفلسفي والاشتغال بالفلسفة.



إن بيئة العرب قبل الإسلام كانت بعيدة عن الاستقرار، محرومة من الأمن، خالية من الاستقلال كان العرب يرتحلون وراء الكلاً، و ينتظرون الغيث الذي قد ينقطع عنهم طويلاً حتى لا يجدوا ما يطعمون، كانوا يتوقعون الغزو في كل وقت، الطبيعة عندهم بين حار وكر، والعيش فيهم بين جوع وعري، ولم يكن هذا حال البادية فقط، بل إن العرب الذين كانوا يعيشون في المدينة قبل الإسلام كانوا أيضاً كذلك؛ لأن مشاعرهم مرتبطة بأهل البادية لقراية أو حلف، وكانت أسباب عيشتهم موصولة بالخوف الدائم حيث تجارتهم تمر بطرق يحكمها السلب والنهب، فإذا ما أضفنا إلى ذلك أن العرب كانوا أميين لا يقرءون ولا يكتبون، ولذلك لم يكونوا يعرفون تدوين العلوم ولا تسجيل الأحداث، وإنما كانوا يعتمدون على الذاكرة التي اشتهروا بقوتها، حتى يحكى عنهم في ذلك ما يدخل في إطار الإعجاز، لكن الذاكرة مهما قويت فلا يمكن أن تفي بما يفني به التدوين والتسجيل والتأليف والكتابة.

لهذا لم يكن لدى العرب قبل الإسلام فلسفة ولا تفلسف.

لكن لا ينبغي أن نغفل أمراً هاماً قد يراه البعض يسيراً، لكننا نراه على قدر من الأهمية؛ لأنه لفت الأنظار وهياً النفوس للبعثة النبوية القادمة، نعني بهذا دور الحنفاء، ثم دور النبوات اليهودية والنصرانية، ففي هذه البيئة العربية التي خلت من الفلسفة بل وخلت من كل أنواع الثقافة والعلم المدون المسجل، كان هناك بصيص من نور النبوات السابقة من دين إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- يُضاف إلى ذلك تلك الأخبار التي كان يرددها يهود ونصارى الجزيرة عن قرب بعثة نبي قُرب زمان ظهوره، وأطلت أمارات بعثته، وقد تواترت هذه الأخبار وتكاثرت حتى أثرت في نفوس الكثيرين من أصحاب الفطر الصحيحة، فأخذوا يراجعون أنفسهم، وبيحثون أمر الأوثان التي يدينون لها.

ومن ثم فقد ظهرت طائفة من هؤلاء نبدوا عبادة الأوثان، وأخذوا يدعون الناس إلى التوحيد الخالص ونبد عبادة الأصنام، وقد سميت هذه الطائفة بالحنفاء، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل الذي يقول فيه الشهرستاني عند كلامه عن الحنفاء: فممن كان يعرف النور الظاهر، والنسب الطاهر، ويعتقد الدين الحنيف، وينتظر المقدم النبوي الشريف، زيد بن عمرو بن نفيل الذي كان يسند ظهره للكعبة الشريفة ويقول للطائفين حول الكعبة: أيها الناس، هلموا إليّ، فإنه لم يبقَ على دين إبراهيم أحد غيري. هذا كلام زيد بن عمرو بن نفيل.

وهذا الذي دعا إليه هذا الرجل وأمثاله ليس فلسفة ولا هو تفلسف، ولكنه استثناس بالرسالات السابقة، واستبشاع واستقباح لما كان عليه القوم، ولقد ظل حال العرب على ذلك حتى جاءت البعثة النبوية الشريفة.

وهنا نأتي إلى الحدث الأهم ليس في تاريخ العرب فقط، بل في تاريخ الدنيا كلها والبشرية جميعها.

### العرب بعد البعثة النبوية الشريفة

العرب بعد البعثة النبوية الشريفة:

ظل حال العرب على ما وصفنا حتى جاءت البعثة النبوية الشريفة، وكان المجتمع العربي كالبحيرة الراكدة يعيش على وتيرة واحدة؛ عادات وتقاليد متوارثة ولازمة وملزمة لكل عربي في البيئة العربية كلها، حتى كأنها دين، بل هي فعلاً دين، ودين العرب الوثني الذي كانوا يعيشون عليه في ذلك الوقت كان ديناً وثنياً، وكانوا يسمونه عادةً وتقليداً، قالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ ءَاتِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]. كانت هذه حال البيئة العربية.

لما جاءت البعثة النبوية الطاهرة الشريفة أثارَت موجاتٍ متتاليةً مركزها محل البعثة، لكن الموجات انتشرت إلى جميع الأنحاء شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، فلقد حركت البعثة النبوية قلوب الناس، وأحيت موات العرب، واستثارت عقولهم وألباهم، فأخذوا يتساءلون عن حقيقة آلهتهم، وعن مدى حقية ما يدينون به من وثنية وصنمية.

وقد تولى الوحي المعصوم إمداد الناس بالإجابات الصحيحة المعصومة لكل الأسئلة التي تشغلهم، والتي يبحثون عن إجابات لها، ووفر لهم الوحي الشريف الحقائق واضحةً بينةً بأسلوب عربي مبين، وهذه الإجابات وتلك الحقائق إنما جاء بها الوحي الشريف عن الله رب العالمين، على هذا مضت سنة الله في البيئة العربية بعد بعثة محمد ﷺ وكان أهم شيء يشغل به العرب المسلمون في عهد النبوة الكتاب الوحي الذي ينتزل على رسول الله ﷺ بين الحين والحين، وكان العرب المسلمون أكثر ما يشغلهم هو حفظ هذا الكتاب، كتابته وتدوينه، فهمه، ثم العمل به.

لم يكن هناك إذًا في عهد الرسول ﷺ فلسفة ولا تفلسف، كان هنالك الوحي، وهل كان يُعقل أن يكون الوحي نازلًا من السماء صباحًا مساءً، ثم يدير الناس ظهورهم لهذا الوحي المعصوم، ويشغلون بفلسفة ضالة باطلة تقوم على إفرازات العقل الموهومة؟ طبعي أنه لم يكن في عهد النبي ﷺ فلسفة ولا تفلسف، بل كان الوحي الإلهي المعصوم، وقد كفى ذلك الوحي الناس مئونة الخبط الأعشى، والضرب في بيداء الجهالة، والسعي بحثًا عن الحقائق في ظلام الجهل والقصور. على ذلك مضى عهد رسول الله ﷺ لا يشيع فيه إلا وحيُّ الله ﷻ وهدىُّ رسوله ﷺ.

ثم جاء من بعده عهد الخلفاء الراشدين { وكان نور النبوة ما يزال يملأ جنبات ذلك العهد. في هذا العهد الراشد قصر أصحاب رسول الله ﷺ فكرهم وبحثهم

## نقد الفلسفة الغربية

على الكتاب والسنة ، وما كان من اجتهاد في إطارهما ، وكان اشتغالهم بالكتاب والسنة بعيداً عن المتشابه ، وبعيداً عن التأويل ، ما كانوا يسمحون بالاشتغال بالمتشابه وما كانوا يسمحون بالاشتغال بالتأويل ، أو البحث فيما غمض معناه من الكتاب والسنة .

وفي هذا الإطار نذكر حادثتين كمثال على ما كان عليه عهد الخلفاء الراشدين :

**الأول :** سيدنا عمر بن الخطاب ، الخليفة الثاني ، جيء إليه برجل سرق ، فقال له عمر : " ما الذي دفعك إلى ما فعلت؟ " قال : يا أمير المؤمنين ، قدر الله عليّ . الرجل يحتج على معصيته بالقدر ، وعمر هو عمر ، لا يسمح باللجاج والجدل ، فيما ثبت من أمور الدين ، أو في قاعدة عقديّة صحيحة ، ولذلك أخذ هذا السارق ، فقطعه - يعني : قطع يده - حد السرقة ، ثم جلده ثلاثين جلدة ، غضب أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا لعمر : " يا أمير المؤمنين ، زدّت في حد الله إنّما الحد القطع فقط ، فقال عمر < : ما زدت ! القطع للسرقة ، والجلد لافترائه على الله ﷻ ."

هذا حادث يوضح أن أصحاب رسول الله ﷺ في الخلافة الراشدة ما كانوا يسمحون لا بالكلام في التشابهات ، ولا فيما غمض معناه ، ولا يسمحون بالتأويل .

**الثاني :** سيدنا أبو بكر < سأله سائل : ما معنى الأبّ في قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَفَكَهَنَهُ وَأَبَا ۝٣١ ﴾ [عبس : ٣١] وكان أبو بكر لا يعرف معنى هذه اللفظة ، فقال : " أي سماء تظلني ، وأي أرض تقلني ، إذا أنا قلتُ في كتاب الله برأيي ؟ ! " .

هذا ما أردنا توضيحه عن الفلسفة المنتسبة إلى الإسلام ، فأنا أردت أن نخرج قليلاً ؛ لكي نشبع هذا الموضوع - ولو بإيجاز - ينبغي أن ندرس شيئاً عن الفلسفة والعرب ، وموقف العرب والمسلمين من هذه الفلسفة .

## المسلمون والفلسفة

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : العوامل التي مهدت لنشأة الفلسفة في البيئة الإسلامية ٥٣
- العنصر الثاني : موقف الإسلام من الفلسفات التي جاء بها الفلاسفة الإسلاميون ٦٢



#### العوامل التي مهدت لنشأة الفلسفة في البيئة الإسلامية

إن الفلسفة عند العرب والمسلمين دراستها والبحث حولها أمر غير متروك، ولعلكم تذكرون أننا وصفنا هذا الأمر بالحلقة الساقطة أو الحلقة المهملة أو الحلقة المفقودة، ورأينا أنه من الإنصاف أولاً ثم من حسن التنسيق في الدراسة ثانياً، ثم من تكامل المعرفة بالفلسفة ثالثاً؛ رأينا من أجل ذلك كله أن نتكلم عن الفلسفة لدى العرب. ندرس والموضوع الثاني المسلمون والفلسفة

مما ينبغي التنبيه إليه أن الثقافة الإسلامية بهذا العنوان أو بهذه التسمية لا تقتصر على ما نقره نحن المسلمين ونعترف به إسلامياً، بل تشمل أيضاً الثقافة المنتسبة إلى الإسلام، أي: التي تُطرح وتعرض، بل وتزاوَل على أنها مسلمة، بينما الإسلام منها بريء - كما سنرى ذلك بحول الله تعالى عند كلامنا عن الفلسفة المنتسبة.

أشرنا فيما سبق إلى أن العرب لم يكن لديهم قبل الإسلام فكر فلسفي ولا تفلسف ولا فلسفة، وذكرنا أن من بين الأسباب في ذلك أن العرب كانوا في جملتهم أميين لا يقرءون ولا يكتبون، وأن عقولهم أيضاً كانت أسيرة أنماط معينة من العادات والتقاليد والأعراف، وأنهم - إضافةً إلى ذلك - كانوا يعيشون حياةً ملؤها القلق والاضطراب وانعدام الشعور بالأمان والاستقرار، وقد كانت هذه العوامل هي العقبة التي عوّقت الفكر العربي عن الانطلاق في الرحاب الفسيحة للفكر المجرد، والتحليق في آفاق التفكير الفلسفي الواسعة، التي تنتهي غالباً إلى ما يناقض الإسلام وينقضه - كما سنرى بحوله تعالى.

ولقد جاء الإسلام ففضى على كل هذه العوامل التي أعاقَت انطلاقة الفكر لدى العرب، بل إن الإسلام أمدَّ العرب بما جعلهم رواداً في شتى أنواع المعارف

والعلوم، ما كان منها نظرياً وما كان منها تطبيقياً، حتى كان المسلمون - بشهادة الغربيين أنفسهم - هم أساتذة العالم الغربي في شتى أنواع العلوم والمعارف، وتحديدًا في الطبِّ والرياضيات والهندسة والفلك، وغيرها من العلوم على اختلافها.

ولقد ذكرنا أن أخطر المعوقات التي حجبت الفكر العربي عن التحليق في أجواء الفكر الفلسفي وأعاقته عن التأليف والتدوين والكتابة والتسجيل، إنما كانت هي الأمية - الجهل بالقراءة والكتابة؛ لذلك ولأن الأمية والجهل بالقراءة والكتابة هي أم الأمية الثقافية، فلقد نهج لها الإسلام نهجًا خاصًا، ووضع لها الحلول الناجعة، كما وزع هذه الحلول ونوعها.

فكان من حلول الإسلام لهذه المشكلة أمور كثيرة؛ أهمها ما يلي:

**أولاً:** حاول الإسلام منذ البدايات الأولى لنزول الوحي الشريف القضاء على الأمية، وذلك بدفع المسلمين إلى تعلم القراءة والكتابة، وبالتالي غرسَ فيهم ملكة التدوين واستثارتها فيهم، وكان ﷺ يشني على القارئ الكاتبين، وقد استجاب كثيرون ممن لديهم إمكانية الاستجابة لتعلم القراءة والكتابة في أنفسهم أولاً، ثم في أولادهم ثانيًا.

وقد بُعثَ رسول الله ﷺ ولم يكن في قريش جميعها من يعرف القراءة والكتابة سوى سبعة عشرة رجلًا كما يذكر البلاذري في كتابه (فتوح البلدان) لكن لم يمضِ طويل وقت من بداية البعثة النبوية الشريفة حتى انقلب هذا الوضع تمامًا، فتضاعف ذلك العدد - من القارئ الكاتبين - مراتٍ بتوجيه الإسلام وجهود رسول الله ﷺ واستجابة المسلمين.



**ثانياً:** كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بالنهار وبالليل ، وفي أوقات شتى ، ورسول الله ﷺ لم يكن قارئاً ولا كاتباً ، ولقد قال له ربه ﷻ في هذا: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَسْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطَلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وقد رغب رسول الله ﷺ في كتابة الوحي الذي ينزل عليه ، ومن ثم كان يبحث عن من يكتب له الوحي ممن لديهم القدرة على الكتابة ، لذا فقد اجتهد كثير من الصحابة في تعليم أنفسهم القراءة والكتابة ، وإذا لم يستطيعوا تحقيق ذلك في أنفسهم اجتهدوا أن يحققوه في أولادهم ، لذلك نشطت حركة التعليم قراءة وكتابة ، وصار لها رواج ملموس .

**ثالثاً:** جعل رسول الله ﷺ فداءً الذين يقرءون ويكتبون من أسرى بدر أن يعلم كل منهم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، وكانت هذه صفقة رابحة لهؤلاء الأسرى الذين رأوا المبالغ المالية الكبيرة التي فرضها رسول الله ﷺ والمسلمون ؛ فداءً لكل أسير ، فكان هؤلاء يجتهدون في تعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة .

**رابعاً:** كانت رغبة المسلمين وحرصهم على تعلم كتاب ربهم والتفقه في دينهم ، كان ذلك يدفع الكثيرين منهم إلى تعلم القراءة والكتابة .

**خامساً:** كان رسول الله ﷺ فوق ذلك كله يحس أصحابه على تعلم لغات الأقوام والأمم التي يتعاملون معها ؛ لِمَا في ذلك من النفع للمسلمين ، والأمان من كيد الأعداء وشروورهم . وقد ورد في البخاري عن زيد بن ثابت < قال : ((أُتِي بِي إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مَقْدَمَةَ الْمَدِينَةِ فَقِيلَ لَهُ : هَذَا مِنْ بَنِي النَّجَارِ ، وَقَدْ قَرَأَ سَبْعَ عَشْرَةَ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنِ ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ فَأَعْجَبَهُ ذَلِكَ ، فَقَالَ ﷺ : تَعَلَّمَ كِتَابَ يَهُودٍ فَإِنِّي مَا آمَنَهُمْ عَلَى كِتَابِي ، قَالَ زَيْدٌ : فَفَعَلْتُ ، فَمَا مَضَى لِي نِصْفَ شَهْرٍ حَتَّى حَذَقْتَهُ ، فَكُنْتُ أَكْتُبُ لَهُ إِلَيْهِمْ ، وَإِذَا كَتَبُوا إِلَيْهِ قَرَأْتُ لَهُ)).

**سادساً:** هذا إلى أن الذين دخلوا إلى الإسلام من غير العرب، اجتهدوا في تعلم العربية قراءةً وكتابةً؛ ليتفقهوا في الدين الذي اعتنقوه جديداً، ولكي يستطيعوا قراءة القرآن رغبةً وحباً في دين الله الإسلام وفي كتابه القرآن.

هذا فيما يتصل بالمعوق الخطير أمام الثقافة العربية الإسلامية لجمهرة العرب المسلمين في ذلك الوقت.

من جانب آخر نجد الإسلام قد انتصر في جبهة أخرى خطيرة في حربه ضد الجهل والعصبية التي كانت تعطل ملكات الفهم والفقهاء والثقافة لدى العرب، فقد قضى الإسلام على التقليد الأعمى لدى العرب، قضى الإسلام على قاعدة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣] وذلك حين دَعَا المسلمين إلى إعمال عقولهم، وإطلاقها من آثار التقليد الأعمى، بل إن الإسلام قد فرضَ على المسلمين أن يُعْمَلُوا عقولهم فيما ينزل عليهم من القرآن المجيد، وألا يقبلوا عليه بلا فهم ولا تدبر. قال تعالى مبيناً بعض آيات وصفات علامات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِرُوا بِهَا لَمْ يَجْرُوا عَلَيْهَا ضَمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

وقد ورد في الصحيح أنه عندما نزلت الآيتان الكريمتان من قول الله ﷻ في أواخر سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [١١٠] الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١١١] آل عمران: ١٩١ قال رسول الله ﷺ حينما نزلت هاتان الآيتان: ((ويل لمن لآكها بين لحييه ولم يتفكر فيها)) واللحيان: هما فكا الفم، أي: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها.

فأضحى التفكير في آيات الله القرآنية فرضاً لازماً، وأصبح بالتالي ترك التفكير في آيات القرآن الكريم كبيرةً من الكبائر عند من يعرف الكبيرة: بأنها ما توعد الله عليه بالنار.

ومن أظهر الدلائل على تقدير الإسلام للعقل، وحثه على العمل، وإبعاده عن التقليد، أن الإسلام استفز عقول الناس بالبحث عن الأدلة والبراهين على ما يتعاطونه أحياناً أو تركاً، قال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [النمل: ٦٤] وقال تعالى: ﴿أَتُنْفِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّن عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٤٤].

وهذا المنهج القرآني الذي دعا إلى النظر والتفكير والتدبر، وكلفت النظر إلى الكون المنشور، ووسع من آفاق العقل العربي بسرد قصص الماضين، وبيان ما فيها من عظات وعبر، وذكر العقائد والأديان الباطلة، ورداً على حجج أصحابها، كل ذلك استثار العقل العربي وأمدّه بما فجر فيه طاقاته التي كانت حديثة الجهل والتقليد.

لهذه العوامل التي ذكرنا جانباً منها ولم نأت على جميعها، أيقظ الإسلام العرب من ثبات الجهل والامية والتقليد الأعمى، وحفز فيهم الفكر واستثار العقل، وحثهم على النظر، وفرض على المسلمين التدبر والتفكير، حتى انقلب المسلمون عرب وغير عرب أساتذة العالم في جميع فروع العلم الديني والديني معاً، وفتحوا مغاليق العلوم النظرية والتطبيقية.

ثم جاء في نهاية المطاف عندهم ما يختص بموضوع دراستنا -نعني: الفلسفة والتفلسف- فنشأ لدى المسلمين الفكر الفلسفي، ثم اشتغلوا بالفلسفة.

ولقد مهد لنشأة التفلسف والفلسفة في البيئة الإسلامية - إضافةً إلى العوامل التي ذكرناها - عوامل أخرى كثيرة؛ أهمها:

### أولاً: تأثير الإسلام في معتنقيه من العرب وغيرهم:

حيث أطلق الإسلام للعقل الحرية المسئولة، ودفع الناس إلى العناية بالقراءة والكتابة والتدوين والتسجيل، وحرر العقل من أوهام التقليد، وأشاع في المجتمع روح التعاون والتألف، مما كان له الأثر الكبير في انطلاقة المسلمين إلى ميادين العلوم ومجالات المعارف والابتكارات، ثم إلى التفكير الفلسفي والتفلسف.

### ثانياً: الفتوحات الإسلامية:

فتح الله على المسلمين بفضلله ومنه بلاد الفرس وبلاد الروم، وقد اختلطوا عن طريق هذه الفتوحات بثقافات هؤلاء الأعاجم الذين دخلوا في دين الله أفواجاً، وتفقهوا في دين الله، ثم أثروا بالكثير من ثقافتهم النتاج العربي، ولقد ورث العرب والمسلمون من البلاد المفتوحة الكثير من مراكز الفلسفة والتفلسف.

وأهم هذه المراكز التي ورثها المسلمون من البلاد المفتوحة حين فتحوها:

**أولاً:** مدرسة "جنديسابور": وكان مركزها مدينة "خوزستان" وقد أسسها سابور الأول وإليه تنسب، وكان سابور الأول قد اتخذها مقراً لأسرى الروم، ولذلك صارت مدرسة للفلسفة اليونانية والهندية والفارسية غيرها.

**ثانياً:** مدرسة "حوران": وحوران مدينة في الجزيرة شمال العراق، وهي مدينة قد عاصرت اليونان والرومان والنصرانية والإسلام، وقد كانت منبعاً هاماً من منابع الفلسفة اليونانية في العهد الإسلامي.

**ثالثاً** - وأخيراً- : مدرسة "الإسكندرية" : وقد كانت الإسكندرية وقت ذاك عاصمة الثقافة في مصر ، قد تأسس بها مذهب من أهم المذاهب الفلسفية على مدى عصور الفلسفة - أقصد مذهب الأفلاطونية الحديثة الذي أسسه أفلوطين ، الذي عاش بين ٢٠٥ و ٢٦٩ ميلادية - وعندما دخلت النصرانية مصر اتصل علماء النصرانية بمدرسة الإسكندرية ، وتعمقوا في الفلسفة ، وكان النصرانيون يكونون فرقاً كثيرةً مختلفةً كالنساطرة واليعاقبة ، فاشتغل كل فريق بالفلسفة الأفلاطونية ؛ هدفاً إلى أن يستغلها في تأييد مذهبه.

**ثالثاً** : من العوامل التي ساعدت على نشأت الفكر الفلسفي ، ثم التفلسف في البيئة الإسلامية - : هم المتكلمون :

وقد بدأ المتكلمون يبحثون في قضايا دينية عقديّة خالصة ، وكان بحثهم فيها في حد ذاته انحرافاً في جملته عن الحق ، وعن دين الله الصحيح ، وكان إرهاباً بما سيأتي بعده من انحراف علم الكلام بانحراف علمائه الذين ستركون الاعتماد على الكلمة المعصومة في الوحيين الشريفين - أعني : الكتاب والسنة - ثم يجعلون اعتمادهم في الاستدلال على قضايا العقيدة. وأعجب يجعلون اعتمادهم في الاستدلال على قضايا العقيدة على الفلسفة الدخيلة علينا من اليونان وهي فلسفة وثنية ، ثم على ما يتصل بتلك الفلسفة من المنطق الأرسطي حتى آل الأمر بأن تحول بعض المتكلمين إلى فلاسفة خُلص ، وذلك مثل أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي ، رأس الفلاسفة وأولهم ، الذي كان متكلماً على مذهب الاعتزال ، ثم قرأ ما تُرجم عن الفلسفة اليونانية ، فأل أمره إلى أن صار أول فيلسوف من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام.

على أن من حق الكندي علينا أن نقرر أنه دخل إلى الفلسفة مسلماً، وانتهى - فيما نحسب والله أعلم - مسلماً، على خلاف الفارابي وابن سينا وأمثالهما الذين فسقوا عن الملة الإسلامية جملةً وتفصيلاً حتى قبل أن يدخلوا إلى الفلسفة ويشغلوا بها، حيث كان الفارابي من شيعة الإسماعيلية الباطنية، أعداء الإسلام والمسلمين، ثم اعتنق الفلسفة، واشتغل بها، فأحدث من العقائد الفاسدة ما زاده كفرةً على كفره، ثم جاء من بعده ابن سينا الذي كان من المؤسسين لحركة إخوان الصفا، تلك الحركة التي خلطت بين الفلسفة الوثنية والعقائد المجوسية، وشيء من عقائد الإسلام، وجعلت كل ذلك ديناً باطنياً سرّياً لأتباعها.

والتكلمون عملوا على إنشاء الفلسفة في البيئة الإسلامية، حتى ولو تخفوا وراء وصف المتكلمين، إلا أنهم تناولوا بالبحث أدق المشكلات الفلسفية، وذلك كمشكلة الوجود والعدم، والأحوال، والذات، والجوهر، والعرب، والجزء الذي لا يتجزأ، والتولد، وغير ذلك. ثم بحثوا في المسئولية الفردية، وما يتصل بها من أفعال العباد، وما نشأ عن ذلك من فرق القدرية والجبرية إلى غير ذلك من قضايا أثارها علماء الكلام، بينما هي قضايا فلسفية وليست كلامية، وذلك تحديداً أدى إلى تداخل علم الكلام والفلسفة من حيث الموضوعات المثارة في كل منهما، حيث اختلطت البحوث الكلامية بالبحوث الفلسفية، حتى أضحى عسيراً أن تفرّق بين ما هو كلام وما هو فلسفة في كثير من القضايا.

#### رابعاً: الترجمة:

من العوامل التي ساعدت على إنشاء الفكر الفلسفي، ثم التفلسف ثم الفلسفة في البيئة الإسلامية الترجمة، فالترجمة تعتبر العامل الأهم والمباشر في نشأة الفلسفة والتفلسف في البيئة الإسلامية، ويُراد بالترجمة هنا ترجمة الفلسفة

اليونانية إلى اللغة العربية، وكما ذكرنا فإن الترجمة كانت هي العامل المباشر والمؤثر الحاسم في ظهور التفلسف، ثم الفلسفة في أنحاء الدولة الإسلامية. وذلك واضح من خلال تتبع الخطوات الأولى للتفلسف أو لظهور الفكر الفلسفي في البيئة الإسلامية.

وكيف نتبع خطوات الفلسفة في البيئة الإسلامية؟:

أفضل طريق - فيما أرى - أن ننظر فيمن نسميهم "الفلاسفة الإسلاميين" من خلال الفلاسفة المشتهرين، نجد ما يأتي:

### أولاً: الكندي:

كان غارقاً في علم الكلام على مذهب الاعتزال، وكان يشتغل بذلك العلم دراسةً وتديراً، حتى اصطدم بالفلسفة اليونانية مترجماً إلى العربية، فاشتغل بها دراسةً ومبحثاً، ثم ترك كل شيء عن علم الكلام، وعاش لهذه الفلسفة بقية حياته، وإن كان قد اتخذ منها موقف الرفض لها، الناقد لقضاياها، وبذل الجهد المضني في إقامة الأدلة على بطلان فلسفة أرسطو في أهم القضايا التي أثارها هذه الفلسفة، وتحديداً في قول أرسطو بقدوم العالم، وقول الفلاسفة الذين اتبعوه وتأثروا به بنظرية صدور العالم عن الله ﷻ صدوراً المعلول عن علته - تعالى الله عما يقولون الكافرون - كما أبطل الكندي نظريتهم في أبدية العالم وديمومته.

### ثانياً: الفارابي:

كان قاضياً يعمل بالشريعة الإسلامية على عقيدة الإسماعيلية الباطنية، ثم وقعت في يده كتب الفلسفة اليونانية مترجمةً، وبمجرد أن اطلع عليها، نبذ الكتب الشرعية، والتزم الفلسفة اليونانية حتى ما عاد ينظر في غيرها.

وقول أحد تلامذته: نبذ الكتب الشرعية أي: كأنه ألقى بها بعيداً، وهذا يدل على أن الرجل لم يكن للإسلام في قلبه تقديس ولا حُب ولا رغبة، ولكنه كان مسلماً بمقتضى الميلاد ليس أكثر، فلما وافته الفرصة كي يختار ويحقق ما يرغبه اختار الفلسفة ونبذ الإسلام.

### موقف الإسلام من الفلسفات التي جاء بها الفلاسفة الإسلاميون

بيان موقف الإسلام من هذه الفلسفات التي جاء بها الفارابي وابن سينا، ثم من صار على خطاهم، أو وقف معهم في جانبهم - جانب التفلسف والفلسفة - في مواجهة دين الله ﷻ وموقف هؤلاء جميعاً بما فيهم الكندي: وموقف الإسلام نبيه - بحوله تعالى - من هؤلاء الفلاسفة وفلسفاتهم هو الثمرة والفائدة التي نفيدها من تلك الدراسة.

فهما إذاً أمران:

١. موقفنا من الفلاسفة.

٢. ثم موقفنا من فلسفاتهم.

وأحب أن أنوه هنا بأمر غاية في الأهمية، وأحب أيضاً أن ألفت النظر إلى أنه ليس خاصاً بهذه المادة، بل ينبغي أن تتخذوه جميعاً قاعدةً وديناً تتبعونه وتلتزمونه. نحن في دراستنا - وبخاصة في هذه الفلسفة - لا نحاكم أفراداً ولا أشخاصاً؛ لأن ابن سينا جاء بفلسفة، والفارابي جاء بفلسفة، وفلسفاتهم التي أتوا بها فلسفة كافرة حتى النخاع، لكن نحن نحاكم هذا الفكر ولا نحاكم أشخاصه أو أصحابه الذين جاءوا به. فلعل الله ﷻ يكون قد منّ على أحد منهم أو عليهم جميعاً



بالتوبة إلى الله قبل أن يلقوه، وبالتبرؤ من هذا الإنتاج الذي يعارض دين الله ويناقضه، بل ينقضه.

فنحن إذًا ليس من سلطتنا أن نتكلم في ختام الله في أفراد أو أشخاص، ولا أن نحاكم أفرادًا ولا أشخاصًا، وإنما نحاكم فكر هؤلاء، فإن كانوا قد تابوا إلى الله منهم وهذا ما نحب ونتمنى، فقد تاب الله عليهم، وإن كانوا قد لقوا الله على ما هم عليه على هذا الفكر، فحكمنا على هذا الفكر حكم عليهم.

موقفنا إذًا هنا أن نناقش فكر هؤلاء الفلاسفة، ونحكم على هذا الفكر لا على أشخاصهم، فأشخاصهم أفضوا إلى ما قدموا وهم في رحاب الله.

الموقف الأول: موقفنا من الفلاسفة:

إنهم ولدوا مسلمين على العقائد التي كانوا عليها إسماعيلية باطنية أو غير ذلك، فهم لم يكونوا مسلمين باختيارهم وإنما كانوا مسلمين بمقتضى ميلادهم، ثم إن إسلامهم الذي ولدوا عليه كان إسلامًا مدخولًا غير صحيح، بل كان إسلامًا فاسدًا بعيدًا عن دين الله الحق، فالفارابي كان على دين الإسماعيلية المجوس، وابن سينا كان على دين إخوان الصفا الفلاسفة الأفاقين الباطنية الفاسقين، لذلك عندما أتحت الفرصة للفيلسوفين الفارابي وابن سينا للاختيار اختاروا الفلسفة دينًا، استبدلوها بالإسلام، ذلك الدين الذي كانوا عليه، ثم اختاروا الفلسفة دينًا، والفلسفة هي اختيارهم الصحيح وليس الإسلام، رغم أن إسلامهم كان فاسدًا، فهم إذا لم يكونوا مسلمين لا قبل التفلسف ولا بعد التفلسف.

هذا عن الفيلسوفين الفارابي وابن سينا، وقد قلنا: إنهم أفضوا إلى ما قدموا فهم في رحاب الله يفعل الله بهم ما يشاء وَجَلَّ جَلَالُهُ.

الأمر الثاني : عن فلسفاتهم :

وهي باتفاق المسلمين فلسفة باطلة ضالة فاسدة ، وسنشير هنا إلى شيء من فسادها :

أولاً : من المتفق عليه عند الفارابي وابن سينا أن الله ﷻ لم يخلق العالم ، وإنما صدر عنه العالم صدور المعلول عن علته ، وهم يصورون هذا بمثلهم الذي يذكرونه ، فيقولون : صدر العالم عن الله ﷻ كما تصدر الحرارة عن النار ، وكما يصدر الضوء عن الشمس ، فلا علم ولا إرادة ولا قدرة ولا اختيار لله ﷻ في وجود هذا العالم ؛ لأنه إذا كان قد صدر العالم عن الله كما تصدر الحرارة عن النار ، فهل للنار إرادة في صدور الحرارة عنها أو علم أو قدرة أو إرادة؟! لا شيء من ذلك كله ، هم يجعلون الله ﷻ مجرد علة يصدر عنها العالم هكذا بلا علم منه ولا إرادة ولا قدرة ولا اختيار -تعالى الله عما يقول الظالمون.

الأمر الثاني : أن المتصرف في الوجود عند هؤلاء الفلاسفة ليس هو الله ﷻ ولكنه العقل العاشر الذي يسمونه العقل الفعال ! فهذا العقل عند الفلاسفة فارابي وابن سينا ومن شايعهم هو الخالق الرازق المحيي المميت ، والله ﷻ لا شأن له بشيء من ذلك كله -تعالى الله عن ما يزعم هؤلاء.

ثالثاً : أن هذا العالم بسمائه وأرضه أزلي ، فلا بداية له ، وهو أيضاً أبدي لا نهاية له ، ولا يوجد ما يسمى باليوم الآخر ، ولا بالجنة ولا بالنار ، ولا بعث ولا نشر ولا حشر ولا حساب ، ولا شيء من ذلك كله ، وما ورد عن ذلك كله في القرآن والسنة ، إنما هو تخيل وإيهام أريد به إصلاح حال العوام الذين لهم من القرآن ظاهره ، أما باطنه فلا يفهمه إلا الفلاسفة وهو يعني شيئاً آخرًا!

## مواطن التفلسف في البيئة الإسلامية

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : المواطنُ الأول للفكر الفلسفي، وأشهر فلاسفة المسلمين ٦٧
- العنصر الثاني : المواطن الثاني للفكر الفلسفي: التصوف ٧٢
- العنصر الثالث : المواطن الثالث للفكر الفلسفي: علم الكلام ٧٤



### الموطن الأول للفكر الفلسفي، وأشهر فلاسفة المسلمين

**الموطن الأول** للفلسفة في البيئة الإسلامية أيام ما نشأت الفلسفة: كان هو موطن المتفلسفة أو الفلاسفة أو الفلسفة نفسها عند الفلاسفة، الذين يعملون بالفلسفة، وهذا طبعي وبدهي، فمن الطبعي البدهي أن يكون موطن الاشتغال بالتفلسف والفلسفة، هو عند الفلاسفة أنفسهم، والمدارس التي أنشئوها ليتدارسوا فيها قضايا الفلسفة، ثم يدرسوها لتلامذتهم.

ولقد كان هناك في هذا الموطن فلاسفة لهم مكانتهم في الفلسفة والتفلسف، وما تزال حتى اليوم، قد أنشئوا فلسفة تحدث عنها التاريخ الفلسفي، وشغلت كثيرين من المؤرخين للفلسفة، وحلّفوا فلسفة هي عند الفلاسفة شيء عظيم لكنها عندنا وبميزان الدين الحق ميزان الإسلام ضلال عظيم.

وقد بينا أن لدينا من هؤلاء الفلاسفة، واسمحوالي أن أقف عند كل منهم؛ لحظات معدودات كي نعرف به وبفلسفته، ثم نبني على ذلك حكماً كمؤمنين مسلمين على هذا النتاج الذي جاء به كل واحد منهم.

هؤلاء الفلاسفة أشهرهم ثلاثة:

### الأول: الكندي:

واسمه أبو يوسف يعقوب الكندي وهو عربي من قبيلة كندة، ولد سنة خمس وثمانين ومائة للهجرة، توافق سنة إحدى وثمانمائة للميلاد، وتوفي سنة اثنتين وخمسين ومائتين للهجرة، أي: في منتصف القرن الثالث الهجري تقريباً، وهو أول الفلاسفة الذين انتسبوا إلى الإسلام. وله ألقاب اختص بها واشتهر بها لا

## نقد الفلسفة الغربية

تطلق على غيره، وإذا أطلق لقب منها انصرف إليه مباشرة لا يشركه فيه غيره، من هذه الألقاب التي تطلق على الكندي "فيلسوف العرب"؛ لأنه لا يوجد فيلسوف من بين العرب أجمعين إلا هذا الرجل، وكل الفلاسفة عداه هم من الأعاجم، ومن ألقابه كذلك "رأس الفلاسفة" و"أول الفلاسفة" وهذا لأنه لم يكن قبله فيلسوف لا من العرب ولا من العجم، فهو الفيلسوف الوحيد بين الفلاسفة على الإطلاق الذي بدأت به الفلسفة، وهو العربي الوحيد بينهم.

والكندي هو الفيلسوف الوحيد أيضاً الذي قرأ فلسفة أرسطو، وفلسفة أفلاطون، وبصورة عامة قرأ النتاج الفلسفي اليوناني الذي تُرجم في زمانه بعد أن قرأ فلسفة يونان، وأرسطو وأفلاطون تحديداً رفضها كلها، ليس هذا بل وأقام الأدلة دليلاً بعد دليل بعد دليل على بطلان الفلسفة اليونانية، وعلى فساد آراء أرسطو وأفلاطون، وعلى فسوقهم، ليس عن الدين الحق بل حتى عن التفكير العقلي السليم.

وقد ظل الكندي ملتزماً عقيدة الإسلام ولم تضله فلسفة يونان، ولا أفكارهم، ولعل السبب في ذلك أنه كان قبل أن يشتغل بالفلسفة كان متكلماً على مذهب الاعتزال، ومن ثم ظل - حتى وهو فيلسوف - على عقائد الاعتزال التي مهما وصل ضلالها فهي خير ألف مرة من ضلال الفلسفة والمتفلسفين.

## الثاني: الفارابي:

واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، واشتهر بأبي نصر الفارابي، وواضح من اسمه أنه أعجمي فارسي، ولد بمقاطعة "فاراب" من أعمال فارس، اشتغل قاضياً على عقيدة الإسماعيلية الباطنية، أعداء الإسلام والمسلمين، وظل قاضياً يشتغل بأحكام الشرع على عقيدة الإسماعيلية، وشرع الإسماعيلية شرع

فاسد، لكنه كان يشتغل به، حتى حدثت له حادثة كان له جار يشتغل بنسخ الكتب المترجمة، وكان لدى الجار عدد من كتب الفلسفة اليونانية مترجمة إلى العربية، وأراد هذا الجار أن يسافر لأداء العمرة، فأودع كتبه اليونانية هذه أمانة عند الفارابي حتى يعود من سفره، لكن الفارابي أمسك بهذه الكتب واطلع عليها كتاباً بعد كتاب بعد كتاب، فقرأ فيها فلسفة اليونان ممثلة في آراء أرسطو وأفلاطون.

ويقول المؤرخون لحياة الفارابي: "إنه ما كاد يطلع على كتب الفلسفة اليونانية حتى نبذ الكتب الشرعية وألقاها بعيداً، كلمة نبذ هي لفظة لا تليق بكتاب شرعي؛ لأن نبذ: ألقى بغير اهتمام، أو ألقى باحتقار، لكن هكذا يقول المؤرخون لحياته: ما كاد يطلع على كتب الفلسفة اليونانية حتى نبذ الكتب الشرعية وألقاها بعيداً، ثم ابتداءً يعكف على كتب الفلسفة اليونانية، وكان ذلك آخر عهده بالكتب الشرعية التي لم يعد إليها على الإطلاق، ولم يفكر في مزاولتها، أو العودة إليها، أو النظر فيها بإطلاق، أغنته كتب يونان عن كتب الله كتب الشرع الشريف بما فيها كتاب الله وسنة رسوله ﷺ رغم أن الكتب الشرعية في وقته وعنده هو، كانت هي الكتب على عقيدة الإسماعيلية، كتب باطنية، رغم أنها شر وضلال، لكن بعض الشر أقبح من بعض.

والفارابي الذي كان ضالاً إسماعيلياً اعتنق أفكار أرسطو الوثنية حتى أضحى لقبه الذي اشتهر به بين الفلاسفة وما يزال: "المعلم الثاني": إذا أطلق "المعلم الثاني" انصرف مباشرة أو عرف المشتغلون بالعلم أبو نصر الفارابي، وذلك نظراً إلى أن لقب أرسطو عند المتفلسفة هو المعلم الأول، ولما كان الفارابي يمشي على قدم أرسطو حذو القذة بالقذة سمي كذلك المعلم الثاني؛ وذلك لأنه - أعني: الفارابي - صار نسخة من أرسطو فكراً وتفلسفاً وسلوكاً.

فإذا ما عرفنا أن أرسطو كان وثنيًا كافرًا عرفنا أيضًا ذلك الذي يتشبه به ويتمسح فيه ويتمسك بأذياله.

### من عقائد الفارابي الكافرة:

وقد بينا قبل ذلك أنه خرج من الإسلام حين اعتنق عقائد الإسماعيلية، فهو إذاً قد خرج من الإسلام خروجًا بعد خروج.

**أولاً:** اعتقاده بأن الله ﷻ علة صدر عنه العالم، أي: صدر العالم عن الله صدوراً المعلول عن علته، ثم يمثل الفارابي فيقول: كما تصدر الحرارة عن النار، وكما يصدر الضوء عن الشمس، أي: صدر العالم عن الله دون علم ولا إرادة ولا قدرة ولا اختيار - تعالى الله عما يقول الظالمون.

**ثانياً:** من عقائد الفارابي الكافرة: قوله: بأن الله ﷻ صدر عنه عشرة عقول مجردة، كل عقل من هذه العقول العشرة يدبر ويصرف فلماً من الأفلاك، فالمرخ له عقل يدبره، والشمس لها عقل يدبرها، وعقل ثالث يدبر فلك القمر. وهكذا. وعالم الأرض له عقل يدبره أيضاً يسميه الفارابي وابن سينا وهؤلاء المتفلسفة الذين جاءوا بعد الفارابي وهو أستاذهم، يسمون العقل الذي يدبر العالم الأرضي "العقل الفعال" أو "العقل العاشر" وهذا العقل الفعال هو عاشر العقول، وهو الخالق وهو الرازق، وهو المحيي وهو المميت، وهو المدبر لكل شيء في هذا الوجود، وإذا قال رسولنا ﷺ: "إن الله يبعث الملك بعد أربعة أشهر من حمل الجنين فينفخ فيه الروح"؛ فعند هؤلاء الذي يبعث الملك هو العقل العاشر، وهو أيضاً مرسل الرسل، ومنزل الكتب - تعالى الله عما يقول الكافرون.

**ثالثاً:** ومن عقيدته في النبوة: أن النبوة اكتساب وليست اصطفاً، وأن الفيلسوف عنده أفضل من النبي... إلى آخر هذه الكفريات.



ثالثاً: ابن سينا:

ثالث الفلاسفة المشهورين في المشرق العربي، هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، وهو فارسي، وقد قلنا قبلاً: إن ابن سينا كان من طائفة إخوان الصفا، وهي طائفة فارسية مجوسية باطنية، خلطت الفلسفة اليونانية الوثنية بالفلسفة المجوسية بشيء من تعاليم الإسلام الباطنية، ثم جعلت من كل ذلك عقيدة باطنية سرية اتخذتها ديناً تدين به هي ومن تابعها. لذلك كان ابن سينا أكثر بعداً عن الإسلام من الفارابي، وكان لا يستحي أن يصرح: بأنه يقضي الليل بين الطاس والكاس والراقصات، وهو يحكي قصة حياته.

يقول ابن سينا في سيرته: وأشتغل بالقراءة والكتابة - هذا كلامه عن نفسه - فمهما غلبني النوم أو شعرت بضعف، عدلت إلى شرب قدح من الشراب؛ ريثما تعود إلي قوتي، فأعود إلى القراءة والكتابة، فإذا فرغنا من القراءة والدرس حضر المغنون على اختلاف طبقاتهم وهيئ مجلس الشراب بالآلاته، وبظل الأمر كذلك حتى الصباح.

هذا هو ابن سينا، وهكذا كان؛ لذا لا نرى عجباً إذا قلنا: إنه اعتقد عقائد أرسطو الوثنية، واعتقد عقائد شيخه الفارابي، بل زاد عليها، فأنكر أن الله عز وجل يعلم شيئاً عن هذا الوجود، ثم أنكر اليوم الآخر، واعتقد أن العالم أزلي أبدي لا يفنى أبداً... إلى آخر هذه العقائد التي دان بها الفلاسفة الفارابي وابن سينا وابن رشد في المغرب ومن شايعهم على تلك العقائد، وهذا كان فكرهم، وهذه كانت فلسفاتهم.

نحن لا نحاكم أشخاصاً ولا نحاكم أفراداً ولا أناساً؛ الأشخاص والأفراد والناس أفضوا إلى ما قدموا عند الله عز وجل وخاتمهم لا يعلمها إلا هو سبحانه، ورغم وجود هذه الأفكار والمذاهب والفلسفات الفاجرة الكافرة، إلا أننا نقول: ما

يدرنا أن واحداً من هؤلاء قد تاب إلى الله ﷻ من هذه الكفريات قبل أن يلقي ربه ولو بلحظات ، ونحن هنا نحكم عليه وقد تاب ، فهذا ما ينبغي أن يكون منا نحن ، ونحن هنا إنما نحاسب أفكاراً ، ونحاسب آراءً ، ونحاسب مذاهب معينة نعرفها ، قد خلفها هؤلاء الناس ، ونقول : إذا كان هؤلاء قد تابوا إلى الله من هذه الأفكار التي وضعوها ، وبثوها ، وآمنوا بها ، وخلّفوها لنا ، هي ليست لنا وإنما للمشتغلين بها ، إذا كانوا قد تابوا من هذه - ونرجو أن يكون ذلك ونتمناه - فقد تاب الله عليهم ، والله هو التواب الرحيم ، أما إذا كانوا قد لقوا الله على هذا الذي نقول ، فحكمنا على فلسفاتهم حكم عليهم ، وقضاؤنا في كلامهم قضاء عليهم .

ومما ينبغي أن نذكر به أو نذكره : أن المؤرخين للغارابي أبي نصر الذي ذكرنا بعض عقائده المكفرة يقولون : أنه في أخريات حياته قد كفر بهذه الفلسفة ، وقد ودّعها ، لا ندري كفر بها ، يعني : رجع عنها أو أنه ترك الاشتغال بها... قالوا : لقد كفر بهذا ، وصار يمشي عند مجتمع الماء ومجتمع الحضرة أو الأشجار ، ويتغذى على بعض الثمار المتروكة هناك ، وظل كذلك حتى مات في حدث مشهور .

### الموطن الثاني للفكر الفلسفي : التصوف

#### الموطن الثاني : التصوف

والتصوف أنواع ، وتنوعه حسب تنوع المتصوفة ومذاهبهم ، لكن الأشهر في أنواع التصوف نوعان :

**النوع الأول :** التصوف الذي لا يناقض دين الله سبحانه ، ولا ينقض شيئاً من شرع الله ، ولا يحدد معلوماً من الدين بالضرورة ، هذا التصوف قد يكون نوعاً

من الزهد، قد يكون شدة خوف من الله ﷻ قد يكون تزييداً في المراقبة والإغراق في العبادة، والتزام الأذكار الشرعية، وهذا النوع كتب فيه الإمام ابن تيمية - رحمه الله رحمة واسعة - كلاماً جيداً جداً، وبخاصة في (الفتاوى) الجزء التاسع والجزء الحادي عشر، وكتب فيه تلميذه ابن القيم كتابه (مدارج السالكين) وبث كثيراً من الكلام عنه في كتبه الأخرى.

**النوع الثاني:** هو التصوف الفلسفي الضال، الذي فسق أصحابه عن الملة جملةً وتفصيلاً، بل حاربوا بعقائدهم الفاسدة دين الله وناقضوه، بل نقضوه في أنفسهم وأتباعه.

ومن أضل هؤلاء المتصوف الفلاسفة القائلون بوحدة الشهود يزعمون - أخذهم الله - أنهم حين يريد الواحد منهم أن يشاهد ربه ينوي فإذا هو هناك، يجلس مع ربه ﷻ يشاهد ربه كما يشاهده ربه، ثم إذا شبع من مشاهدة ربه عاد إلى حيث كان!.

هل هذه عقيدة إسلامية، رسولنا ﷺ في حدث المعراج أنكر كثير من الصحابة - رضوان الله عليهم - أن محمداً رأى ربه، والسيدة عائشة > تقول: ((من زعم أن محمداً أن النبي رأى ربه في المعراج، فقد أعظم على الله الفرية)). محمد لا يرى ربه، ويختلف الناس، أصحابه، وهؤلاء يزعمون أن أي منهم يريد أن يشاهد ربه يذهب ويعود كلما شبع.

الشاهد هنا أن القائلين بوحدة الشهود يسقطون التكاليف الشرعية، ليس عليهم صلاة ولا صيام ولا شيء من ذلك كله - المسألة هنا مسألة منطقية - لأن الصلاة ما جعلت إلا لتقرب العبد من ربه، وهؤلاء ليسوا قرييين من الرب هم

يشاهدونه ، ولذلك هم يقولون : الصلاة بالنسبة إليهم هم مشغلة تشغلهم عن لقاء ربهم ، ولذلك هؤلاء يسقطون التكليف الشرعية .

أضل من هؤلاء في التصوف الفلسفي البدعي القائلون بوحدة الوجود -أخذهم الله- وهؤلاء يزعمون : أنه لا يوجد في الوجود كله إلا واحد هو الله ﷻ وهذا الواحد يظهر في الوجود كله بمظاهر مختلفة ، يظهر بشخص محمود ، يظهر بشخص موسى ، يظهر بشخص عيسى ، يظهر بشخص فرعون ، يظهر بشخص محمد ، يظهر بشخص أبي جهل أو أبي لهب ، ولذلك عند هؤلاء جميعاً لا فرق بين موسى وفرعون ، ولا فرق بين محمد وأبي لهب أو أبي جهل ، كلهم مظاهر لله ﷻ وليس هنالك أحد في الوجود إلا واحد هو الله ، ولذلك كان يقول أحدهم : سبحاني ، ما أعظم شاني ، يتكلم على أنه هو الله ، ولما سئل الحلاج : لماذا لا تصلي؟ قال : ولِمَن أصلي؟ وأنا المصلي والمصلى له والمعبد والمسجد والكنيسة -نستغفر الله من هذه المكفريات .

### الموطن الثالث للفكر الفلسفي : علم الكلام

#### الموطن الثالث : علم الكلام :

علم الكلام بدأ ملتحقاً بعباءة الدفاع عن الإسلام ، وقد جعل علم الكلام من رسالته أمرين كما هو المشهور على ألسنة أصحابه ، وفي تعريفه ، إذا سألت أحدهم : عرف علم الكلام؟ يقول : هو علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية وبيانها ، وعلى الدفاع عنها ورد الشبه الموجهة إلى هذه العقائد .

وهو إذاً له أمران :

**الأمر الأول:** بيان القضايا العقدية الإسلامية التي قد يخفى فهمها على البعض، فبينها علماء الكلام ويوضحونها ويشرحونها.

**الأمر الثاني - وهو أهم من الأول -:** الدفاع عن القضايا العقدية التي قد تتعرض للهجوم من أعداء الإسلام والمسلمين، وهذا يتضمن دراسة العقائد الإسلامية على الوجه الذي وردت به من عند الله تعالى ورسوله، أي: في الوحيين الشريفين دون تأويل أو تعطيل ودون تشبيه أو تمثيل، والقاعدة القويمة والعقيدة السليمة في اعتقاد هذه العقائد والإيمان بها، أن نمرها كما جاءت، وهذا يعني الالتزام بظاهر الشرع الشريف كتاباً وسنةً.

لكن علم الكلام الذي بدأ ملتزماً ديناً كتاباً وسنةً، هذا العلم نزع بعد ذلك إلى سبل وطرائق لا يرضاها الدين، ولا تخدم الإسلام، متأثراً بعوامل كثيرة ليست من الإسلام ولا الإسلام منها، وأكثر ما تأثر به علم الكلام دخول الأعاجم إلى الإسلام، وقد اتضح ذلك أكثر ما اتضح حين فتح الله بلاد فارس على المسلمين، وكان في فتح بلاد فارس على المسلمين خير كثير، ولكن كان فيها كذلك شر ليس بالقليل.

فقد فتح الله على المسلمين بفتح فارس خيراً لا يكاد يحصى، ولا يكاد يحصر، فالذين حفظوا لنا دين الله ﷺ في الوحيين الشريفين هم من فارس، وتحديدًا خدمة الإسلام، تقييد العلم الشرعي... ولعلنا نذكر أن أعظم الذين حفظوا لنا دين الله تفسيراً - تفسير القرآن الكريم - أعظم المفسرين وجمهرتهم، إنما هم من بلاد فارس، والسنة النبوية الشريفة، ليس فقط التفسير بالنسبة للقرآن الكريم، بل علوم القرآن، تجويد القرآن، تلاوة القرآن، علم القراءات، هؤلاء من الأعاجم من فارس. لعلنا نذكر حديثاً روي عن رسول الله ﷺ وهو يقول: **((لو كان العلم بالثريا لناله قوم من فارس))**.

فالمفسرون المعتبرون ليسوا عرباً، وكذلك السنة النبوية المطهرة: البخاري ليس عربياً، هو فارسي، وهو أعظم كتاب بعد كتاب الله... وأنا لا أحب أن أقول كما يقولون: أصح كتاب بعد كتاب الله! كتاب الله لا يقارن ولا يوازن ولا يوضع في مقابله شيء، ليس هذا طعنًا في البخاري، ولكنه حفظ لكتاب الله تعالى وإفراز له وتمييز عن أي شيء آخر.

في مقابل هذا الخير الكثير الذي جاءنا من بلاد فارس، جاء الزحف المجوسي الذي عاصر القرون المتطاولة، جاء المجوس يطالبون بشاراتهم من المسلمين ذلك الثأر الذي مر عليه أربعة عشر قرناً، لم ينسوه، جاءوا يطالبون بشاراتهم من المسلمين الذين فتحوا بلادهم، وأطفئوا نيرانهم، وقضوا على مجوسياتهم، ولم ينسوا بشاراتهم رغم مرور ذلك التاريخ الذي يربو على ألف عام، ومن ثم نجد الإسماعيلية وهم مجوس، أعداء الإسلام والمسلمين، تخفوا وراء رجل اسمه إسماعيل بن جعفر بن محمد أخو موسى الكاظم بن جعفر، زعموا أنهم أتباعه، وهم أتباع ميمون القداح الديصاني المجوسي، هؤلاء الإسماعيلية، ثم جاء الدرود وهم أيضاً خرجوا من عباءة الإسماعيلية، الدرود الذين يعبدون الحاكم المجنون، حاكم بأمر الله كما يقولون، ثم جاء النصيريون، وكل هؤلاء غلاة الشيعة الذين بدءوا أصلاً من فارس.

وجذور المشكلة مع الشيعة الغلاة، تبدأ منذ فتح المسلمون بلاد فارس، فانصدع أهل فارس إلى أربع طوائف:

**الطائفة الأولى:** طائفة آمنت بالإسلام، وأخلصت دينها لله تعالى، وقطعت ما بينها وبين مجوسيتها كل سبيل، فأفاء الله منها على الإسلام خيراً كثيراً، وأفاء عليها من الإسلام خيراً كثيراً، نفعت أنفسها ونفعوا غيرهم، منهم المفسرون، ومنهم حفظة السنة النبوية، ومنهم الفقهاء وغيرهم.

**الطائفة الثانية:** طائفة ظلت على مجوسيتها، والتزمت ذلك بوضوح، فتركها المسلمون وما تدين، وكانت تدفع الجزية للمسلمين، فاستراحت وأراحت.

**الطائفة الثالثة:** طائفة اعتنقت الإسلام وصدقت به وأمنت، لكنها لم تستطع أن تتخلص من دينها السابق، ولا من عاداتها المتعلقة بدينها، وجاهدت في التخلص من دينها السابق فلم تفلح، فكانت على الإسلام ظاهراً، لكن دينها السابق كان يحركها من الداخل، كانت نياتها سليمة لكنها عجزت عن تنفيذ أو عن الوصول إلى دين الله الحق، فكان إسلامها إسلاماً على دخن، وإيمانها إيماناً على خلل.

**الطائفة الرابعة:** طائفة المنافقين الحاقدين على الإسلام والمسلمين، الذين أظهروا الإسلام نفاقاً، وأبطنوا الكفر، وظلوا على مدى التاريخ يتناسلون ويتكاثرون ويتواصون بما توأصى به أجدادهم من الكيد للإسلام، ومحاوله الأخذ بثاراتهم، وطبيعي أن تكون الطائفة الثالثة التي هي بينَ بينَ ورقة راجحة في يد الطائفة الرابعة، توجهها وتستغلها لتنفيذ مقترحاتها وتوجيهاتها.

وعلى سبيل المثال، فقد جاء الإسلام بتوحيد نقي خالص لا تشوبه شائبة، فالله وَعَلَيْكُمْ واحد لا شريك له، بينما المجوسية تؤمن بالهين اثنين، وقد ذكرنا إن الطائفة الثالثة لم تتخلص من مجوسيتها رغم اعتناقها واقتناعها بالإسلام. هنا يأتي دور الطائفة الرابعة لكي تستغل الطائفة الثالثة التي هي بين بين، فتقترح لها ديناً وسطاً يتحقق به التوفيق بين القديم الذي يقول بالهين، والجديد الذي يقول بإله واحد. والحل الوسط عند هؤلاء هو الإيمان بإله واحد لا شريك له، لكن معه إمام معصوم هو عبد، لكن يخلعون عليه من صفات الله وَعَلَيْكُمْ الكثير.

ومن هنا جاءت عقائد الشيعة وسطاً بين الإسلام والمجوسية، وكان من هنا فرقة الشيعة التي تتراوح بين الإيمان والكفر، بين الاعتدال نوعاً والغلو حتى الفسوق عن الملة.





## التفرق والاختلاف بين المسلمين في إطار علم الكلام

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : فرقتا الجبرية والقدرية ٨١
- العنصر الثاني : فرقة المعتزلة ٨٧



## فرقتا الجبرية والقدرية

في إطار علم الكلام تكلمنا عن التفرق والاختلاف بين علماء الأمة المسلمة، وقد بينا أن الاختلاف نوعان:

**النوع الأول:** اختلاف في الفروع.

**النوع الثاني:** اختلاف في الأصول.

**الاختلاف في الفروع:** فهو اختلاف الفقهاء في الأحكام الفقهية العملية، وأشهر العلماء في هذا النوع من الاختلاف هم علماء الأمة الأربعة، إمام دار الهجرة مالك - رحمه الله - ثم أبو حنيفة، ثم الشافعي، ثم بقية السلف الصالح في عصره أحمد بن حنبل - رحمهم الله جميعاً ورضي الله عنا وعنهم.

وهذا النوع من الاختلاف هو اختلاف محمود، وفيه كثير من الرحمة، والتخفيف عن الأمة، ومآل هذا النوع من الاختلاف أو الخلاف يدور بين الصواب والخطأ، وحكمه يدور مع القاعدة الأصولية التي تقول: "للمجتهد إذا أصاب أجران، وإذا أخطأ أجر واحد". وأئمة الفقه يجتهدون في إطار الشريعة الإسلامية، مقتدين بالأحكام الواردة في الكتاب والسنة - الوحيين الشريفين.

وهنا ملاحظ ينبغي أن ننتبه إليه، وهو أننا لا ينبغي أن نخلط بين الفقه والشريعة، فالشريعة أحكام الله وأحكام رسوله ﷺ أي: ما جاء من أحكام في الكتاب والسنة، هذه هي الشريعة، أما الفقه فهو اجتهاد العلماء في ضوء هذه الشريعة: الكتاب، والسنة. وقد تكون أحكامهم الفقهية موفقة إلى إصابتهم حكم الله في المسألة وقد لا تكون.

## نقد الفلسفة الغربية

وقد ورد أن الإمام مالكا -رحمه الله- اجتهد في حكم مسألة من المسائل الفقهية، ثم توصل إلى حكم في هذه المسألة، فقيل له: هذا حكم الله في هذه المسألة؟ ففزع الإمام -رحمه الله- وقال: لا، هذا اجتهاد مالك في المسألة، فإن كان مصيباً فمن الله وإن كان غير ذلك فاضربوا برأي مالك عرض الحائط -أو كما ورد.

وهذا الخلاف في الفروع ليس معنا، ولكننا عرّجنا عليه لكونه نوعاً من نوعي الخلاف بين علماء المسلمين.

**الاختلاف في الأصول:** وهذا الخلاف هو مكنم الداء العضال الذي فرق وحدة الأمة وشنت جماعتها، وأتى في دين الله تعالى بما لم يأت به الله سبحانه ولا رسوله ﷺ لذلك كان ذلك النوع من الخلاف خطيراً؛ لأنه لا يدور بين صواب وخطأ، بل يدور بين إيمان وكفر، وفي أفضل الأحوال وأخفها يدور الأمر بين إيمان وفسق.

وفي إطار علم الكلام انصدعت وحدة الأمة، وتفرقت إلى فرق كثيرة، منها ما يزال في إطار الإسلام، ومنها كثير فسق عن الملة، وانصدع عن الدين، وخرج من الإسلام جملةً وتفصيلاً، وقد كان من هذه الفرق الكلامية فرق كثيرة نشير هنا إلى أهمها.

### أولاً: فرقة الجبرية:

وفرقة الجبرية فرقة تنفي الاختيار عن العباد، وتدعي أن جميع العباد هم مكلفون؛ لكنهم لا اختيار لهم، وأن جميع أفعالهم تسند إليهم مجازاً لا حقيقةً. وهذه الفرقة تولى كبرها رجل الجعد بن درهم، وهذا الجعد تعلم وتلمذ على يد

يهودي حاقد اسمه طالوت بن الأعصم، ثم تتلمذ على الجعد بن درهم شخص آخر اسمه الجهم بن صفوان، وإليه تُنسب الجهمية من جميع الفرق الذين يعطلون صفات الله - تبارك وتعالى - ويؤولون.

وقد زعم هؤلاء الجبرية أتباع الجعد بن درهم، والجهم بن صفوان أن كل شيء في الوجود إنما هو جبر، وأنه لا اختيار لأحد في الوجود إطلاقاً، فالطاعة جبر والمعصية جبر، والإنسان مجبور في جميع أفعاله، وهو كالريشة في مهب الريح تحركها الرياح كيف تشاء، وقد قالوا: إن التكليف جبر، والجنة جبر، والنار جبر، والحساب جبر - عليهم من الله ما يستحقون - وإذا سئلوا عن الحكمة، نفوا الحكمة في أفعال الله تعالى، وقالوا: إن الله مالك الملك يفعل في ملكه ما يشاء، ونحن ملك من ملك الله، قدر الله علينا كل شيء، وجبرنا في كل شيء، والجبر هو قانون الوجود، فالحياة جنتها جبراً، ونخرج منها جبراً، ثم ننشر ونحشر جبراً، ثم نحاسب جبراً، ثم الجنة والنار كذلك جبر، والنهاية كلها كذلك. وهم في ذلك يجردون الله ﷻ عن الحكمة، ويعطلونه سبحانه عن العدل، ويجعلونه - تعالى الله - ظالماً جائراً! وربنا سبحانه يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئًا ﴾ [يونس: ٤٤] ويقول ﷺ: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [٤٦] [فصلت: ٤٦] ويقول ﷻ عن مسؤولية الإنسان عن عمله: ﴿ كُلُّ أَمْرٍ إِيَّيَّامَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

والجبرية فرقة ضالة فاسدة فاسقة، جعلت الخلق عبثاً والتكليف عبثاً والحساب عبثاً والجنة والنار عبثاً، وقد ذكرنا أن بدور الجبر الأولى بدأت في عهد عمر بن الخطاب < حيث جيء إليه بسائل: "لم سرقت؟" فقال: قدر الله علي، أي: أنه مجبور في هذا، فقطعه عمر يده حداً حد السرقة، ثم ضربه أسواطاً، فغضب بعض أصحاب النبي ﷺ ورضي الله عنهم - وقالوا لعمر: "زدت في حد الله؛ إنما

حد السرقة القطع فقط ، وأنت قطعته وضربته ، فقال : ما زدت ، قال : القطع للسرقة ، والضرب لافترائه على الله تعالى".  
وهذه فرقة أصولها يهودية ، ثم فارسية مجوسية.

### ثانياً : فرقة القدرية :

وهذه فرقة ثانية جاءت على نقيض الفرقة الأولى -أي : الفرقة الجبرية- وجاءت كرد فعل لها ، وكما جردت الجبرية العبدَ من جميع الأفعال وجعلت الله سبحانه فاعلَ كل شيء ، جاءت القدرية ففعلت العكس ، جعلت العبد هو فاعل كل شيء من أفعاله ، وجردت الله -تبارك وتعالى- عن القدرة على فعل أي شيء من أفعال العباد ، بل زادوا على ذلك فجعلوا الله تعالى لا يعلم شيئاً من أفعال العباد إلا بعد وقوعها -تعالى الله عما يقول الظالمون.

وبذلك كفر هؤلاء القدرية بالقدر الذي هو الركن السادس من أركان العقيدة الإيمانية ، العقيدة الإيمانية : هي الإيمان بالله ملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، ثم الإيمان بالقدر ، والإيمان بالقدر يعني : أن نؤمن بأن الله تعالى قد علم كل شيء وقدره وكتبه قبل أن يخلق شيئاً من هذا الوجود كله ، فالله يعلم كل شيء قبل أن يخلق شيئاً ، يعلمنا ويعلم أفعالنا ويقدرها علينا ويكتبها وذلك قبل أن يخلقنا ، وهذا معنى الإيمان بالقدر الذي هو معلوم من الدين بالضرورة ، والذي لا يصح إيمان مؤمن ولا يُقبل إلا بالإيمان بالقدر.

لكن فرقة القدرية نفت علمَ الله سبحانه السابقة بالأفعال والأشياء ، وقالوا قولتهم الشهيرة والتي فسقوا بها عن الملة ، وخرجوا بها عن الإسلام ، قالوا : "لا قدر والأمر أنف" ، بمعنى : أن الله لم يقدر شيئاً سابقاً ، ولم يعلم من أفعال الناس وما

يحدث في هذا الوجود شيئاً سابقاً، وإنما - كما يقولون - الأمر أنف، يستأنف الله - تبارك وتعالى - علمه بالأشياء بعد وقوعها وليس قبل وقوعها، فهم يقولون: لا يوجد شيء علمه الله تعالى وقدره قبل وقوعه، بل إن الله إنما يعلم الأشياء بعد وقوعها وليس قبل وقوعها، وأنه تعالى لم يقدر شيئاً.

وهم بذلك كفروا بما ورد في القرآن الكريم، وبما ورد في السنة النبوية الشريفة، يقول الله ﷻ مثبتاً القدر: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩] ويقول ﷻ: ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨] ويقول الله - تبارك وتعالى - في وضوح شديد، مفصلاً ما لا يحتاج إلى تفصيل إلا عند هؤلاء الجهلاء، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [الحديد: ٢٣، ٢٢].

يقول الله تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ ، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ يعني: ما يحدث من حدث، أو يقع من شيء، يحدث أي شيء ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ مثل الزلازل والبراكين، والقحط والجوع، والبرودة الشديدة والحر الشديد، هذه مصيبات تقع في الأرض، ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ﴾ في الأرض من مثل هذه الأشياء، ﴿ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ من مرض وبلاء وموت، وأي شيء يصيب الإنسان في نفسه، ﴿ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ أي: إلا وهي مثبتة في كتاب ﴿ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ﴾ من قبل أن يخلق الأرض ويخلق الأنفس.

وحتى لا يتعجب أحد من شدة هذا، يقول الله تعالى في تنمة الآية: ﴿ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾ لأنكم إذا علمتم أن الله تعالى قد قدر كل شيء، وأن ما يحدث لكم إنما هو مقدر

قبل أن يخلق الله السموات والأرض، عند إيماننا بهذا لا نفرح كثيراً على ما يأتينا، ولا نأسى كثيراً على ما يفوتنا؛ لأن هذا قدر الله وهو واقع لا محاله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

ولقد بين لنا حكم الإسلام في هؤلاء الذين ينكرون قدر الله، ولا يؤمنون به، بينه لنا حكم الله في هؤلاء الإمام عبد الله بن عمر -رضي الله تعالى عنه وعن أبيه- حيث قال عبد الله بن عمر للذي جاء يسأله عن هؤلاء الذين ينكرون القدر، قال: "لو لقيت هؤلاء فأخبرهم أنني بريء منهم وأنهم براء مني، والذي يحلف به ابن عمر، لو أنفق أحدهم مثل أحد ذهباً ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر".

بقي أن نذكر بأن بدعة القول بالقدر جاء بها رجل اسمه معبد الجهني ورجل آخر اسمه غيلان الدمشقي، وكلاهما أخذ هذه الضلالة عن رجل نصراني اعتنق الإسلام، ثم ارتد إلى دينه مرة ثانية وأنكر القدر، ودرّس الأمر لهذين الرجلين فاعتنقا عقيدته الباطلة، وجاء ينشرانها بين أفراد الأمة المسلمة.

جرت عادة المؤرخين للفرق أن يضعوا هاتين الفرقتين ضمن الفرق الإسلامية، ونحن مضطرون إلى اتباع منهجهم نظاماً لا اعتقاداً، وشكلاً وليس موضوعاً، ونحمد الله سبحانه على أن هاتين الفرقتين لم يعد لهما وجود مؤثر على الساحة الإسلامية إلا في نطاق ضيق.

فالجبرية في شكلها العام -أقصد الجبرية سلوكاً ومنهج حياة- قد نجدها عند فريق من المتصوفة المتواكلين الذين يقولون: إن التصوف هو ترك التدبير، وأن يترك المرء نفسه تدبره المقادير. هذه عبارتهم أو قريبة من عباراتهم ومصطلحاتهم.

أما القدرية فقد نجدها عند العلمانيين والمتفلسفة المنفلتين، ومن على شاكلتهم من المستغربين -نعني بالمستغربين هؤلاء المتقفين أو أنصافهم الذين فتنوا بالغرب، ووقعوا



في شباك المستشرقين أعداء الإسلام والمسلمين ، من ثم اتخذوا الغرب مثلاً واتخذوا المستشرقين قدوةً وأسوةً ، ثم انطلقوا على وجوههم صمًا وبكمًا في الظلمات . وفي جميع الأحوال ، فإن أثر هاتين الفرقتين إن وجد فهو محدود محدود محدود .

### فرقة المعتزلة

نتقل إلى فرقتين أخريين هما صاحبتا التأثير الأقوى والأخطر في حياة الأمة المسلمة ، وتأثير كل منهما يفوق تأثير غيرهما من الفرق الإسلامية الأخرى ، ولا نجانب الصواب إذا زعمنا أن تأثير كل من الفرقتين لا يقاربه تأثير فرقة أخرى ، وأن تأثير كل منهما ممتد يتخطى العقود والقرون ، ويظهر لنا واضحًا في المناهج الحياتية لكثير من المسلمين وبخاصة شبابنا المتحمس .

هاتين الفرقتين : فرقة المعتزلة ، ثم فرقة الأشاعرة .

ولنبداً بأسبغهما ظهوراً :

### ثالثاً : فرقة المعتزلة :

وهي فرقة من الفرق عظيمة الخطر بين الفرق ، لها تاريخ الحافل وأثرها الكبير في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وبخاصة في عصور الإسلام الأولى ، وهي ، وإن كان تأثيرها قد ضعف وصوتها قد خفت ؛ إلا أن كثيراً من أفكارها ومبادئها ما يزال يعيش في عقول كثيرين من المفكرين الإسلاميين ، أو من يسمون كذلك ، وبخاصة إذا نحن نحينا الترابط بين مبادئها وتجنبنا أخذ مبادئها جملةً ، وأخذنا هذه المبادئ مفردةً بعيداً بعضها عن بعض ، فليس من شك في أننا واجدون بعض مبادئ هذه

## نقد الفلسفة الخيرية

الفرقة يغشى عقول الكثيرين من المفكرين ، وذلك مثل المبدأ الذي يقول: "إن العبد حر في فعله يفعل ما يشاء ، بعيد عن فعل الله عَجَلًا".

فإن أدلتهم -المزعومة في هذه القضية- قد جذبت كثيراً من الناس إليهم بقدر ما نفرت الناس من الأشاعرة الذين يتحدثون عن شيء يسمونه الكسب ، وهو أمر لم يخفَ فهمه على الناس فحسب بل خفي فهمه -كسب الأشاعرة- على كثيرين من الأشاعرة أنفسهم حتى ضُرب به المثل في خفاء المعنى ، فقبل في المثل العربي : أخفى من كسب الأشعري.

### مبادئ الاعتزال :

فرقة المعتزلة تقوم عقيدتها على مبادئ خمسة ، جعلوها علامة عليهم وأساساً يميزهم عن غيرهم ، هذه المبادئ هي :

أولاً: التوحيد.

ثانياً: العدل.

ثالثاً: المنزلة بين المنزلتين.

رابعاً: الوعد والوعيد.

خامساً: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

### نقد مبادئ المعتزلة :

#### المبدأ الأول عند المعتزلة: التوحيد:

والتوحيد عندنا نحن أهل السنة والجماعة يعني الاعتقاد بأن الله تعالى واحد في ذاته ، واحد في صفاته ، واحد في أسمائه ، واحد في أفعاله ، واحد في استحقاقه

العبادة، وتوحيد الله تعالى يعني توحيد الربوبية وهو توحيد الفعل والتأثير في الوجود، وهو توحيد الخالق الرازق المحيي المميت الغفور الرحيم، أو هو توحيد الله فيما يأتي العباد من قبل الله تعالى، ما ينزل من قبل الله تعالى إلى عباده هذا ربوبية. أما توحيد الألوهية فيعني ما يصعد إلى الله تعالى من أفعال العباد، ويسمى توحيد الطلب أو توحيد العبادة، فهو تَعْبَادُ اللَّهِ وحده المستحق للعبادة، وهو أهل الدعاء والطلب، على هذا اتفق أهل السنة والجماعة.

لكن المعتزلة أرادوا بالتوحيد شيئاً آخر، فقد ذهبوا إلى أن توحيد الله تعالى يعني تعطيل الذات الإلهية عن صفاتها وأسمائها، فالله تعالى له صفات الكمال، وأسمائه سبحانه تشتق من صفاته، لكن المعتزلة اعتقدوا أن في إثبات الصفات لله تعالى شركاً بالله سبحانه، واعتقدوا أن إثبات صفات الله تعالى القديمة فيها تعدد للقدماء، وقالوا: إننا كفرنا النصارى بأنهم أثبتوا ثلاثة قدماء، وأنتم -تقصدون نحن أهل السنة- تثبتون لله تعالى صفات وأسماء تزيد على ذلك كثيراً، فيكون ذلك شركاً، زاعمين أن أخص صفات الألوهية هي القدم، فإذا ما أثبتنا لله تعالى عدداً من الصفات القديمة فقد تعدد القدماء وتعدد بالتالي الآلهة. هذا كلام المعتزلة.

وليس ثمة عاقل يذهب مذهب المعتزلة رغم أنهم دائماً ينحون منح العقل في مقابل الشرع، فنحن في إثبات الصفات لله تعالى ثبت صفات هي معانٍ مجردة لا تثبت ذواتاً حتى يقال: إن ذلك شرك -عياداً بالله- وأما النصارى فقد كفروا بإثباتهم ثلاثة ذوات هم يزعمهم آلهة، فزعمهم هذا باطل، وقد ذهب المعتزلة إلى إثبات مقتضى الصفة، ثم أحقوه بالذات، فقالوا: إن الله عليهم بذاته لا بعلمه، قادر بذاته لا بقدرة، وهكذا... وهذا منهم ضلال مبين، حيث عارضوا

## نقد الفلسفة الغربية

القرآن الكريم والسنة النبوية التي أثبتت صفات الله تعالى يقول تعالى سبحانه: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فقد أثبت الله ﷻ لذاته علماً، وأضافه إلى ذاته، فلا يصلح أن يقال: عليم بذاته؛ لأن المضاف غير المضاف إليه.

ثم إن كل موجود لا بد أن يوصف بصفات، وتلك ضرورة عقلية بديهية، وبخاصة إذا نحن رددنا بين النقيضين، فقلنا: كل موجود إما ساكن أو متحرك، كل موجود إما قادر أو عاجز، كل موجود إما سميع أو أصم، كل موجود إما عالم أو جاهل، ولا سبيل إلى الخروج من هذا إلا بإثبات أحد الطرفين بهذا الموجود

### المبدأ الثاني عند المعتزلة: العدل:

والعدل صفة من صفات الله ﷻ واسم من أسمائه، والعدل عندنا يعني تصرف المالك في ملكه حسب الحكمة، وتصرف المالك في ملكه حق وعدل، ولكن المعتزلة جرّوا في معنى العدل عندهم على مقتضى نزعة عقلية فلسفية عجبية، تقيس الغائب على الشاهد، وتمثل الحق ﷻ بخلقه، ولذا فقد أجروا على الحق ﷻ مقاييس البشر، ومن ثم أوجبوا على الله ﷻ أموراً ألزموه تعالى بها، ومنعوه أموراً أعجزوه ﷻ عن الإتيان بها، فقالوا: يجب على الله تعالى أن يفعل كذا، ويمتنع عليه أن يفعل كذا، أو يجب عليه أن يفعل كذا، ويجب عليه أن لا يفعل كذا.

ومما أوجبوه على الله ﷻ أموراً كثيرة، أهمها خمسة أمور:

**الأمر الأول:** أن يترك العباد يفعلون أفعالهم دون تدخل منه سبحانه، فأوجبوا على الله ﷻ أن يترك العباد يفعلون ما يشاءون دون أن يؤثر بقليل أو كثير في أفعالهم، وأن يترك العبد يفعل فعله دون تأثير منه في قليل أو كثير.

**الأمر الثاني:** يجب على الله تعالى - هذا كلامهم - فعل الصلاح والأصلح للعباد:

وهذا يعني - في تفسيرهم - أنه إن كان هناك أمران بالنسبة للعبد: أحدهما: فساد، والآخر: صلاح، فيتوجب على الله ﷻ أن يفعل الصلاح للعبد وأن يترك الفساد، أما إن كان هنالك أمران: أحدهما، صلاح، والآخر: أصلح، فيجب على الله تعالى أن يترك الصلاح وأن يفعل للعبد ما هو أصلح. هكذا ذهبوا، تعالى الله عما يقولون.

وهذا المبدأ الفاسد - وهو فعل الصلاح والأصلح - له تطبيقات كثيرة في مذهب القوم، سنرى بعضاً منها - بحوله تعالى -.

**الأمر الثالث:** إرسال الرسل، فهم يقولون: يجب على الله تعالى إرسال الرسل إلى العباد، أما ما نعتقده نحن أهل السنة والجماعة أن إرسال الله الرسل إنما هو لطف منه سبحانه بالعباد، ولا يجب عليه شيء، لكن المعتزلة - حسب مبدأهم السابق الفاسد في الصلاح والأصلح - يقولون: يجب على الله إرسال الرسل للعباد؛ لأن عدم إرسالهم فساد وإرسالهم صلاح، فيجب على الله إرسالهم؛ لأنه يجب عليه فعل الصلاح للعباد.

**الأمر الرابع:** اللطف بالعباد: فهم يقولون: يجب على الله اللطف بالعباد، فيفعل للعبد ما يجعله أقرب إلى الطاعة وأبعد عن المعصية دون أن يلجئه إلى ذلك قسراً أو كرهاً.

**الأمر الخامس:** الأعواض جمع عوض، فالمعتزلة يرون: أن الله تعالى إذا أمرض عبداً وجب عليه أن يعوضه عن هذا المرض الذي وقع فيه، فيجب عليه أن يعوض المؤمن عن أية مصيبة تصيبه في بدنه كالمريض، أو ولده إذا مات له ولد،

## نقد الفلسفة الغربية

أو ماله إذا فقد ماله أو خسره في تجارة مثلاً، فإذا أصيب بشيء من ذلك فقد وجب على الله أن يعوضه عن ذلك، وقالوا: هذا حق للعبد على الله يجب على الله أن يؤتيه إياه.

### المبدأ الثالث عند المعتزلة: الوعد والوعيد:

وهو يعني عندهم: أن الله تعالى يجب عليه أن ينفذ وعده ووعيده، ولا يملك أن يخرج عن ذلك، ونحن أهل السنة نعتقد بأن الله عز وجل لا يجب عليه شيء، أما الوعد فتنفصل من الله تعالى ومنة، والعبد لا يستحق عند الله شيئاً في مقابل الطاعة، ورسولنا صلى الله عليه وسلم أخبرنا: "أنه لن يدخل أحدكم عمله الجنة إلا برحمة الله؛ فالعبد لا يستحق عند الله شيئاً في مقابل طاعة إلا بمقتضى وعده سبحانه، والله ينفذ وعده، أما وعيده للعاصين فالأمر متروك لمشيئته عز وجل إن شاء عاقب على المعصية فأنفذ وعيده، وإن شاء عفا وتفضل، وهو سبحانه إلى التفضل أقرب، ولا يجب عليه شيء.

لكن المعتزلة -تبعاً لمبدئهم الفاسد- يقولون: يجب على الله أن يدخل الطائع الجنة ولا يملك غير ذلك -عياداً بالله- ويجب عليه أن يدخل العاصي النار ولا يمكنه أن يعفو عنه.

### المبدأ الرابع: عند المعتزلة: المنزلة بين المنزلتين:

وهذا المبدأ هو أول مبادئ المعتزلة على الإطلاق، لو أننا رتبنا هذه المبادئ تاريخياً أو واقعاً لوضعنا هذا المبدأ أولاً، لكن وضعناه حسب الأهمية.

المبدأ الرابع عند المعتزلة: أنهم يرون أن مرتكب الكبيرة لا يسمى مؤمناً ولا يسمى كافراً، وإنما هو في منزلة بين الكفر والإيمان:

فهو لا يسمى مؤمناً؛ لأنه قد ارتكب كبيرة، فهو بهذا قد أتى من الأفعال ما يرفع عنه اسم الإيمان، كذلك هو لا يسمى كافراً؛ لأنه يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهذا فعل خير لا يفعله كافر، ولذلك هم يقولون: إن الإيمان عبارة عن خصال خير إن اجتمعت سمي العبد مؤمناً، ومرتكب الكبيرة لم يستكمل هذه الخصال وذلك بارتكابه الكبيرة فلا يسمى مؤمناً، كذلك لأنه يشهد الشهادتين وهي من خصال الخير فلا يسمى كافراً، فهو إذاً لا هو مؤمن ولا هو كافر، فهو في منزلة بين المنزلتين. هذا من حيث الاسم. أما من حيث الحكم فهو مخلد في جهنم وبئس المصير.

المتأخرون من المعتزلة أباحوا أو أجازوا أن يسمى المؤمن مسلماً تُطلق عليه وصف المسلم ليس لأنه مسلم عندهم، بل للفرقة بينه وبين الكافر.

### المبدأ الخامس عند المعتزلة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وهذه الفريضة التي هي عندنا فرض كفاية بل هي عند جميع المذاهب كذلك، وهي عند أهل السنة فرض كفاية مع ضوابطها وشروطها ليس بإطلاق، فأهل السنة لا يفرضون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ارتجالاً، وبلا ضوابط، وليس كل واحد من المسلمين صالحاً لأن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فقد يكون جاهلاً لا يعرف لا يفرق في قضية من القضايا بين ما هو معروف وما هو منكر، وعند ذلك قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف.

لكن المعتزلة يرون هذا مبدأ فريضة عينية على كل مسلم أن يفعله دون شروط بإطلاق، وعليه أن يجهر بها تحت أية مناسبة وفي أي ظرف دون أن يخشى في ذلك لومة لائم، حتى ولو ذهب نفسه مقابل ذلك، ولذلك شدد هؤلاء في قضية

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى حد أن جعلوا ذلك مبدأً من مبادئهم التي تميزهم عن غيرهم، ويعرف بها المعتزلي من غيره.

أما عندنا نحن المسلمين فهنالك شروط للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بعد أن نقرر أن هذا المبدأ إنما هو فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الباقين.

**الشرط الأول:** وهو أن يكون القائم بهذه الفريضة عالماً عارفاً بما هو معروف وما هو منكر، وقضية المعرفة والعلم هنا ليست على إطلاقها، فقد يكون هناك أناس يعرفون كثيراً من دين الله، لكن يأتون في قضية بعينها دقيقة فيجهلون ما هو معروف وما هو منكر، وقد يخلطون بين الأمرين، وهنا يأتي الخطر من أن نجعل هذا الأمر فرضاً واجباً أو عينياً على كل مسلم.

**الشرط الثاني:** أن يغلب على ظن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن أمره ونهيه سوف يؤدي إلى صلاح ولن يؤدي إلى مفسدة أكبر من التي يراها، بعض الناس يريد أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فيتعصب ويتشدد ويفعل شيئاً من هذا فيأتي بنتيجة عكسية.

أختم هنا برواية رواها الإمام ابن القيم في هذا السبيل، قال: يروي: أنه كان يمشي مع أستاذه ابن تيمية ووجد بعض المغول أو التتر الذين كانوا في بغداد بعضهم يجلس ويشرب الخمر ويسكر، قال: فانبريت أريد أن أنهاهم عن هذا المنكر، وأقول لهم: لا تشربوا فهذا حرام؛ لأنهم كانوا في ذلك الوقت قد زعموا أنهم اعتنقوا الإسلام، لكنهم كان إسلامهم على دخن، قال: فانبريت لأمرهم بالمعروف وأنهاهم عن الشرب، فجذبني شيخي ابن تيمية وقال: دعهم يشربون، فإنهم شربهم هذا يلهمهم عن إيذاء المسلمين، وإذا تركوا الشراب انقلبوا على بيوت المسلمين يسرقون ويزنون ويفجرون.



تابع: التفرق والاختلاف بين المسلمين في إطار علم الكلام

عناصر الدرس

- العنصر الأول : نقد مبادئ المعتزلة من جانبيين ٩٧
- العنصر الثاني : فرقة الأشاعرة، ونقدها ١٠٤



#### نقد مبادئ المعتزلة من جانبين

فالمبادئ والأسس التي يقوم عليها مذهب فرقة المعتزلة خمسة مبادئ هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد أضافوا إلى هذه الخمسة مبدأً آخر سادساً هو قولهم: "إن القرآن مخلوق حادث".

وهذا المبدأ السادس لم نضمه إلى الخمسة السابقة، فنقول: إن مبادئ المعتزلة ستة؛ لأن ثمة فرقاً أخرى تزعم ما زعم المعتزلة أن القرآن مخلوق، فهذا المبدأ الفاسد -نعني: القول بأن القرآن مخلوق- ليس من الأسس والمبادئ الخاصة بالمعتزلة، لذلك لم يُضم إلى مبادئهم الخمسة، رغم أن القول بخلق القرآن لم يثر من المصائب والبلايا، ولم يكن له من التاريخ الأسود مثلما كان لدى المعتزلة، وبخاصة في عهود المأمون والمعتصم والواثق -عليهم من الله ما يستحقون لقاء ما فعلوا بعلماء الأمة، وسلفها الصالحين. وسوف نتحدث عن هذه المحنة في نقدنا للمعتزلة -إن شاء الله تعالى.

نقدنا للمعتزلة سيكون من جانبين:

**الجانب الأول:** نقدهم في مبادئهم الخمسة، وسوف نقد هذه المبادئ نقوداً مجملةً دون تفصيل:

وسوف نركز نقودنا على أمور ثلاثة عندهم:

**الأمر الأول:** عقيدتهم في التوحيد.

**الأمر الثاني:** عقيدتهم في الوجوب على الله وَعَلَى.

**الأمر الثالث:** عقيدتهم في المنزلة بين المنزلتين، أو في مرتكب الكبيرة بصورة عامة.

**أولاً:** نقد عقيدتهم في توحيد الله ﷻ:

سبق أن أشرنا إلى بعض النقود على تلك العقيدة التي بنوا عليها تعطيل صفات الله، وتجريد الله ﷻ عن صفاته وأسمائه، وذلك منهج باطل، ووهم لا يقول به عاقل، والأصل في عقيدة المؤمن بربه ﷻ تلك القاعدة التي تقول: إنه لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله ﷻ فربنا سبحانه هو الذي يعرف ذاته حق المعرفة، أما نحن فلا نعرف عنه سبحانه إلا ما أخبرنا به ﷻ في كتابه الكريم، وما أخبرنا به رسوله ﷺ في سنته الشريفة.

والله ﷻ قد أفاض علينا من صفاته وأسمائه سبحانه ما علم أننا نطبقه ونطبق العمل بمقتضاه، وما علم أننا لا نطبقه أو ليس في طاقتنا العمل به والارتفاع إلى مستواه، أمسكه ربنا عنا؛ رحمة بنا، وحتى لا يكلفنا ما لا نطبق.

انطلاقاً من هذه القاعدة وما بني عليها فقد وجب علينا أمور كلها مسلم ولا مُشاحة فيها ولا شغب عليها، نعني: أن نأخذ ما يأتينا من قبل الله ﷻ من صفاته وأسمائه في كتابه الكريم أو في سنة نبيه ﷺ أموراً مسلمة لا شية فيها من اعتراض أو تأويل أو اجتهاد أو إعمال رأي أو شغب عليها بأية صورة من الصور، بل نأخذها كما جاءت، ونمرها كما وردت دون تشبيه أو تمثيل، ودون تأويل أو تعطيل.

وقد بان لنا من منهج المعتزلة الذي اتبعوه -مخالفاً لما قلناه- ضلالات لا قبل لعقل عاقل بها، وإن تعجب فعجب أن يصدر هذا التخريف والتهريف عن قوم يزعمون أنهم يقيمون مذهبهم على مقتضى العقل، فإذا هم يذرون ببداهة العقل ويخالفون

ضروراته مخالفت صارحة وصارخة ، وقد بينا أنهم نفوا صفات الباري ﷻ حتى لا يتعدد القدماء بزعمهم فيكون ذلك شركاً بالله تعالى .

وهذا زعم باطل ، ولا ندري كيف جعلوا الصفات التي هي معانٍ مجردة جعلوها ذواتاً تشارك الله ﷻ الذي هو موصوفها جعلوها شريكةً الله إن هو وُصف بها ، فكيف يكون علم الله إلهاً شريكاً لله؟! وكيف تكون إرادة الله إلهاً ثالثاً شريكاً لله ﷻ؟! .

هل رأى عاقل أتفه وأسفه من عقول تقول بهذا مجرد قولٍ ، فضلاً عن أن تعتقده؟! .

**ثانياً:** نقد عقيدتهم في قولهم بالوجوب على الله ﷻ :

حيث تقوم عقيدتهم على قولهم : يجب على الله فعل الصلاح والأصلح ، يجب على الله إرسال الرسل ، يجب على الله أن يعوض العباد عن الآلام التي تصيبهم ، يجب على الله إدخال المؤمن الجنة وإدخال الكافر النار ، ولا يملك غير ذلك عندهم . وهذه مبادئ فاسدة واضحة الفساد .

ونحن نناقش هذا المبدأ الضال - مبدأ القول بالوجوب على الله - من وجوه :

**أولاً:** أن الله ﷻ له الإرادة التامة والمشيتة المطلقة ، ومن ثم فلا يجب عليه فعل شيء ولا يجب عليه ترك شيء ، فهو سبحانه مالك الملك ، يفعل في ملكه ما يشاء ، ويترك ما يشاء ، لا معقب لحكمه ولا راد لمشيئته . وقد قال سبحانه عن نفسه ﷻ : ﴿ **فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [البروج: ١٦] ويقول -تبارك وتعالى- : ﴿ **وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ** ﴾ [الرعد: ٤١] ويقول ﷻ : ﴿ **لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ** ﴾ [٤٩] **أَوْ يَزُوجُهُمْ ذَكَرًا وَإِنثَاءً وَجَعَلَ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ** ﴾ [الشورى: ٤٩ ، ٥٠] .

فهذه الآيات تتضمن بوضوح شديد أن الله سبحانه فعال لما يريد، ولم يقل الله عَزَّ وَجَلَّ:  
فعال لما يجب عليه كما قالت المعتزلة -أخزاهم الله.

ثم إن مبدأ الوجوب ينقد ويبطل الإرادة المطلقة الثابتة لله عَزَّ وَجَلَّ ويحدد ويحجم  
المشيئة الكاملة، فالقول بالوجوب ينقد الإرادة والمشيئة؛ فلا يكون الله عَزَّ وَجَلَّ فعالاً  
لما يريد، بل يكون فعالاً لما أوجب عليه المعتزلة -جل الله عما يقول الظالمون.

**ثانياً:** أن الله تعالى ذكر في كتابه الكريم أنه يهب الإناث لمن يشاء، والذكور لمن  
يشاء، ويهب النوعين لمن يشاء، ويحرم منهما من يشاء، ولم يذكر تعويضاً لأحد  
عنده، فالقول بالأعواض والقول باللطف الواجب على الله عَزَّ وَجَلَّ كل ذلك قول  
باطل، وحديث خرافة لا يقول به عاقل.

**ثالثاً:** أن القول بالوجوب على طرف يحتاج بالضرورة إلى قوة ملزمة بالطرف  
المقابل، والقوة الملزمة هي التي تتولى إلزام المعين بالواجب عليه، وتلاحظ ذلك  
فيه، فإذا قصر فيما أوجبت عاقبته.

وهنا سؤال يفرض نفسه إذا كان الله عَزَّ وَجَلَّ يجب عليه أمور معينة كما تدعي  
المعتزلة، فمن الذي أوجب على الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الأمور؟ وإذا لم يفعل الله هذا الذي  
أوجبه عليه المعتزلة؛ فمن ذا الذي سيحاسب الله عَزَّ وَجَلَّ على تركه ذلك الواجب؟!  
-تعالى الله عما يقول الحمقى والجهلاء.

**ثالثاً:** نقد عقيدتهم في مرتكب الكبيرة، والتي بنوا عليها مبادئهم في المنزلة بين  
المنزلتين:

وفي مرتكب الكبيرة اختلف علماء الكلام على مذاهب كثيرة، أهمها ثلاثة:  
وقبل أن نستعرض في هذا نبين أن مرتكب الكبيرة الذي جاءت فيه الآراء المختلفة  
-آراء المعتزلة، والخوارج، والمرجئة- ليس الذي ارتكبتها في الدنيا وما يزال حياً

ثم تاب منها، لكن الخلاف حول مرتكب الكبيرة الذي خرج من الدنيا على غير توبة نصوح منها، من ارتكب كبيرة في الدنيا في حياته ثم خرج من الدنيا ولم يتب من هذه الكبيرة، ف هو عند الخوارج من حيث الاسم كافر ومن حيث الحكم مخلد في جهنم.

أما عند المرجئة فمن حيث الاسم هو مؤمن مسلم، ومن حيث الحكم هو ناج حسب قاعدتهم التي تقول: لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة.

أما المعتزلة فقد قالوا من حيث الاسم لا يسمى مؤمناً ولا يسمى كافراً، بل هو في منزلة بين المنزلتين، والمراد بالمنزلتين الإيمان والكفر، هذا من حيث الاسم. أما من حيث الحكم فقد وافقوا الخوارج وقالوا: إن مرتكب الكبيرة الذي خرج من الدنيا على غير توبة منها، مخلد في جهنم مع الكفار، لكن عذابه يكون أخف من عذاب الكفار.

هذه عقيدة الفرقاء في مرتكب الكبيرة أي: الذي خرج من الدنيا على غير توبة منها.

أما عقيدتنا نحن أهل السنة والجماعة، عقيدة السلف الصالح -رحمهم الله تعالى- فمرتكب الكبيرة الذي خرج من الدنيا ولم يتب منها، هو تحت مشيئة الله **وَعَجَلْ** لأننا لا نكفر مؤمناً بمعصية، وهو في الآخرة تحت مشيئة الله سبحانه، إن شاء الله سبحانه عذبه على قدر كبيرته ثم أدخله الجنة، وإن شاء عفا عنه ابتداءً وأدخله الجنة، فالجنة هي دار المؤمن الذي لقي الله سبحانه لا يشرك به شيئاً؛ لأنه من المتفق عليه عند أهل السنة والجماعة أن النار ليست داراً لمؤمن، وأن الجنة ليست داراً لكافر، والقاعدة عندنا حددتها الآية الكريمة التي يقول الله **وَعَجَلْ** فيها: **﴿إِنَّ**

**اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [النساء: ٤٨].

فما ذهب إليه المعتزلة باطل وضلالٌ، وليس من الإسلام في شيء، وقد تواترت الأدلة على أن مَنْ لقي الله تعالى على الشهاداتين لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، وفي الحديث الصحيح: ((وإن زنا وإن سرق))... هذه هي النقود لمبادئ المعتزلة التي جمعناها وأجملناها في ثلاثة نقود فقط.

**الجانب الثاني:** هو نقد مناهجهم وسلوكهم مع المسلمين وعلماء الأمة وسلفها:

نقصد نقد سلوكهم مع علماء الأمة، ونعني تحديداً الفتنة التي أثارها المعتزلة تحت قولهم: "بخلق القرآن". فقد كان المعتزلة يرون فسق بل كفر من لم يعتنق عقيدتهم وآراءهم، ومن ثم فقد كانوا يطبقون عليه عقيدتهم في أنه ليس مؤمناً، بل فسق عن الملة وخرج من الإيمان.

وعندما آل أمر الخلافة إلى المأمون الذي كان يميل إلى الفرس، والذي أسلم لهم أمر الدولة المسلمة ممثلين في شخص الفارسي المجوسي الفاجر أحمد بن أبي دؤاد، والذي تمخضت عداوته للإسلام ولعلمائه عن امتحان العلماء بعقيدتهم في خلق القرآن، فكان يأتي بالعلماء الأجلاء رموز الأمة المسلمة وبقية السلف الصالح في عصره يستقدمهم مهانين مستذلين، ثم يسألهم في خلق القرآن، فمن أقر بخلق القرآن؛ خوفاً وتقيةً من حقه وقسوته وسطوته، عفا عنه وتركه، ومن قال بغير ذلك سجنه وعذبه حتى الموت.

وقد وصل الأمر بالمأمون أن اعتبر عقيدة الاعتزال ديناً يجب حمل الناس عليه بقوة السلطان وجبروته، وقد عاقب كل مَنْ رفض عقيدة المعتزلة من الفقهاء وأهل الحديث وسلف الأمة بالحبس والضرب والتعذيب حتى الموت، وليس بخافٍ ما فعله بالإمام أحمد بن حنبل -رحمه الله- وبقية السلف الصالح في عصره.



وقد انتقلت هذه المحنة بعد المأمون إلى خلفه المعتصم بوصية من المأمون، وبإشراف وتنفيذ ذلك الشيطان المجوسي أحمد بن أبي دؤاد، ثم من بعد المعتصم جاء ابنه الواثق، فكان أشد من سلفيه، فاشتد في امتحان العلماء، وأدجج في الظلمة والظلم، وقد عميت بصيرته وختم الله على قلبه، فلم يدرك تلك الحقيقة الواضحة التي أدركها عبادة المهرج الذي كان يضحك الواثق - أبكى الله قلبه - فقد كان للواثق مهرج يضحكه اسمه عبادة، وقد رأى عبادة هذا يوماً تلك القسوة والوحشية التي يعامل بها الواثق علماء الأمة ورموزها وهو يسألهم في خلق القرآن، ومن لم يقر بخلق القرآن يأمر به إلى السجن، ثم الضرب والتعذيب.

فأراد عبادة المهرج أن يلفت نظر الخليفة الواثق إلى الحقيقة، فانتظر حتى خرج ابن أبي دؤاد من عند الخليفة، ثم دخل عبادة على الخليفة الواثق، وقال له فجأة: أعظم الله أجرك في القرآن يا أمير المؤمنين، ففزع الواثق فرعاً شديداً، وقال: ويلك يا عبادة! القرآن يموت، فقال له عبادة: وقد نظر في عيني الواثق ملياً، يا أمير المؤمنين، كل مخلوق يموت، فأجلم الواثق ولم ينبس بكلمة.

وهكذا، ألقى عبادة المهرج على الواثق برهاناً من نوع براهين المعتزلة يثبت به أن القرآن يموت؛ لأنه ما دام القرآن مخلوقاً كما يقول الواثق والمعتزلة وما دام كل مخلوق ميت لا محالة، فالقرآن لا بد سوف يموت. ويبدو أن عبادة المهرج كان حكيماً في ثياب مهرج أو كان على الأقل أحكم وأعقل من الواثق أمير المؤمنين والخليفة على المسلمين.

## فرقة الأشاعرة، وتقدمها

نتكلم عن فرقة الأشاعرة، أتباع أبي الحسن الأشعري - رحمه الله -.

ولاحظوا عبارة: أتباع أبي الحسن الأشعري - رحمه الله - في المرحلة الأولى لانقلابه على المعتزلة، ثم تركوا أتباعه واتبعوا أهواءهم، ملتزمين مذهبه القديم، وذلك حين رجع عن مذهبه الأول والتزم عقيدة السلف وأهل السنة، واتبع هو الإمام الفاضل والرئيس الكامل أحمد بن حنبل كما يصفه الإمام الأشعري - رحم الله الجميع.

## الإمام أبي الحسن الأشعري:

نذكر في إيجاز شديد، ومذهبه، والمراحل التي مر به حياتياً وعقدياً:

ولد أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري سنة ستين ومائتين للهجرة، وتوفي سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة للهجرة. وكان أبوه من طائفة المعتزلة المتعصبين لمبادئهم، مات عنه أبوه وهو رضيع، وتزوج شيخ المعتزلة في عصره أبو علي الجبائي أم الأشعري، وضمه إلى كفالته، فتربى أبو الحسن في حجر أبي علي الجبائي زعيم المعتزلة، وبذلك تلقى علومه وتعلم على يد زوج أمه الجبائي.

وقد ظهر ذكاؤه وقوة عارضته في الجدل والمناظرة منذ حداثة، حتى إن الجبائي شيخ الاعتزال في ذلك الوقت كان ينييه عنه في كثير من مواقف الجدل والمناظرة مع الخصوم.

وكان الجبائي يعد أبا الحسن الأشعري ليكون خليفته على المعتزلة، وليكون قائداً لمسيرته، لكن الله تعالى كان قد قدر لأبي الحسن الأشعري شأنًا آخر، وإذا قدر الله شيئاً يسر له أسبابه. قدر الله سبحانه لأبي الحسن الأشعري أن يخرج من بطون المعتزلة وقد كشف خباياهم، وعرف مثالهم، واطلع على كافة أحوالهم؛ ليكون حرباً عليهم وينفس أسلحتهم التي طالما دربوه عليها، وعلموه إياها.

لقد أحس الأشعري نفوراً شديداً من المعتزلة في الجانبين اللذين انتقدناهما فيهما، نعني: من جانب مبادئ الاعتزال، ثم من جانب سلوك المعتزلة مع خصومهم، وبخاصة مع العلماء من أهل السنة والسلف. وقد ظل الأشعري زمناً ليس بالقصير وهو يراجع مبادئ المعتزلة ويوازن ويقارن، ثم وهو يستهدي الله تعالى حيث لم يكن الأمر سهلاً على أبي الحسن، وقد كان المعتزلة في أوج سلطتهم وتسلطهم.

نقول: ظل أبو الحسن الأشعري على ذلك وقتاً، فلما وصل إلى العقيدة التي ارتضاها لنفسه في ذلك الوقت، عزّم على إعلانها على الناس، فخرج على الناس في يوم جمعة وارتقى المنبر بالمسجد الجامع بمدينة البصرة ثم خطب الناس، فقال: أيها الناس، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا علي بن إسماعيل الأشعري، كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله تعالى لا يرى بالأبصار، وأن أفعال الشر أنا فاعلها، وإنني تائبٌ من ذلك، مقلعٌ عن هذا، متصدٌّ للرد على المعتزلة، مخرجٌ لفضائحهم.

هكذا بدأ الأشعري مسيرته ضدًّا، وبعد أن ألقى خطبته على الناس أكمل كلامه، فبين في خطبته ما كان يعتقد على مذاهب الاعتزال وما آل إليه أمره بعد أن خرج عن الاعتزال.

وفي هذه الخطبة ذكر مذهبه الذي اطمأن إليه بعد أن كفر بعقيدة الاعتزال، لقد ودّع أبو الحسن الأشعري عقيدة المعتزلة وآراء الاعتزال، لكنه كان في حقيقة الأمر ما يزال متأثراً بمذهب الاعتزال على نقيض مع عليه المذهب، أعني: أنه قد كان يعيش ردود الأفعال بالنسبة لعقائد المعتزلة، لذلك خرج الشيخ أبو الحسن بعقيدته الأشعرية التي جاء بها عقب تركه الاعتزال، وقد التفت بالاعتزال من جانب وعارض الاعتزال من جانب آخر.

أما معارضته الاعتزال كرد فعل فقد اتضح في موقفه من أفعال العباد، فإن المعتزلة ذهبوا مذهب القدرية الذي يذكر أن الله تعالى لا صلة له بأفعال العباد، فجاء الأشعري بمذهب في أفعال العباد أقرب إلى الجبر، وجاء بشيء اسمه الكسب، لم يفهمه أحد حتى الأشاعرة أنفسهم، وظل مذهبه قريباً من الجبرية، وأما التياثه بكفر المعتزلة فاتضح في أمور كثيرة من عقائد مذهبهم الجديد، مثل: تأويله الكثير من الصفات الخيرية.

وسوف نبين ذلك في نقدنا مذهب الأشاعرة فيما يليه - بحوله تعالى.

لكن دعونا ننسب المذهب عند نقدنا إياه إلى مَنْ نسميهم الأشاعرة وليس إلى الأشعري بأمر هام نعرفه بعد ذلك - بحوله تعالى.

وأهم نقودنا لمذهب الأشاعرة ما يلي:

**أولاً:** أنهم يد واحدة ينفون الجهة والفوقية لله تعالى، ويتأولون النصوص الواردة في ذلك ألواناً من التأويل، زاعمين أن إثبات الجهة والفوقية تعني أنه تعالى جسم يشبه الأجسام، وأنه محصور في جهة، وأن هذه - في زعمهم - أسباب للنقص - تعالى الله عن ذلك!.

**ثانياً:** أنهم حصروا الصفات العلا في سبع صفات معروفة عندهم، وتركوا ما عداها، زاعمين أن جميع ما عداها من صفات محصورة فيها وراجعة إليها، يضاف إلى ذلك أن هذه السبعة في زعمهم هي التي يقوم الدليل العقلي على إثباتها، وكأن الصفات الأخرى يقوم الدليل العقلي على بطلانها - عياداً بالله.

**ثالثاً:** أن الإيمان عندهم هو التصديق قلباً ولساناً، وأن العمل مكمل للإيمان ومصداق له وليس من الإيمان.

**رابعاً:** أن موقفهم من الصفات الخبرية يتمثل في طائفتين أو موقفين مؤولة ومفوضة، وكلاهما على خطأ.

**أما الطائفة الأولى:** المؤولة فاتبعت المعتزلة، وتأولت الصفات الخبرية كاليد والاستواء والوجه، وهو تأويل باطل.

**أما الطائفة الثانية:** المفوضة فلم تتأول، وفوضت في المعنى، زاعمين أن هذه الصفات من المتشابهات، وأن الآيات التي وردت بهذه الصفات هي آيات متشابهات، وذلك التفويض عند الأشاعرة مخالف للتفويض السلفي الذي يؤمن بالمعنى ولكن يفوض في الكيف، وذلك واضح من كلمة الإمام مالك - رحمه الله - حيث قال لمن سأله عن الاستواء، قال: الاستواء معلوم والكيف مجهول.

**خامساً:** قد تأثر أبو الحسن الأشعري - رحمه الله - بابن كلاب، محمد بن كلاب، تأثر به الإمام الأشعري في كلامه عن القرآن المجيد، حيث اخترع ابن كلاب فريّة الكلام النفسي، ومعناه: أنه اعتقد أن معاني القرآن قديمة، أما الألفاظ والحروف فحادثة مخلوقة.

هذه أهم النقاط التي تُوجه إلى علم الكلام على عقيدة الأشاعرة، ويبقى كلام على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لشيخ الأشاعرة الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - رحمه الله.

فهذا الإمام قد مر بمراحل عقديّة ثلاث:

**المرحلة الأولى:** كان على الاعتزال، وكان مقدماً في المذهب، متحدّثاً باسمه، منظرًا ومقعداً لمبادئه.

**المرحلة الثانية:** حين انتقد على الاعتزال، وكون مذهباً جديداً تابعه عليه جماهير الأمة المسلمة تابعوا الأشعري حينما انتقد على الاعتزال، لكن القليلون من هؤلاء الجماهير هم الذين اتبعوه؛ رغبةً في مذهبه، وأما الأكثرون فتابعوه وقتذاك كراهيةً ومقتاً للاعتزال والمعتزلة.

**المرحلة الثالثة - وهي الأهم -:** في أخريات حياته رجع الإمام عن مذهبه المسمى بالأشعرية أو الأشاعرة، والذي كانت جماهير الأمة قد تابعته عليه، وكما ذكرنا لم يكن جميع أتباعه قد فهموا حقيقة المذهب بنصومه أو لوازمه، بل تابعوه مقتاً للمعتزلة وسلوكهم مع علماء الأمة من جانب، وفرحاً وسعادةً لخروج الأشعري مع شهرته التي كانت قد ذاعت وانتشرت، خرج من بطون المعتزلة، وهذه في حد ذاتها دليل يطمئن هؤلاء الذين كانوا يقفون على الحياد، وربما كان بعضهم قد أحسن الظن بالاعتزال، أو لم يفصلوا في قضيتهم بعد، هذه وحدها، أعني: خروج الأشعري على المعتزلة حسمت الموضوع عند الكثيرين.

ونستطيع أن نتخيل - ونحن على هذا البعد - تلك الفرحة الغامرة التي غزت قلوب الناس وبخاصة العامة، الذين رأوا أخيراً على أرض الواقع ما كانوا يتمنونونه في عالم الخيال من ضربة تقصم ظهور المعتزلة، الذين قرّ في أذهان الجماهير من

شدة تسلطهم وقوة سلطانهم وطول زمانهم ، أنهم باقون إلى الأبد ، وأن أحداً أو شيئاً لن يزعزع مكانتهم ، وأن عقائدهم الباطلة أضحت ضربة لازب على أمة المسلمين.

وطبّعي أن يكون أبو الحسن الأشعري قد طرب بنجاح دعوته التي أراد بها ضرب الاعتزال والقضاء على جانبي الانحراف والضلال فيه ، نعني : ضلال المعتقد ثم انحراف وفساد السلوك مع علماء الأمة.

لكن الأشعري بعد أن هدأت المعركة بينه وبين الاعتزال ، أخذ يراجع نفسه ويعيد النظر في عقيدته التي جاء بها ودعا الناس إليها ، ثم أخذ يزن هذه العقيدة بما عليه سلف الأمة وبخاصة إمام زمانه أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وعندما اتضح له الفارق في أمور كثيرة ، رجع إلى عقيدة أهل السنة والسلف ، تاركاً ما كان عليه مما يخالف عقيدتهم ، وحتى يبين حقيقة عقيدته دون تفصيل ، ويبينها فضل بيان وبدون تفصيل يفتح الباب للأخذ والرد ، ذكر الإمام الأشعري - رحمه الله - أنه التزم عقيدة الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله .

انتهت بذلك رحلة الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري.

### تعليقات على رحلة الشيخ الأشعري :

**أولاً:** أن الأشعري - رحمه الله - وضع عقيدته الأولى متأثراً بكرهه عقيدة الاعتزال ، ساعياً إلى إبطالها ، وقد حقق ذلك على نطاق واسع لم يكن يلزم به ، لكن عقيدته الأولى لم تكن صحيحة تماماً ، بل كانت عليها المآخذ التي ذكرناها ، وقد دعا الأشعري أتباعه قبل موته إلى اتباع مذهبه الجديد ، سالماً ما يمكن أن يسلك لتحقيق ذلك ، لكن أتباع مذهبه الأول كانوا قد ألفوا المذهب ودرّبوا

عليه ، ورأوا أنهم قد وقفوا به في وجه الاعتزال وانتصروا على المعتزلة ، فكان في هذا وحده ترضية كبيرة لهم ، وقد رأوا أن عقيدتهم عارضت عقيدة المعتزلة ، وظنوا أن الذي يعارض الباطل لا بد أن يكون حقاً. وقد وهموا ، فإن الباطل قد يعارضه باطل أشد منه بطلائاً وأكثر فساداً ، وليس أدل على ذلك من كثرة المذاهب الفاسدة ، وكلها باطلة ، وكلها يعارض بعضها بعضاً.

**ثانياً:** أن الإمام الأشعري قد التزم عقيدة السلف حتى لقي الله تعالى عليها غير عابئ بهؤلاء المخالفين الشاغلين على عقيدتهم الجديدة ، أي : عقيدة السلف - رضوان الله تعالى عليهم.

**ثالثاً:** أن الإمام ابن تيمية - رحمه الله - قد كان له رأي في المذهب الأشعري الذي نقدناه الآن ، ليس المذهب الذي مات عليه الأشعري وإنما المذهب القديم. كان الإمام ابن تيمية يفضل مذهب الأشاعرة الموجود الآن على غيره من المذاهب ، وكان يقول : إن مذهب الأشاعرة أقرب المذاهب إلى عقيدة السلف ، بل قال : إنه هو - أي : مذهب الأشاعرة - يعتبر مذهب السلف في البلد الذي ليس به سلف ، يقصد بذلك مصر التي لم يكن بها عقيدة السلف ، بل هي تدين بالأشعرية القديمة ؛ فليس ذلك ثناءً على المذهب الأشعري بإطلاق ، بل مقارنة بالمذاهب الكلامية الأخرى.



## حركة الترجمة عند المسلمين، ومراحل الفلسفة الغربية

### عناصر الدرس

العنصر الأول : ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية وآثارها ١١٣

العنصر الثاني : أدوار ومراحل الفلسفة الغربية ١١٩



#### ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية وأثرها

فأنتم تعرفون بالضرورة أننا درسنا مقدمات عديدة عن الفلسفة أو الفكر الفلسفي، وعن شرائطه أو عن شروط تحققه، ثم عرجنا على الفلسفة عند العرب، ونظرنا في أحوالهم قبل البعثة النبوية الشريفة، ورأينا أنهم لم يكونوا مؤهلين حياتياً ومعاشياً للتفكير الفلسفي، ليس بمقتضى طبيعتهم وجبلتهم كجنس عربي كما يدعي الجاحظ والبلازري و"رينار" وغيرهم، ولكن لأن ظروف العرب البيئية والحياتية لم تكن مواءمة ولا ملائمة للتفكير الفلسفي الذي يتطلب بالضرورة حياة مستقرة، ومعيشة آمنة مطمئنة، وفراغاً من هموم الحياة المادية، ثم يتطلب -إضافةً إلى ذلك- خلفية ثقافية معينة، يستطيع العربي أن ينطلق من هذه الخلفية إلى آفاق الفكر الفلسفي العليا.

وقد بينا أن العربي قبل الإسلام كان غارقاً في هموم حياته المادية، كان أمياً، خالياً من كل ثقافة إلا ثقافة الشعر وما يتصل به. وبالجملة كان على حالٍ تبعد به عن الفلسفة والتفلسف، ثم جاء الإسلام فاشتغل المسلمون بنشر دعوة الله - تبارك وتعالى - إلى الأمم الأخرى، واشتغلوا بتبليغ دين الله إلى العالم الموصول بهم في ذلكم الزمان، فلما وصلوا بالدعوة إلى الله ﷻ إلى نهاية العالم المعمور بالنسبة إليهم في ذلكم الزمان، وفتحوا فارس والروم وما يتبعهما من ولايات تستند على أمم وشعوب كثيرة، كمصر التي كانت ولاية رومانية، بعد أن فعلوا ذلك استراحوا هوناً ما، وانفتحت عليهم الدنيا بحذافيرها - على المسلمين عرباً وغير عرب - فاشتغل المسلمون وما تبعهم من ولايات وإمارات مسلمة أيضاً اشتغلوا جميعاً بنوعين من العلوم، واجتهدوا في التواصل مع نوعين من المعارف:

**النوع الأول:** العلوم الشرعية بطبيعة الحال من تفسير لكتاب الله تعالى، وجمع وشروح لأحاديث وسنة النبي ﷺ واجتهاد في استخراج الأحكام الشرعية من المصدرين الشريفين.

**النوع الثاني:** العلوم العملية، من رياضيات وكيمياء وغيرها، وكان في ذلك خير كثير للمسلمين وغيرهم، بل إن النوع الثاني من العلوم كان فاتحة خير على الغرب كله، حيث اقتبس الغربيون علوم العرب ومعارفهم، واتخذوا منها زوارق نجاة، أنقذتهم من بحور الظلمات ومن محيطات الجهل التي كانوا غارقين فيها، وكانت تلك العلوم والمعارف التي أخذها الغربيون من العرب هي نواة المدارس والجامعات التي أنشئوها.

ومن الأمور المسلمة التي لا يجادل فيها أحد أن عددًا من الجامعات العربية - أقول: العربية - أنشأها علماء إيطاليا في بلادهم، ثم اقتدى بهم كثيرون في ألمانيا وغيرها؛ لتعليم أولادهم لغة العرب وعلومهم في ذلك الزمان، وهذا قليل من كثير.

ولكن رغم أنه ليس موضوعنا فقد مسسناه مسًا خفيفًا بمناسبة أننا نتكلم عن نقل علوم الغرب إلينا، وهي مناسبة تجعل من السهل واليسير مقارنة ما أخذوه عنا، ثم ما أخذناه ونأخذه حتى الآن وحتى غدًا عنهم، حيث نقلوا عنا كل مفيد ونائب، ونقلوا عنا الأساس الصحيح الذي أقاموا عليه حضاراتهم النافعة في ذلك الزمن الذي امتد إلى عهد قريب.

قد يظن البعض عندما نتكلم بهذا أو نسير إلى هذا نقول: هذا زمان ولي وانقضى منذ قرون طويلة، الحقيقة ليس الأمر كذلك، منذ أقل من قرن من الزمان كانت صورة الرازي مرسومة على أبواب مداخل بعض الجامعات الأوربية وبخاصة

إسبانيا، يعني: حتى عهد قريب كان الغرب يتعلم ويعيش عالمةً على علومنا النافعة منذ زمن بعيد، نسيناها نحن وذكرها هم تركناها نحن وانتفعوا بها هم، بينما إذا نظرنا إلى هذا الذي نقلوه عنا وانتفعوا به، ماذا عما نقلناه نحن عنهم ونقله وما زلنا؟

ما نقلناه عنهم كان سمًّا زُعافًا من بداياته الأولى قبل اثني عشر قرنًا ونصف القرن من الزمان، وحتى أيامنا هذه.

ومعذرةً عن هذه الانعطافة عن موضوعنا، لكنها ضرورية في مجالها نضعها نصب أعيننا؛ إذ أن كثيرين من أبنائنا وبناتنا عندما نتكلم عن علوم الغرب وعن فلسفاته التي نُقلت إلينا، وما تزال، يأخذهم ما يشبه عقدة النقص، أو ما يشبه الشعور بالصغار بالنسبة للغرب، وذلك في الحقيقة نقدٌ لِمَا يجب أن يكون وقلب للأوضاع، إذا دُكرنا نحن وذكر الغرب؛ وجب علينا أن نعرف مَنْ نحن؟ والدين الذي نحن عليه؟ ونعرف أن الخطأ والخطر الذي نعيشه إنما نسأل الله تعالى أن يرفعه عنا، ونعود إلى ما كنا عليه أيام أجدادنا الفاتحين.

عندما فرغ المسلمون هونًا ما من الفتوحات واستراحوا بدأت حركة الترجمة، وحينما نتكلم عن حركة الترجمة ندرك مباشرةً أنه قد فُتح على المسلمين بها شر كبير وبلاء مستطير، كانت منتديات العلوم وأماكن الظروف في ذلكم الزمان تقوم على كتاب الله تعالى تلاوةً ومعرفةً لأحكامه، وتقوم على سنة رسول الله ﷺ، وكانت تدرس علوم التفسير والحديث، وتقوم القواعد، هذه المجالس، هذه المنتديات، تقوم جميعها على توحيد الله وذكر آلائه، وإذا فلسفة اليونان ووثنياتها وضلالاتها تبدأ خطاها في المجتمعات المسلمة على استحياء، ثم تتبجح وتتوقح، وترشد لكثير من المذاهب الكلامية. يعني: أن كثيرًا من المذاهب

الكلامية أخذت روافدها من الفلسفات اليونانية المترجمة، إما لأفكارها وآرائها، وإما للتدليس على هذه الأفكار وبخاصة المعتزلة، وبنياتها من المذاهب الكلامية تسير في نفس اتجاهها، وعلى خطاها.

اتخذت هذه من الفلسفة اليونانية روافد لا أقول لعقائدها - عياداً بالله - ولكن بالاستدلال على تلك العقائد الإسلامية بالفلسفة اليونانية، ثم وبالتدرج يتحول الجدل وموضوعاته إلى موضوعات فلسفية لا تكاد تكون لها صلة بالإسلام، ثم وبالتدرج أيضاً ينتقل فريق من المسلمين الذين كانوا يشتغلون بعلم الكلام - الموسوم بالإسلامي يقال: "علم الكلام الإسلامي" - إلى الاشتغال بالفلسفة اليونانية المترجمة إلى العربية؛ لذلك لم يكن غريباً أن يكون أول الفلاسفة العرب رجل من علماء الكلام، كان الكندي - كما عرفنا، وتكلمنا قبلاً - من علماء الكلام على مذهب الاعتزال، ذلكم هو أبو يوسف يعقوب الكندي، ثم انتقل إلى الاشتغال بالفلسفة اليونانية المترجمة.

من الأمور ذات المغزى أن اشتغال الكندي بعلم الكلام قد نفع الكندي نفعاً عظيماً؛ حيث عصمه عن الوقوع فريسةً للفلسفة اليونانية الوثنية، فلم يُفتن بها شأن غيره من الفلاسفة الآخرين في المشرق أو في المغرب على السواء، إذ أنهم جميعاً - جميع الفلاسفة سوى الكندي - افتتنوا جميعاً بالفلسفة اليونانية حتى استبدلوها بدين الله الإسلام، فنبذوا دين الله تعالى، واتخذوا الفلسفة اليونانية ديناً، كلهم على هذا، أو كلهم في هذا سواء، الفارابي وابن سينا في المشرق وابن رشد وابن باجة وابن طفيل وغيرهم في المغرب، لم ينجوا من ذلك الشرك إلا الكندي الذي عصمه الله تعالى بعلم الكلام الذي هو في ذاته - أقصد علم الكلام - مشكلاً ولا نرضى عنه، لكنه إذا قورن بالفلسفة فقد كان منقذاً للكندي

الذي كان متكلمًا، ثم كفرَ بالفلسفة اليونانية منذ اشتغاله بها، ثم نقد مذاهب "أرسطو" وعارضها، بل أقام الأدلة على بطلان آراء "أرسطو" في كل ما ذهب إليه من آراء وعقائد كفرية اعتنقها الفلاسفة الآخرون.

وقاعدة ألفت إليها النظر أن من عجيب ما نرى عند المؤرخين للفلسفة أن بعضهم يطعن في الكندي، ويقول: بأنه ليس فيلسوفًا بل هو نصف فيلسوف؛ لماذا؟ لأنه لم يُفتن بفلسفة "أرسطو" ومن معه، ولم يؤمن بها، ولم يدافع عنها؛ بل كفر بها وعارضها، وبدلاً من أن تحسب هذه ميزة وفضيلة للكندي حُسبت ضده نقيصة ورذيلة عند مؤرخي الفلسفة، وبعضهم مسلمون وبعضهم في مرتبات عليا، مع ملاحظة أن ما هو نقيصة عند الفلاسفة أو مؤرخيهم يُعتبر عندنا نحن فضيلة ومكرمة.

فالدكتور عبد الحليم محمود على سبيل المثال عندما وصم الكندي بأنه نصف فيلسوف، كان يقصد الإساءة إلى الكندي والانتقاص من مكانته، بينما واقع الأمر عندنا وعند المسلمين جميعاً أن هذه مكرمة وفضيلة، ووصف سرُّ ووشم نقيصة أزيح عن الكندي ورفع عنه، وقد سبق عند حديثنا عن الكندي أنه من الفلاسفة الذين دخلوا إلى الفلسفة مسلماً وخرج منها بفضل الله مسلماً - نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله سبحانه.

إلى هنا بعد ترجمة الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية، بدأت الفلسفة اليونانية تخطوا خطواتها الواسعة الواثقة في مجتمعنا المسلم وبيئاتنا الإيمانية، ثم انتقلت مسيرة الفلسفة في مجتمعنا المسلم، مع ملاحظة أن مسيرة الفلسفة اليونانية - وهذه هي القاعدة التي لفت إليها أنظاركم - أو الفلسفة بصورة عامة في المجتمع المسلم لم تقم أبداً على عاتق مسلم صحيح الإسلام، ولا مؤمن صادق الإيمان.

ولنضرب مثلاً بالفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام في المشرق الإسلامي، فقد قامت الفلسفة في المشرق الإسلامي على عواتق ثلاثة من الفلاسفة، هم الأشهر في المشرق، بل وفي المغرب على على سواء، وهم الذين قعدوا للفلسفة اليونانية ونظروا لها، وهم الكندي والفارابي وابن سينا.

أما الكندي فهو مسلم، وعصمه إسلامه من الوقوع في شرك الفلسفة اليونانية الوثنية، قلنا هذا، وقلنا: إن عقائد المعتزلة التي كان عليها الكندي متكلماً قبل أن يدخل إلى الفلسفة مهما كان فيها من زيغ ومن زيف وفساد، فهي خير ألف مرة من فلسفة اليونان.

أما الفارابي - وهو ثاني الفلاسفة الثلاثة - فكان على دين الإسماعيلية الباطنية المجوسية، وهي ديانة ظاهرها الإسلام وباطنها كفر بواح، وشرك صراح، لذلك كان سهلاً على الفارابي أن يعتنق وثنية "أرسطو" ويقول بأرائه، ويمشي على خطواته حتى لقب بـ "المعلم الثاني" حيث إن "أرسطو" لقب عند الفلاسفة بـ "المعلم الأول".

وأما ابن سينا فكان من إخوان الصفا: وهي جمعية وثنية مجوسية باطنية سرية، تؤله الأفلاك، وتتبنى فلسفة يونان، وتدين بما قال به "أرسطو" و"أفلاطون" إلى آخر هذا الظلام، وقد ورث عنهم هذا الضلال الفيلسوف ابن رشد ومن تابعه أو سبقه من فلاسفة المغرب.

وهكذا يتضح أن الإسلام الحق يعصم أصحابه من الولوج في ضلالات الفلسفة يونانية أو غير يونانية. وهذه الملاحظة ذكرناها قبلاً، وننبه إليها لنعرف يقيناً أن دين الله الحق إذا تمكّن من القلوب عصمها من الوقوع في الضلالات، ونقاها من الكفريات، وحال بينها وبين جميع الضلالات والأمور، ولكن العصمة من هذه الضلالات لا تحقق إلا بأمور ثلاث:



## نقد الفلسفة الغربية

### الدروس الثامن

**أولاً:** توفيق الله تعالى وهدايته للعبد، وذلك يأتي بحب الله وَعَجَّلَ وحسن التوجه إليه والرغبة فيه.

**ثانياً:** الإيمان الصحيح والاعتقاد الحق، والبعد عن البدع والضلالات، التي تشيع في كثير من مجتمعات المسلمين.

**ثالثاً:** أن نحرص على أن نغذي إيماننا الحق واعتقادنا الصحيح بالإكثار على قدر الطاقة من النوافل صلاةً وصياماً وأذكراً شرعيةً دون تكلف أو تعنت، وألا نترك أنفسنا هدفاً لتلك الأوبئة التي تصيب المؤمنين، وتتسرب إلى عقائدهم، وتدب إلى دينهم أخفى من ديب النمل.

### أدوار ومراحل الفلسفة الغربية

هنالك ملاحظات ومقدمات ينبغي علينا أن ننتبه إليها، وأن نعيها جيداً؛ لأننا نحتاج إليها بدءاً من الحديث عن الفلسفة اليونانية حتى الفلسفة المعاصرة، مروراً بما بين الفلسفتين من أدوار كثيرة ومراحل عديدة.

**أولاً:** أن الفلسفة الغربية تقوم على أدوار ومراحل، فهي ليست دوراً واحداً ولا مرحلة معينة، بل لها مراحل وأدوار مرت بها:

**الدور الأول:** الفلسفة اليونانية - ونحن قلنا: إن أول أو رأس الفلسفة الغربية هي الفلسفة اليونانية، فطبعي أن يكون موقعها في الدور الأول أو المرحلة الأولى - هي رأس الفلسفة الغربية، ونحن الذين نقول: إنها رأس الفلسفة الغربي. أما مؤرخو الفلسفة الغربيون ومن صار على طريقتهم من المؤرخين الشرقيين، فلا يقولون: إن الفلسفة اليونانية رأس الفلسفة الغربية، بل يقولون: إن الفلسفة

اليونانية هي رأس الفلسفة بإطلاق، حيث يزعمون أنه قبل الفلسفة اليونانية لم يكن هناك فلسفة في أي مكان من العالم، ولم يكن العالم كله قد عرف الفلسفة بعد، ولم يعرفها إلا عند اليونان.

وكنا قد بينا أن الفكر الفلسفي أو الفلسفة قد ظهرت في واقع الأمر في بقاع كثيرة قبل ظهورها في اليونان ببضعة آلاف من السنين، فقد كانت الفلسفة مزدهرة في مصر عند الفراعنة والكهنة في شتى أنواع المعارف، وبخاصة في الطب والكيمياء والأحياء والفلك، ثم في الهندسة، هذا التقدم في العلوم الذي جعل الغربيين والشرقيين على السواء يحارون في علوم المصريين القدماء وفلسفاتهم، التي أنتجت نظريات في الطب، وأنتجت أبنية في الهندسة أعجزت العالم - حتى اليوم - عن معرفة كيف بناها المصريون القدماء؟ أو كيف قاموا بعملية التحنيط التي احتفظت بأجساد الموتى آلاف السنين؟

كذلك ظهرت الفلسفة في الهند والصين والعراق أو في أرض الجزيرة، وأماكن أخرى من العالم الشرقي، وقد كان ذلك - كما يعرف الغربيون ويقرون - قبل الميلاد بألاف السنين، وقبل أن تظهر الفلسفة في اليونان بثلاثة آلاف عام.

لكن الغربيين وضعوا للفلسفة ميزاناً وشروطاً تعمدوا ألا تنطبق هذه الشروط إلا على الفكر اليوناني فقط، وبذلك أخرجوا الفكر الشرقي في الصين والهند ومصر والعراق وغيرها من الفلسفة، وجعلوه فكراً عادياً هابطاً حتى تكون الفلسفة قد بدأت بالفكر اليوناني الذي لم يتعد القرن السابع قبل الميلاد؛ وذلك لأن اليونان هم أجداد الأمم الغربية، ومن ثم أرادوا أن يحتفظوا بشرف بداية الفلسفة ونشأتها لأجداهم اليونان، فيقال: إن اليونان هم الذين أنشئوا الفكر الفلسفي، ويقال: إن الفلسفة نشأت أول ما نشأت في الغرب عند اليونان.

وسوف نعرف فيما يلي أن فلسفاتهم من بداياتها لدى اليونان وحتى نهايتها في وقتنا المعاصر هي فلسفات بدأت وثنية، ثم انتهت في الفلسفة المعاصرة فلسفة إلحادية حتى النخاع، ومن ثم فنحن نقول لهم: إذا أرادوا أن يستقلوا بشرف انتساب الفلسفة إليهم، فليذهبوا بها، وليس لدينا ما نقول لهم إلا ما قال الشاعر العربي:

إذا ذهب الحمار بأمر عمرو ❖ فلا رجعت ولا رجح الحمار  
**الدور الثاني:** من أدوار الفلسفة الغربية هو الفلسفة الوسيطة، أقصد فلسفة العصور الوسطى المظلمة، والفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسيطة الأوروبية أو الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط، هذه ثلاثة أسماء أو ثلاثة عناوين لمضمون واحد، هي الفلسفة التي جاءت عقب الفلسفة اليونانية. نبه ثانية: الدور الثاني من أدوار الفلسفة الغربية هو الدور الذي جاء بعد انتهاء الفلسفة اليونانية.

ونتساءل: لماذا التنبه والتكرار لهذه العبارة؟

لأن هناك خلافاً بين مؤرخي الفلسفة الغربية حول هذه الفلسفة - أعني: الفلسفة الوسيطة - حول أمور كثيرة تتصل بها، والذي يهمنا هنا هو التأريخ للفترة التي شغلتها الفلسفة الوسيطة ابتداءً وانتهاءً، ودون دخول في التفاصيل التي تُثار في مثل هذه الموضوعات، فإننا دون دخول في تفاصيل كثيرة نقرر أن الفلسفة اليونانية قد انتهت أو أوشكت قبل الميلاد بقرن ونصف القرن تقريباً، فدور الفلسفة اليونانية بدأ من أواسط القرن السابع قبل الميلاد وانتهى قبل الميلاد أيضاً بقرن ونصف القرن تقريباً.

هذه هي حدود الدور الأول من الفلسفة الغربية.

الدور الثاني والذي نحن بصدد الآن نذكر أن فلسفة العصور الوسطى قد بدأت حول منتصف القرن الرابع الميلادي ، وهنا يكون لدينا زمان بين انتهاء الفلسفة اليونانية - أعني : انتهاء دورها وابتداء الدور التالي لها - التي انتهت قبل الميلاد بقرن ونصف ، ثم ابتداء الفلسفة الوسطى التي بدأت في منتصف القرن الرابع الميلادي. هنا يكون لدينا هذا الزمان وهذه الفترة التي تفصل بين الدورين ، نعتبرها نحن جسراً بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الوسيطة ، وهذه الفترة الزمنية التي نسميها جسراً أو صلةً بين الفلسفة اليونانية والفلسفة الوسيطة لم يعتبرها المؤرخون للفلسفة الغربية دوراً من أدوار الفلسفة ، أو مرحلةً من مراحلها مستقلة عن الدور السابق والأدوار اللاحقة.

هذه إجابة على سؤال أو استفسار قد يرد عند بعضكم ، إذا كانت الفلسفة اليونانية انتهت قبل الميلاد بقرن ونصف ، والفلسفة الوسيطة بدأت بعد الميلاد في القرن في منتصف القرن الرابع يعني ٣٥٠ تقريباً. فلماذا لم يعتبر مؤرخو الفلسفة هذه الحقبة ، أو هذه القرون دوراً قائماً بذاته؟

نقول : لم يعتبرها المؤرخون للفلسفة الغربية دوراً من أدوار الفلسفة أو مرحلةً من مراحلها مستقلة عن الدور السابق والأدوار اللاحقة ؛ لأن هذه الفترة لا تتميز بشيء معين من الفكر ، بل هي خالية من المميزات والخصائص والسمات الفكرية أو الفلسفية التي تجعلها دوراً قائماً بذاته ، فإن كل دور من أدوار الفلسفة له خصائصه ، وله سماته ، وهذه الفترة لم ينتج فيها فلسفة متميزة ، ولا فكر خاص ، لذلك جعلوها فاصلاً بين دورين أو جسراً بينهما ، مع مراعاة أن وصف الجسر لهذه الفترة أدق من حيث إن الفلاسفة الذين وُجدوا إبان هذه الفترة لم تكن لهم أفكار أو مذاهب مميزة ، وإنما كانوا في جملتهم نقلة للفلسفة من اليونانية إلى اللاتينية.

ولعله كان من الإنصاف أن تُضم هذه الفترة الزمنية إلى الدور السابق - أعني : دور الفلسفة اليونانية - من حيث إنه امتداد لها دون اختلاف أو تجديد يُذكر.

لكن ثمة اعتبارات جعلت المؤرخين للفلسفة اليونانية يقفون بها حيث وقفوا حتى لا يحتسب منها كثير من الفلاسفة الحاملين ، وكذلك حتى لا تحتسب تلك الفترة الحاملة من الفلسفة اليونانية. أما الفلسفة الوسيطة فنحن نُؤرخ لبداياها بفلسفة "أوغستين" أشهر فلاسفة تلك المرحلة ، أو أشهر فلاسفة ذلك الدور من أدوار الفلسفة الغربية الوسيطة.

وسنبين عند حديثنا عن هذه المرحلة أو الدور أشهر فلاسفتها مثل "أوغستين" و"يوحنا اسكوت رجيناً" وغيرهما ، وكذلك سنشير إلى أشهر فلاسفة المرحلة التي اعتبرناها جسراً بين اليونانية والوسيطة بحوله رحمته.

**الدور الثالث :** فلسفة عصر النهضة أو عصر النهضة كما يطلق عليه اختصاراً ، ويُراد به عصر النهضة في الفلسفة.

وفلسفة عصر النهضة يبدأ تاريخها مع بداية القرن الرابع عشر الميلادي ، ويتضح من إطلاق اسمها أمران :

**الأمر الأول :** أن الفلسفة قبلها كانت على حالة من الانحطاط والتردي ، وكانت الأفكار والمذاهب على وَضْعٍ من التخلف ، جعلت العصر الذي يليه يسمى عصر النهضة ، وليس هذا الرأي في العصر الوسيط بغريب ولا خافٍ ، فإن جمهرة المؤلفين للفلسفة قد نصوا على أن العصر الوسيط كان عصر جهل وظلام ، يجب أن نتخطاه بسرعة ؛ كي نصل إلى عصر النهضة الحديثة في الفلسفة الذي يسمونه أحياناً عصر النور والعرفان ، أو عصر التنوير.

**الأمر الثاني:** أن عصر النهضة كان بداية انتفاع لظلمات العصر الوسيط الذي أطلق عليه الغربيون أنفسهم اسم العصور الوسطى المظلمة، ولذلك أسباب كثيرة منها: ضعف الإقطاع هوناً ما، وكذلك ضعف هيبة الكنيسة ورجالها، وكذلك اجترأ الناس على الكنيسة وعلى رجالها، ثم شيوع الأفكار المناوئة للكنيسة، بل للدين النصراني جملةً، وشيوع الانحلال... إلى آخر هذه العوامل التي ساهمت في نشر الوعي والعلم بين الناس، مما عجل بانقضاء العصور الوسطى المظلمة وإتيان ما سموه عصر النهضة.

وهذا الدور - الذي هو عصر النهضة - اصطلاح على تسميته كذلك - كما أشرنا قبلاً - عند كثيرين من المؤرخين بعصر التنوير، ولذلك أسميناها عصر النهضة أو عصر التنوير، أي: اسم نتخيره يكون صادقاً على هذا العصر تبعاً للمصطلح الذي اختاره مؤرخو الفلسفة.

وعصر النهضة أو عصر التنوير سُمي بذلك نظراً إلى عصر الظلام الذي كان سابقاً عليه وهو عصر الفلسفة الوسطى المظلمة، ومن جانب آخر سُمي هذا الدور أو هذا العصر أو هذه المرحلة بعصر التنوير أو عصر النهضة؛ لأن الجامعات والمدارس كانت قد بدأت تنتشر ويزداد عددها، وكان من أشهر هذه الجامعات التي أُنشئت في هذا العصر جامعة السربون الشهيرة التي أنشأها "روبير دي سربون" كاهن الملك لويس التاسع أنشأها سنة ثلاث وخمسين ومائتين وألف، فازدهرت تلك الجامعة، وازدهر بجوارها جامعات ومدارس أخرى، ثم ازدادت الترجمة من الكتب العربية إلى اللاتينية، وهكذا اشتهر هذا الدور باسمين عظيمين عصر النهضة أو عصر التنوير.

**الدور الرابع:** الفلسفة الحديثة، والفلسفة الحديثة هي واسطة العقد بين دورين هامين من أدوار الفلسفة، هما فلسفة النهضة، والفلسفة المعاصرة. سيكون بالترتيب فلسفة عصر النهضة ثم الفلسفة الحديثة، ثم الفلسفة المعاصرة.

وقد تجد تداخلاً بين الفلسفة في عصر النهضة والفلسفة الحديثة، وبخاصة في أواخر عصر النهضة أواخر القرن السادس عشر؛ حيث نشأت الفلسفة الحديثة. وفي الفلسفة الحديثة نجد صدى فلسفة عصر النهضة حيث تشيع المذاهب الإلحادية والفلسفات المادية التي ظلت تتبلور وتتضح حتى جاء عصر الفلسفة المعاصرة، فاتضح في فلسفته الإلحاد أوضح ما يكون.

**الدور الخامس:** الفلسفة المعاصرة: وفي هذا الدور تتحول كثير من الفلسفات من مذاهب نظرية إلى نُظُم سياسية تُطبق على أرض الواقع، من هذه الفلسفات "الشيوعية الماركسية" التي بدأت مذهباً نظرياً، ثم انتقلت إلى نظام سياسي طُبِق في روسيا في عام ١٩١٧، وكذلك هنالك "العلمانية أو العلمانية" وهي نظام الآن يُطبق بجزواته وجهالاته على العالم الغربي بكامله، وقد كان قبل ذلك مجرد مذهب نظري، لكن صار الآن يطبق على العالم الغربي كاملاً، ويطبق على كثير حتى من بعض البلاد التي تزعم أنها بلاد مسلمة.

### ملاحظات يجب التنبيه عليها:

أن هذه الأدوار -التي ذكرناها- بينها تداخل وتماص، وبخاصة عند نهايات الأدوار السابقة وبدايات الأدوار اللاحقة، ذلكم أن الفلسفات هي أفكار وآراء ونظريات، والأفكار والآراء والنظريات إنما هي أمور عقلية تشيع في عقول الكثيرين، وحين ينتشر مذهب من المذاهب الفلسفية، ثم بعد ذلك ينتشر،

ويأخذ به كثير من الناس ويدين به كثير من الناس ، أو يعارضه كثير من الناس ، ثم بعد ذلك يُهاجر إلى بلاد أخرى ، هذه وحدها تأخذ وقتاً طويلاً ، فالانتقال من دور إلى دور. يعني : الانتقال من الدور اليوناني إلى الدور الذي سميناه العصور الوسطى المظلمة اقتضى بضعة قرون ، والانتقال من العصور الوسطى المظلمة إلى عصر النهضة اقتضى وقتاً أيضاً ، لكن التداخل هنا كان تداخلاً واضحاً ؛ نتيجةً لضعف الفلسفة في العصور الوسطى ، ولقوة الفلسفة التي جاءت في عصر النهضة.

لكن هنالك تداخل لا يمكن أن نقول : إنه انتهى هذا العصر سنة كذا ، أو انتهى هذا الدور الفلسفي سنة كذا ، ثم بدأ الدور الثاني سنة كذا ، هذا محال ، هنالك بين انتهاء دور وابتداء دور مرحلة نسميها برزخاً بين الدورين ، قد يقتضي الأمر نصف قرن من الزمان ، أو قرناً من الزمان ينتهي فيه أثر هذا الدور من الفلسفة ، ويأتي أو يظهر أو يتضح مميزات وسمات العصر الجديد في الفلسفة.



## الفلسفة اليونانية وأشهر مدارسها

## عناصر الدرس

- العنصر الأول : التحريف بالفلسفة اليونانية، وبيان تأثيرها  
بالفلسفات الشرقية ١٢٩
- العنصر الثاني : أشهر مدارس الفلسفة اليونانية، وأشهر  
فلاسفتها، ونقد كل مدرسة ١٣١



#### التعريف بالفلسفة اليونانية، وبيان تأثيرها بالفلسفات الشرقية

##### الفلسفة اليونانية :

##### أولاً: تعريف الفلسفة اليونانية :

لها تعريفات كثيرة، لكن هذه التعريفات تنقسم -في نظرنا- إلى نوعين من التعريفات تبعاً للمعرفين أنفسهم، فهناك من تأثر بالفلسفة اليونانية، وأحسن الظن بها، وبأهلها، فجاء لها بتعريف أو تعريفات لا تعبر عن حقيقة هذه الفلسفة، وإنما تعبر عن وجهة نظره فيها، وذلك مثل الشهرستاني الذي كان يحسن الظن بالفلسفة اليونانية وأهلها، ومن ثم وضع لها تعريفاً كأنها وحي، وكأن فلاسفتها أنبياء أو أولياء.

فقال الشهرستاني: "الفلسفة اليونانية هي مَحبة الحكمة، والحكمة قولية وفعلية، أما الحكمة القولية: فهي: كل ما يعقله العاقل بالحد أو الرسم، وأما الحكمة الفعلية: فهي كل ما يفعله الحكيم بغاية كمالية". انتهى تعريف الشهرستاني.

وانظروا إلى هذه المنزلة الرفيعة التي يرفع إليها الشهرستاني الفلسفة اليونانية، فهي عنده كل ما يعقله العاقل، وهي عنده كل ما يفعله الحكيم بغاية كمالية... إلى آخر ما قال. لكن هنا نوع ثانٍ من مؤرخي الفلسفة يعرفون الفلسفة اليونانية ملتزمين حقيقة هذه الفلسفة، منطلقين من معرفتهم بفلاسفة اليونان وفلسفاتهم الذين كانوا بين ملاحظة طبيعيين وفلاسفة وثنيين، وسُفسطائيين، هكذا كان أقسام الفلاسفة اليونان.

لذلك عرّف هؤلاء الفلسفة اليونانية: بأنها فكر قديم يدور حول الطبيعة والأشياء يغلب عليها الطابع المادي، قام به مفكرون في الجزر اليونانية، ثم تطور

إلى مدارس مختلفة، وقد أثرت الفلسفة اليونانية في الفلسفات اللاحقة لها كما تأثرت هي بالفلسفات السابقة. هذا هو التعريف الذي نرتضيه أو الذي وضعناه نحن للفلسفة اليونانية.

وقد تطورت الفلسفة اليونانية إلى مدارس مختلفة، كل مدرسة لها طابعها الخاص الذي يختلف عن السابقة عليها، واللاحقة لها.

وأشهر المدارس الفلسفية اليونانية أربع مدارس، وهذه المدارس هي نفسها أدوار الفلسفة اليونانية، وهذه المدارس هي:

١. المدرسة الطبيعية وفلاسفتها الطبيعيون.

٢. المدرسة السفسطائية.

٣. المدرسة السقراطية نسبةً لرئيسها سقراط.

٤. المدرسة المتألهة، وفلاسفتها المتألهون.

**تأثر الفلسفة اليونانية بالفلسفات الشرقية:**

نجد هناك رأيين لمؤرخي الفلسفة:

**الرأي الأول:** يتعصب لليونان وللغربيين، فيدعي: أن الفلسفة اليونانية جاءت كلها إنشاءً وابتداعاً من اليونان دون تأثر ما بالفكر الشرقي، وهذا رأي متعصب - كما ذكرنا - وهو مناقض للحقيقة التي يقر بها الفلاسفة اليونان أنفسهم. لذلك ف هذا الرأي مرفوض، ولا وزن له.

**الرأي الثاني:** فيقرر أن الفكر اليوناني والفلسفة اليونانية قد استفادوا أمهات مذاهبهم عن الفكر الشرقي القديم، وبخاصة عن الفلسفة المصرية والفلسفة الهندية،

والفلاسفة اليونان أنفسهم يعترفون بالفضل في فلسفاتهم - إن كان في الفلسفة فضل - إلى الفلسفات الشرقية، وها هو مؤرخ الفلسفة اليوناني "ديوجين لا آرس" الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، يضع كتاباً عن الفلسفة يذكر فيه فلاسفة سوريين ومصريين بجانب ما ذكر من فلاسفة يونانيين، ويستعرض فلسفاتهم مع الفلاسفة اليونان. ومثل ذلك المؤرخ الشهير "هيرودوت" الذي عاش في القرن الخامس تقريباً قبل الميلاد، يرد الحضارة والفلسفة اليونانيتين إلى الحضارة المصرية.

وأوضح من هذا وذاك ما قرره "أفلاطون" نفسه الذي ذكر أن اليونان عيال على غيرهم من الشرقيين في الفلسفة، وكذلك "أرسطو" الذي يقرر أن علوم الرياضة وغيرها ظهرت أول ما ظهرت بمصر، ثم استفاد منها اليونان. وقد عرف أن "طاليس" أول الفلاسفة اليونان ومن بعده "فيثاغورث" قد نقلوا الفلسفة إلى اليونان من مصر. وهكذا يثبت أن الفلسفة اليونانية قد استفادت مذهبها وآراءها في إطار هذه المذاهب من الفلسفات الشرقية في مصر وفي الهند وغيرهم.

### أشهر مدارس الفلسفة اليونانية، وأشهر فلاسفتها، ونقد كل مدرسة

#### ثانياً: أشهر مدارس الفلسفة اليونانية:

للفلسفة اليونانية مدارس فلسفية كثيرة، يختلف المؤرخون لهذه الفلسفة حول مدارسها من جانب، وحول رجالها كل مدرسة من جانب آخر.

وأشهر مدارس الفلسفة اليونانية أربع مدارس

١. المدرسة الطبيعية: والمدرسة الطبيعية مدرستان متداخلتان، اشتهرتا لدى المؤرخين باسم المدرسة الطبيعية الأولى والمدرسة الطبيعية الثانية، لكن سندرسي آراء هاتين المدرستين متداخلةً جملةً واحدةً دون تفصيل كثير.

٢. المدرسة السفسطائية.

٣. المدرسة السقراطية.

٤. المدرسة المتألمة، وهي للأشهرين أفلاطون وأرسطو.

### أولاً: المدرسة الطبيعية:

وهي أول المدارس الفلسفية لدى اليونان، والفكر الفلسفي فيها هو باكورة الفكر الفلسفي لدى الغربيين جميعاً، وهذه المدرسة سُميت بالمدرسة الطبيعية؛ لأن فلاسفتها جميعاً كان همهم الأول والأخير البحث في الطبيعة -أي: في العالم الطبيعي- من أرض وسماء وكواكب وأفلاك، ثم كان همهم الذي يشغلهم من البحث في العالم والتفكير فيه أمرين:

**الرأي الأول:** المادة التي خلق منها هذا العالم الطبيعي، مم تتكون أرضه وسماواته؟ مم تتكون نجومه وأفلاكه؟ والمراد عندهم بهذا هو المادة الأولى التي تكون منها هذا الوجود بأرضه وسمائه.

وفي هذا الإطار ذهبت المدرسة الطبيعية بفلاسفتها الكثيرين إلى أربعة آراء حول موضوع المادة الأولية التي وُجدَ منها العالم.

- فرأي قال: إن أصل العالم هو الماء، حيث زعم أصحاب هذا الرأي أن الماء يبرد فيتجمد فتوجد منه الجمادات، وتُخف برودته فيسيل وتزداد حرارته فيتبخر، فلذلك يوجد منه جميع الموجودات على اختلاف كثافتها.

**الرأي الثاني:** رأي ذهب أصحابه إلى أن المادة التي وجد منها العالم ليس الماء، وإنما هي الهواء، وقالوا فيه مثل ما قال أصحاب نظرية الماء.

**الرأي الثالث:** قال أصحابه: إن المادة التي وجد منها العالم هي التراب.

**الرأي الرابع:** قال أصحابه: إن المادة التي وجد منها العالم هي النار.

وبذلك أصبح لديهم أربعة عناصر، قال بكل منها طائفة من فلاسفة اليونان، وهذه العناصر هي الماء والهواء والتراب والنار. فهذه عناصر أربعة، عنصران علويان هما الهواء والنار، ثم عنصران سفليان هم الماء والتراب.

وقد اجتهدت كل مدرسة في تأكيد رأيها وتفنيد رأي الآخرين، ثم في نهاية الأمر تطور فلاسفة اليونان فقالوا بالعناصر الأربعة، أي: جاء من فلاسفة اليونان من قال: بأن العالم قد تكون من العناصر الأربعة وليس من عنصر واحد فقط. وبذلك أطلقوا على عالمنا اسم عالم العناصر، أي: المكون من العناصر الأربعة، وهذا الرأي الأخير أخذه "أرسطو" ومن قبله "أفلاطون" فزعموا: أن العناصر الأربعة هي أصل الوجود الأرضي فقط، أما الوجود السمائي أو السماوي فله مواد أخرى غير العناصر الأربعة، يسمونها أو يصفونها بأنها مواد إلهية تختلف عن هذه العناصر الأربعة، ويقولون: بأن العناصر الأربعة عندنا عناصر قابلة للتحلل والفساد، ولذلك أطلقوا على عالمنا "عالم الكون والفساد" كما أطلقوا عليه قبلاً "عالم العناصر".

أما العالم العلوي فهو مكون من مواد إلهية لا تقبل التحلل ولا تقبل الفساد، بل هي خالدة دائمة وهي مادة أزلية لا أول لها، أبدية لا نهاية لها، إلى هذا ذهب "أفلاطون" و"أرسطو". وعنه أخذ الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام الفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم.

لقد أفردنا الحديث عن المدرسة الطبيعية؛ لأن حديثنا تطرق إلى موضوع العناصر وموضوع الفرقاء منها، وهو حديث ليس خاصاً بالمدرسة الطبيعية وحدها، بل

يتناول العناصر الأرضية، ثم العناصر السماوية الخالدة والأزلية - كما ذهب إلى ذلك جمهرة الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام!.

### أهم الآراء والنظريات التي جاءت بها تلك المدرسة:

وهذه المدرسة قالت بآراء هامة كثيرة، وهذه الآراء لأهميتها عبرت القرون، وأطلت برأسها في أكثر من نظرية فلسفية، وعند أكثر من فيلسوف.

وأهم هذه النظريات ما يلي:

١. نظرية التطور أو بذور نظرية التطور التي قال بها الفيلسوف الثاني من المدرسة الطبيعية وهو الفيلسوف "أناكسيمند" الذي ولد في أواخر القرن السابع قبل الميلاد، وتوفي في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد تقريباً سنة ست وأربعين وخمسمائة، وقد ذهب إلى أن الحياة الأولى بدأت في البحر، وأن الإنسان كان يعيش في البحر داخل قوقعات، وكان شكله مختلفاً جداً، ثم قذف به البحر إلى اليابسة فخرج إلى اليابسة، وكان شكله قبيحاً، فتطورت صورته إلى ما هي عليه الآن، وكذلك جميع الموجودات التي بعضها ناشئ عن بعض.

هذه نظرية التطور أو بذور نظرية التطور التي قال بها في العصر الحديث "تشارلز دارون" تحت مسمى "نظرية التطور الحيوي".

٢. من آراء هذه المدرسة ما يسمى بالدورة السرمدية أو الأبدية، وهذه الدورة ظلت تدور مع الزمن حتى وصلت في فلسفتنا المعاصرة إلى الفيلسوف الألماني "فريدريك نيتشه". وهذه النظرية الخرافية جاء بها "فيثاغورث" ومن تبعه، وتعني عنده: أن الوجود عندهم كله بسمائه وأرضه يزعمون أنه يمر بدورات دائمة، تبدأ فيها كل دورة من العدم من الصفر، ثم ينشأ الوجود ويتطور من الصغير إلى



الكبير، من البسيط إلى المعقد، يظل يتطور ويتقدم عبر آلاف السنين، ثم عندما يصل إلى أعلى تطور فيه، فجأةً ينهار الوجود كله وتفنى تماماً الموجودات، لتبدأ الدورة الجديدة، وهكذا أبد الأبدين.

والعجيب أنهم يعتقدون أن الدورات كلها متشابهة تماماً، بل هي هي، فيزعمون أن كل دورة يعود فيها الذين كانوا في الدورة السابقة من نباتات وحيوانات وبشر، ويقع لهم فيها نفس الأحداث التي وقعت في الدورة السابقة. هكذا يزعمون، وما أكثر المخرفين البله المعاتيه في هذه الدنيا!.

٣. التغير الدائم وعدم الثبات: وهذه النظرية جاء بها الفيلسوف الشهير "هيراقليطس" وهي تعني أن الوجود كله قائم على التغير المستمر، وأنه لا شيء في الوجود كله ساكن أو ثابت، ولذلك أطلق قاعدته التي تقول: إن الإنسان لا ينزل إلى النهر مرتين، أو لا يسبح في النهر مرتين؛ وذلك لأن النهر في تغير مستمر، فالنهر بالأمس هو غيره اليوم، والنهر اليوم هو غيره غداً، فهو في تغير مستمر، وكذلك الإنسان هو في تغير مستمر، والإنسان اليوم غيره بالأمس وغيره غداً، ولذلك قال: إن الإنسان لا ينزل إلى النهر مرتين، فالنهر يتغير والإنسان يتغير، فالنهر الذي نزل فيه الإنسان في المرة السابقة ليس هو النهر الذي نزل فيه بعد ذلك.

وكذلك الإنسان نفسه الآن هو غير الإنسان الذي نزل في النهر قبل ذلك!.

هذه أهم الأفكار والمذاهب التي جاءت بها المدرسة الفلسفية الطبيعية اليونانية التي بدأت أوائل القرن السابع، وانتهت تقريباً في أواخر القرن الخامس قبل الميلاد.

ونحن في نقدنا أفكار ونظريات هذه المدرسة، لم نجد أنفسنا بحاجة إلى بذل كثير جهد كي نعلن بطلان آراء تلك المدرسة المادية الطبيعية، حيث إن جميع أفكارها

ونظرياتها تقوم على فكر أسطوري متدن تافه، لا أصل له، ولا حقيقة يستند إليها من واقع أو منطق.

فالقول بنظرية التطور وأن الإنسان كان يعيش في قوقعة في البحر ثم خرج إلى البر، كلام ما ينبغي أن ينصت إليه عاقل، فضلاً عن أن يشغل به نفسه كي ينقده ويثبت كذبه، وقد ثبت بطلان نظرية التطور الحيوي لـ"تشارلز دارون" في العصر الحديث، رغم أنها تقوم على ما يزعمه أصحابها من قوانين وأدلة، ثبت كذبها جميعاً، فكيف لهذه النظرية التي لا أصل لها إلا الخرافات والأساطير.

أما القول بالدور السرمدي، فذلك أدخل في عالم الخرافة، بل لعل بعض ما يوصف بالخرافة أقرب منها إلى العقل.

وثالثة الأثافي نظرية التغير الدائم وعدم الثبات، فهي من حيث الظاهر تتفق مع ظواهر الأشياء لكن نفي الثبات والدوام ولو إلى حين، حديث خرافة يخالف الواقع ويصادم الحق، فالثبات رديف الحق والواقع، وكثرة التغير لا تلغي الثبات، وأهم من هذا كله أن هؤلاء القائمين على هذه النظرية القائلين بالتغير الدائم، ونفي الثبات مطلقاً، كفروا بوجود إله لهذا الكون، وقد بنوا كفرهم على أن القائلين بالألوهية يقولون بالثبات، فوجود الإله ثابت وغير متغير ودائم، وغير منتفٍ، وهؤلاء لا يقبلون هذا؛ لأنه لا يوجد عندهم شيء اسمه الثبات إطلاقاً، يقول "هيراكليطس": والخطأ الأكبر أن الناس يطلبون الوجود الثابت، والحق أنه لا يوجد شيء ثابت أبداً في هذا الوجود. وبذلك ينفي هذا الفيلسوف "هيراكليطس" الألوهية؛ لأن الإله لا بد أن يكون ثابت الوجود ودائماً، ولا بد أن يكون وجوده حقاً ثابتاً قاطعاً، وهو لا يؤمن بالثبات.

#### ثانياً: المدرسة السفسطائية:

وكلمة "سفسطائية" كلمة يونانية تُنسب إلى مصطلح "سُفسطوس" وتعني في أصلها معلم الحكمة، ثم أطلقت من صفة خاصة على معلم البيان والبلاغة، ويقصد بالبيان هنا الجدل والمناظرة، وأهم من تعليم الجدل والمناظرة تعليم المغالطة القائمة على المكابرة واللجاج، وكيفية التغلب على الخصم ولو بالباطل، بل إن جوهر الفلسفة السُفسطائية يقوم على أن التغلب على الخصم لا بد أن يكون بالباطل؛ لأن التغلب على الخصم بالحق لا يدخل في باب السُفسطائية، ولا وزن له عندهم، ولكن الوزن المعتبر عند هؤلاء هو التغلب المبني على الباطل.

ويهمهم جداً في هذه الفلسفة أن يكون لدى السُفسطائي القدرة على تحويل الباطل حقاً وتحويل الحق باطلاً، وإلزام الناس بذلك، هنا يكون الإنسان سُفسطائي قوياً حقاً.

ويراد بالسُفسطائيين جماعة من اليونان ظهرُوا في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد، وكان ظهور هذه الطائفة من الفلاسفة السُفسطائيين دليلاً على الانحطاط الديني والخُلقي والاجتماعي، ويكفي أن نتصور مجتمعاً يقوم كله بل وعند أعلى فئة من مثقفيه وهم فئة الفلاسفة، يقوم مجتمعهم على المغالطة والكذب والتضليل، وتحويل الحق باطلاً والباطل حقاً، ليس هذا فحسب، بل إن مكانة الإنسان في هذا المجتمع عندهم لا تُقاس بعدله وصدقته وإنصافه، وإنما تقاس مكانة الإنسان في هذا المجتمع بما لديه من قدرة على الكذب والضلال والظلم والزيغ عن الحق، والاستيلاء على حقوق الآخرين بالباطل، وكلما كان الإنسان أقدر على تحقيق هذه الأضاليل كانت مكانته أسمى وأعلى.

فهل يتخيل عاقل أن يوجد مجتمع أخس وأضل من هذا المجتمع؟! .  
هكذا كان مجتمع اليونان في ظل هذه المدرسة السفسطائية، وفلاسفتها السفسطائيين.

ولقد تكون داخل مدرسة السفسطائيين اتجاهات ثلاثة قامت عليها فلسفة القوم، كل اتجاه له طريقته الخاصة في الكذب على الآخرين وإضلالهم، والاستيلاء على حقوقهم.

وهذه المذاهب الثلاث التي تقوم عليها الفلسفة السفسطائية هي:

### أولاً: الفلسفة اللاأدرية:

نسبة إلى كلمة "لا أدري" وهؤلاء نسبوا إلى هذه الكلمة؛ لأن طريقتهم في إنكار الحقائق ومغالطة الناس تقوم على قولهم: "لا أدري" فكلما سألتهم عن شيء قالوا لك: "لا أدري" فإن سألت أحدهم: هل النار محرقة؟ أجابك: "لا أدري" وإن كان قد اقترض منك قدرًا من المال وسألته: أين مالي الذي عليك؟ قال: "لا أدري" وإن سألته: ألسنت اقترضت مني مالاً؟ قال لك: "لا أدري".  
إلى آخر هذه الطريقة التي تضيع حقلك وأنت لا تملك لهؤلاء الفاسدين شيئاً.

### ثانياً: مذهب يسمى العندية، نسبة إلى كلمة "عند":

وطريقة هؤلاء في إضاعة الحق أن يقولوا بتعدد الحق، أن الحق يتعدد بتعدد الناس، وأن الحق نسبي وليس ثابتاً مطلقاً، وأن الحق عند كل أحد حسب ما يراه، فإذا سألت سفسطائي من هؤلاء: أنت قد اقترضت مني مالاً وأريدك أن ترد هذا الدين، فيرد عليك قائلاً: كلامك هذا حق ولكن عندك أنت، أما الحق

عندي ؛ فلم أقترض منك شيئاً ، والحق عندك أن تطالبني بمالي ، والحق عندي أن أقول لك : ليس لك عندي شيء ، وأنت محق في دعواك وأنا كذلك على حق في رفضي ، ولا خلافَ بيننا ونحن إخوة! . هذه الطريقة يقوم عليها المذهب الثاني المسمى في تاريخ الفلسفة "العندية".

**ثالثاً:** مذهب "العنادية" نسبةً إلى "العناد" في إنكار الحقائق :

وذلك هو مذهب "جورجياس" الذي نال شهرةً واسعةً في النصف الثاني من القرن الخامس قبل الميلاد ، وكان من أشهر وأعظم السُّفسطائيين عندهم في ذلك الوقت ، حيث كان ينكر حقائق الأشياء .

وقد أقام مذهبه في إنكار كل حقيقة على أمور ثلاثة ، هي :

- ١ . لا توجد حقيقة في الوجود كله وكل ما في الوجود أو هام .
- ٢ . أنه مع التنزه ، ولو فرضنا أن هناك حقيقة في هذا الوجود ، فمن المحال أن يعرفها أو يدركها أحد .
- ٣ . أنه مع التنزه وعلى فرض أن هناك حقيقة ، وأن هناك أحد أدركها ، فمن المحال أن يوصل هذه المعرفة لأحد .

فملخص هذه الأمور الثلاثة في مذهب "العنادية" أنه لا توجد حقيقة ، وإن وجدت فلا أحد يدركها ، وإن أدركها فلن يستطيع أن ينقل هذا الإدراك إلى غيره . هذا مذهب الرجل في إنكار حقائق الأشياء .

وقد اهتم كثير من علماء الكلام المسلمين بالرد على هذا الرجل ، ومنهم التفتازاني حيث بدأ كتابه في العقيدة بقوله : حقائق الأشياء ثابتة ، والعلم بها متحقق ، خلافاً للسُّفسطائيين .

وإن تعجبوا فعجب أن يكون السُّفسطائيين الضالون المغالطون محل ثناء ومدح، ويكون مذهبهم في الضلال والكذب محل إعجاب وتقدير من بعض مؤرخي الفلسفة الغربيين، بل الكثيرين منهم. ولسنا نجد نقداً لمذاهب هؤلاء سوى أن فلسفتهم وصلت من الإسفاف والسفه حدًّا يجعلها أحقر وأخبث من أن تنقد.

### ثالثاً: المدرسة السقراطية:

وتلك نسبةً إلى الفيلسوف الكبير الشهير "سقراط" الذي ولد تقريباً سنة تسع وستين وأربعمائة قبل الميلاد، ثم توفي سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قبل الميلاد، ويكون بذلك قد عاش سبعين عاماً تقريباً.

و"سقراط" يعتبر علامة بارزة في تاريخ اليونان الفلسفي والاجتماعي والفكري، وقد غير مسيرة الفلسفة اليونانية من جانبيين هامين:

**الجانب الأول:** فقد كانت الفلسفة قبله تبحث في الكون في الطبيعة وفي أصل الوجود - كما أشرنا عند حديثنا عن المدرسة الطبيعية - لكن "سقراط" جاء فنقد الفلاسفة السابقين عليه والمعاصرين له، حيث يركزون على البحث في العالم العلوي والكون المادي، لكنهم أهملوا البحث في الإنسان نفسه، ولم يفكروا في معرفة أنفسهم ودراستها، ومعرفة عللها وأدائها، ثم البحث عن أدويتها وكيفية علاجها.

ثم أعلن "سقراط" شعار فلسفتها الذي جاء به في عبارته الشهيرة: اعرف نفسك بنفسك، هذه العبارة هي شعار فلسفة "سقراط" ويقال: إن هذا الشعار ليس من اختراعه، لكن "سقراط" وجدته مكتوباً على باب معبد وثني مشهور عندهم اسمه معبد "دلفي" فأعجب "سقراط" بهذه الحكمة واتخذها شعاراً لفلسفته التي قامت

على البحث في النفس الإنسانية ، والعناية بمشاكل الإنسان الخلقية والتربوية ، بدلاً من البحث في الكون كيف نشأ؟ ومم نشأ؟ إلى آخر هذه الموضوعات التي كان الفلاسفة قبله غارقين في البحث فيها.

لذلك أطلق المؤرخون وصفاً لـ "سقراط" فقالوا: إن "سقراط" أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، يعنون بذلك أن الفلسفة قبل "سقراط" وأن الفلاسفة قبله كانوا يبحثون في الكون الفسيح والعالم العلوي ، فجاء هو ونقل البحث من العالم العلوي إلى الإنسان نفسه ، لذلك اتجهت الفلسفة والفلاسفة بعده اتجاهًا جديدًا ، فبحثوا في النفس الإنسانية ، وما يتصل بها من فضائل وأخلاق وتربية إلى آخر ذلك.

**الجانب الثاني:** هو الفكر السفسطائي والفلسفة السفسطائية ، حيث جاء سقراط وكان المجتمع اليوناني كله تقريباً قد غلب عليه طابع السفسطائيين ، وانتشرت تعاليمهم ، ورغب الناس في تعلمه ، وقد افتتح السفسطائيون مدارس لتعليم أولاد الأثرياء الفكر السفسطائي ، وكيفية التغلب الخضم بالباطل ، وكيفية تحويل الحق باطلاً والباطل حقاً ، وقد أصبح المجتمع اليوناني غارقاً في الأباطيل ، ولم يعد أحد في ذلك المجتمع اليوناني يأمن على ماله أو حرمانه أو أعراضه وسط هذا الطوفان من فلسفات السفسطائيين.

هنا جاء "سقراط" وقد جعل غاية فلسفته هي إثبات حقائق الأشياء ، وتأكيد أن الحقائق موجودة وأنها ثابتة.

وقد فكر طويلاً في منهج ينفذ به هدفه فاختر منهجاً يقوم على دعامين :

**الأولى:** ادعاء الجهل المزوج بالتهكم ، فالسفسطائيون ينكرون حقائق الأشياء ، و"سقراط" يسألهم عن حقيقة شيء ما مدعيًا الجهل بتلك الحقيقة ، فإذا أنكروها

عارضهم بما يثبتها كأنه يستشيرهم ، فإذا انقلبوا إلى رأي آخر عارضهم أيضاً حتى يحاصروهم فلا يجدوا مفرّاً من إقرار الحقيقة التي يريدونها ، وتكون المناظرة أمام الناس .

**الثانية : التوليد** ، وهذه تعني أنه من خلال ادعاء الجهل وسؤال الخصم ، يتدرج به ويحاصره حتى يولد الحقيقة التي يريد الوصول إليها ، لذلك سمي منهج "سقراط" "منهج التهكم والتوليد" ولقد نجح سقراط نجاحاً كبيراً في القضاء على الفكر السفسطائي تماماً ، ليس هذا فحسب ، بل إن "سقراط" في سبيل القضاء على السفسطائيين استطاع أن يضع الأساس المتين لجانب من أهم جوانب المنطق الذي نسب إلى "أرسطو" ونقصد بذلك الجانب ما يسميه المناطقة الكليات الخمسة ، وهي تقوم على إثبات الحقائق ، بل وتقسيم تلك الحقائق إلى مهاي مختلفة ، بعضها أعم من بعض وبعضها أخص من بعض .

لكن "سقراط" دفع ثمن نجاحه هذا في القضاء على الفكر السفسطائي ، ودفع ثمن ذلك حيث تآمر عليه كبار السفسطائيين وساعدهم الأثرياء في الإيقاع بـ "سقراط" ، وكانت دعواهم ضده نقيض ما قام به ، فقد ادعى أعداؤه أنه يفسد عقول الشباب ، ويسيء إلى الآلهة وينكرهم ، ولو كان هناك قضاة عاقلون لبرئت ساحة "سقراط" من هذه التهم ؛ لأنه كان في واقع الأمر يخلص عقول الشباب من أضاليل السفسطائيين ، لكن نظام القضاء الذي كان يقوم على قرابة خمسمائة قاض في ساحة كبيرة وأكثرهم من السفسطائيين الحاقدين على "سقراط" يضاف إلى ذلك موقف سقراط في المحاكمة ، حيث أخذ يسخر ويتهكم بالقضاة ، ويتهمهم بالجهل والحمق ، كل ذلك أدى إلى صدور قرار المحكمة بإعدام "سقراط" بأن يشرب السم .



وقد رحب "سقراط" بالحكم متهمًا من القضاة، ذاكراً أنه يرحب بالموت كي يستريح من وجوههم القبيحة، ومن جهلهم المشين.

وقد حاول تلامذة "سقراط" وعلى رأسهم "أفلاطون" الفيلسوف الشهير أن يهربوه من سجنه حياً، لكنه رفض ذلك، ذاكراً أن الشباب سيفقد ثقته في تعاليمه إن هو فرَّ وهرب من سجنه، وعندما جاء الموعد شرب "سقراط" السم مبتسماً، فمات سنة تسع وتسعين وثلاثمائة قبل الميلاد.

خلف "سقراط" وراءه جمهرة كبيرة من التلامذة الأكثرين تتلمذوا على فلسفته ومنهجه، وهم من الشباب، والأقلون تتلمذوا على شخصه، وكان أشهر تلامذته بإطلاق هو "أفلاطون" الذي كان له أثره على الفلسفة والفلاسفة بعد ذلك، سواء من انتسب منهم إلى الإسلام أو من لم ينتسب.



تابع: الفلسفة اليونانية وأشهر مدارسها

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : المدرسة الرابعة: "المدرسة المتأهة" ١٤٧
- العنصر الثاني : التعريف بـ"أفلاون"، وفلسفته، ونقدها ١٤٨
- العنصر الثالث : التعريف بـ"أرسطو"، وفلسفته، ونقدها ١٥٦



#### المدرسة الرابعة: "المدرسة المتألهة"

آخر المدارس اليونانية، أعني بها ما أسمينها "المدرسة المتألهة". وقد أسمينها كذلك؛ لأن صاحبها "أفلاطون" و"أرسطو" قد تكلموا كل منهما عن إلهه الذي يدين له ويعبده بما فتن الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام، وجعلهم يتركون دين الله الحق، ويتبعون ما جاءهم ما عند هذين الفيلسوفين. نعني: أن كلام هذين الفيلسوفين عن إلههم جعل الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام يعتقدون عبادة إله "أرسطو" و"أفلاطون" ويتركون دين الله الحق الإسلام.

وأمر آخر جعلنا نسميهما الفيلسوفين المتألهين: ذلكم أنهما جاءا مخالفين لجميع الفلاسفة اليونان السابقين عليهما، فإن الفلاسفة اليونانيين جميعاً يداً واحدةً، كانوا وثنيين، وكثيرون منهم كانوا ملاحدة ماديين - نعني: السُفسطائيين ومن شايعهم - لكن هذين الفيلسوفين كانا على غير ذلك، فلما يكونا من الماديين ولا الملاحدة، وكذلك لم يكونا سُفسطائيين.

**أما أولهما:** "أفلاطون" فقد تحير مؤرخو الفلسفة في عقيدته، هل هو موحد أو أنه معدد؟ وقد انحاز كثير من مؤرخي الفلسفة إلى أنه موحد، ولهم أدلتهم التي سنعرض لها - بحوله تعالى - عند الكلام عنه مرجحين ما نراه راجحاً.

**أما ثانيهما:** "أرسطو" فهو موحد، وهذه مسألة مقطوع بها عند مؤرخي فلسفته، لكن توحيده عندنا توحيد خير منه عابد الوثن، فالإله الذي يقول به "أرسطو" هو والعدم سواء. لذلك أطلقنا على هذين الفيلسوفين وعلى مدرستهما اسم "المدرسة المتألهة" أي: التي تدين بعبادة إله يختلف عن آلهة المدارس اليونانية السابقة عليهما.

وفيما يلي نتحدث عن فلسفة كل منهما، ثم نتناولها بشيء من النقد والتفنيد.

### التعريف بـ"أفلاطون"، وفلسفته، ونقدها

#### "أفلاطون":

اسمه "أرسطو قليس بن أرسطون" أما كلمة "أفلاطون" فليست اسمه وإنما لقب لقبوه به على سبيل التهكم؛ لأن كلمة "أفلاطون" في لغة اليونان تعني الضخم العريض، وكان هذا الرجل "أرسطو قليس" ضخماً عريضاً بشكل لافت للنظر غير معتاد، فلقبوه بـ"أفلاطون" فلصقت به واشتهر بها.

وقد ولد "أفلاطون" سنة سبع وعشرين وأربعمائة قبل الميلاد، ومات سنة وأربعين وثلاثمائة قبل الميلاد، عاش قريباً من ثمانين عاماً.

أما عن حياة "أفلاطون":

ففي بدايتها كان تلميذاً مخلصاً محبباً لأستاذه "سقراط" يدرس عليه ويأخذ عنه، حتى انتهت حياة "سقراط" بإعدامه بالسم - كما بينا قبله - وعند ذلك صدم "أفلاطون" وحزن حزناً شديداً، ولم يجد بداً من الرحيل عن "أثينا" البلد الذي أعدم أستاذه العظيم.

هنا عند بداية رحيل "أفلاطون" عن "أثينا" بدأت المرحلة الثانية في حياة "أفلاطون" حيث خرج من بلده مطوفاً ببلاد كثيرة منها ما هو يوناني ومنها أقطار بعيدة كبلاد المغرب، ثم استقر "أفلاطون" بمصر طويلاً حيث درس فلسفات المصريين وأديانهم، وبعد وقت طويل رجع إلى بلده "أثينا" بعد جميع هذه الرحلات، وقد أمضى في رحلاته بعيداً عن وطنه اثني عشر عاماً، وبذلك انتهت المرحلة الثانية من حياة "أفلاطون".

حيث بدأت المرحلة الثالثة والأخيرة من حياة ذلك الفيلسوف ، وقد استغرقت تلك المرحلة من حياة "أفلاطون" أربعين عاماً تقريباً ، حيث عاد من رحلاته سنة سبع وثمانين وثلاثمائة ، ورحل عن الدنيا سنة سبع وأربعين وثلاثمائة قبل الميلاد .

وفي هذه المرحلة - أعني : الأخيرة - بدأ "أفلاطون" حياته الفلسفية ، مكوّناً نظرياته التي غيرت كثيراً من الفلسفات الوثنية والأديان الباطلة التي تأثرت به ، وبنظرياته الفلسفية ، وذلك مثل الإسماعيلية والنصيرية والدروز ، بل والفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ، حيث قال بعض هؤلاء بما قال به "أفلاطون" قالوا بالعقل الكلي ، والنفس الكلية ، إلى آخر هذه الخرافات والأباطيل التي قال بها "أفلاطون" وأخذها عنه كثيرٌ من المذاهب المنتسبة إلى الإسلام والفلسفات المنتسبة إلى الإسلام .

بينما تأثر الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام في كثير من فلسفاته ، بحيث انقسم هؤلاء الفلاسفة إلى فلاسفة "أفلاطونيين" وفلاسفة "أرسطيين" أي : طائفة من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام تأثروا بـ "أفلاطون" أكثر من تأثرهم بـ "أرسطو" . بينما طائفة أخرى تأثرت بـ "أرسطو" أكثر من تأثرها بـ "أفلاطون" .

أما عن الإسلام فقد استبدل به هؤلاء الفلاسفة - أعني : المنتسبين إلى الإسلام - بأسلامهم فلسفات "أفلاطون" و "أرسطو" وودعوا الإسلام إلى حيث لا يعلم خاتمهم إلا الله وحده سبحانه .

عندما رجَعَ "أفلاطون" إلى بلده بعد رحلاته الكثيرة ، بدأ بإنشاء مدرسته التي سماها "الأكاديمية" ومنها أخذ الغربيون هذه الكلمة "أكاديمية" أو "الأكاديميك" ثم أخذنا نحن عن الغربيين هذه الكلمة أكاديمية وصفاً للعلم والمسائل العلمية . أما "أفلاطون" فقد أطلق على مدرسته اسم "أكاديمية" ؛ لأنه أنشأ مدرسته بمنطقة

تسمى "حدايق البطل أكاديموس" بطل أسطوري عند اليونان اسمه "أكاديموس" وكان بجوار قبره حدايق كثيرة تسمى "حدايق البطل أكاديموس".

وفي هذه الأكاديمية أو هذه المدرسة بدأ "أفلاطون" يعلم تلامذته الذين اجتمعوا عليه من كافة الأنحاء، وبذلك عاد منهج أستاذه "سقراط" في التدريس لتلامذته. لكن "أفلاطون" خالف أستاذه في التأليف والكتابة، حيث كان "سقراط" قليل الكتابة، نادر التأليف، لكن "أفلاطون" كان غزير التأليف كثير الكتابة، ترك كمًّا هائلًا من المؤلفات وبخاصة كتاباته التي تسمى (المحاورات) وضع فيها جوهر فلسفاته، والمذاهب التي اعتنقها، والأمور التي دعا إليها.

وكتابات "أفلاطون" التي تسمى (المحاورات) اختلف حولها مؤرخو الفلسفة، حيث وصل عدد هذه (المحاورات) إلى ست وثلاثين محاورَةً، رأى مؤرخو الفلسفة أن بعضها منقول مديسوس على "أفلاطون" بعد موته، وأن بعضها مشكوك فيه، لكنها صيغت بأسلوب جميل أدبي رفيع، وقد سميت (محاورات أفلاطون) بهذا الاسم، لأنه صاغها على هيئة محاورات بين البطل وآخرين، كان يصوغ محاوراته على هيئة مسرحية أو قصة أو رواية، فيها بطل وفيها آخرون، فسميت لذلك (محاورات) وكان أكثر هذه (المحاورات) يجعل "أفلاطون" أستاذه "سقراطاً" هو بطل المحاورَة.

ولـ"أفلاطون" مؤلفات أخرى غير (المحاورات) لكنها ليست كثيرة، وليست على مستوى (المحاورات). يهمننا هنا فلسفة "أفلاطون" التي كان لها التأثير الكبير في كثير من الأديان والمذاهب والفلسفات من بعده.

وفلسفة الرجل تناولت جوانب كثيرةً، وجاءت بنظريات عديدة، لكن ما يعيننا هنا أن نشير إلى ثلاث نظريات فلسفية لـ"أفلاطون" تشكل جوهر فلسفته—من وجهة نظرنا—:



#### النظرية الأولى: في الأخلاق:

ونبدأ بها؛ لأن الرجل منحها من الاهتمام والجهد ما لم يمنح نظريةً أخرى، فلسفة "أفلاطون" في الأخلاق في أن ميزان الأخلاق أو قانون الأخلاق عند "أفلاطون" يقوم على الاعتدال، الاعتدال هو سير الأخلاق الفاضلة عند "أفلاطون" سر الأخلاق أو قانون الأخلاق أو ميزان الأخلاق؛ لكن كيف يتحقق الاعتدال؟.

هنا يبدأ "أفلاطون" يفكر ويقرر أن الإنسان لديه قوتان أساسيتان:

**القوة الأولى:** هي القوة الشهوية.

**القوة الثانية:** هي القوة الغضبية.

وكل من هاتين القوتين تكون نافعةً وتكون ضارةً، فالقوة الشهوية مثلاً نافعة جداً؛ لأن بها عمارة الكون، ولولاها لانقطع النسل وفني الجنس البشري، فهي نافعة في الحدود القانونية، أو في حدود الاعتدال، بالقوة الشهوية يتزوج الإنسان وينجب، وتأتي أجيال بعد أجيال، لكن القوة الشهوية إن انحرفت ولم تتزن يمكن أن يعتدي بها صاحبها على حرمان وأعراض الآخرين.

فالقوة الشهوية إذاً سر عملها وسر نفعها الاعتدال، ومثل ذلك يقال في القوة الغضبية فهي نافعة وضرورية جداً؛ لأن الإنسان بهذه الغضبية يحمي عرضه، ويحمي حرمانه، ويحمي أمواله، ويحمي وطنه ضد اعتداء الآخرين، لكن القوة الغضبية لو زادت عن حدها وانحرفت عن سوائها فيمكن أن يعتدي الإنسان بها على حقوق الآخرين، ويمكن أن يسلبهم ممتلكاتهم، ويظلمهم حقوقهم.

والسؤال هنا: كيف نضمن أن هاتين القوتين لا تخرجان عن الحدود النافعة، لا تخرجان عن الحدود عن حد الاعتداء؟:

يقول "أفلاطون": إن القوتين الغضبية والشهوية لا تستقيمان إلا بتدخل قوة ثالثة هي قوة العقل، فهي إذن ثلاث قوى؛ قوتان غريزيتان، كل منهما غريزة أو جيلة لا تستقيم أي منهما إلا بتدخل القوة الثالثة، وهي القوة العاقلة، فالقاعدة عنده: إذا تحكم العقل في الشهوة والغضب اعتدل الإنسان، وكان على خلق سوي جميل، أي: تحقق ميزان الأخلاق وهو الاعتدال. أما إذا انفلتت القوتان وضعف عنهما العقل، فقد فسدت الأخلاق وضاع الاعتدال.

و"أفلاطون" ذكي في ضرب الأمثلة، فهو يقرب هذه الفلسفة الخلقية بلسان يسميه لسان العربة، وهو يمثل الإنسان بعربة يجرها حصانان، ويقودها قائد يمك بزمام الحصانين ويوجههما، أما الحصانان فهما القوتان الشهوية والغضبية، وأما القائد الذي يوجه الحصانين فهو القوة العاقلة أو العقل، فما دام العقل متحكماً في الحصانين أي: ما دام العقل - القوة العاقلة - متحكمة في القوة الشهوية والغضبية، فقد سلمت العربة أو سلم الإنسان. أما إذا ضعف القائد الذي هو العقل وانفلت من يده زمام الحصانين أي: القوة الشهوية والغضبية، وانطلق كل حصان منهما كما يشاء، فقد هلكت العربة أو هلك الإنسان.

### النظرية الثانية: نظريته في ما أسماه المثل:

أي: نظريته في العالمين: عالم المثل، وعالم الظلال والأشباح. و"أفلاطون" هنا ينحو منحى الخيال بل يغرق في الخيال، حيث يذهب إلى نظريته الفلسفية التي هي في واقع أمرها أسطورة غريبة، تقول نظريته: إن العالم الأرضي الذي نعيشه

نحن عالم لا حقيقة له ، عالم قائم على الخيال والظلال والأوهام ، أما العالم الحقيقي فيسميه هو عالم المثل ، والعالم الحقيقي الذي له وجود مادي حقيقي الذي هو عالم المثل يوجد في العالم السماوي في العالم العلوي .

ويضرب مثلاً بنفسه ، فيقول : إن "أفلاطون" الواقف أمامكم إنما هو ظل لـ"أفلاطون" حقيقي موجود في العالم الأعلى ، فـ"أفلاطون" الحقيقي في العالم المثل في العالم الأعلى ، أما "أفلاطون" الذي في عالمنا الأرضي يقول : إنما هو ظلال وخيال ووهم لا حقيقة له . يذهب الفيلسوف إلى أنه لا يوجد شيء في العالم الأرضي إلا وله مثال حقيقي في العالم العلوي ، حتى الجمادات والنباتات والحيوان والإنسان ، كل شيء يوجد هنا في العالم الأرضي يوجد مثاله حقيقي له في العالم العلوي .

خلاصة هذا : أن الوجود عند "أفلاطون" نوعان :

**النوع الأول :** وجود حقيقي ، وجود صحيح ويسميه هذا يسميه عالم المثل ، وهذا الوجود في العالم الأعلى في السموات .

**النوع الثاني :** وجود خيالي ، ظلال وهمي ، لا حقيقة له ، وهو ما يوجد في العالم الأرضي ، والموجود في العالم الأرضي هو ظل وخيال للعالم الموجود في السموات أو العالم العلوي .

عالم المثل إذن إنما هو في السموات أو في العالم الآخر ، والعالم الأرضي لا حقيقة له ، وإنما هو خيال وظلال للعالم الأعلى ، ولا يمكن أن يوجد شيء في العالم الأرضي إلا وله مثال حقيقي في العالم العلوي ؛ لأن ما يوجد في العالم الأرضي إنما هو ظل وخيال لِمَا هو موجود في العالم العلوي .

وكما ذكرنا فـ"أفلاطون" يقرب فلسفته بالمثل، قلنا قبلاً: إنه ذكي في ضرب الأمثلة، وهو يمثل دائماً لنظرياته بأمثلة محاولاً بها تقريب هذه النظريات إلى أفهام الناس، وهو يمثل لنظريته هذه -التي هي نظرية المثل- بمثال شهير اسمه مثال الكهف، وفي أسطورة الكهف يضرب لنا "أفلاطون" مثلاً لجماعة من الناس قد حبسوا في كهف، وجوههم إلى جدار الكهف من الداخل، وظهورهم إلى باب الكهف -الباب الخارجي للكهف- فهم داخل الكهف ظهورهم للخارج للعالم، ووجوههم إلى الجدار داخل الكهف، وقد حبسوا ووضعوا الأغلال في أعناقهم وأرجلهم، وجوههم إلى الحائط وظهورهم إلى باب الكهف، والمخلوقات كلها تمر أمام باب الكهف من الخارج، فتظهر ظلالها وخيالاتها على جدار الكهف من الداخل، حيث يراها الجماعة المحبوسون داخل الكهف، فهم يرون إداً ظلال الأشياء التي تمر خارج الكهف منعكسةً على جدار الكهف من الداخل.

يعتقد المحبوسون داخل الكهف أن هذه الظلال والخيالات التي يرونها على جدار الكهف، هي الوجود الحقيقي؛ لأنهم لم يروا في حياتهم سوى هذه الظلال.

ماذا لو استطاع أحدهم أن ينفك من أغلاله وقيوده، ويلتفت إلى الخلف، وربما خرج من باب الكهف إلى الخارج، فرأى الأشياء الحقيقية التي تمر أمام باب الكهف من الخارج ورأى العالم الحقيقي، لو جاء هذا الرجل ودخل إلى الذين هم محبوسون داخل الكهف، وحدثهم عن العالم الخارجي، وقال لهم: إن ما ترونه إنما هو خيال وظلال، والعالم الحقيقي هناك في مكان آخر، يقول "أفلاطون": فإنهم لا شك سيكذبونه ويسخرون منه ويتمسكون بما يعتقدونه من أن عالم الظلال الذي يرونه على جدار الكهف من الداخل هو عالم الحقيقة، ولا يعتقدون أبداً ولن يصدقوا الرجل أبداً في أن هذا عالم الخيال، والعالم الخارجي هو العالم الحقيقي.

هذا مثال يذكره "أفلاطون" يمثل به نفسه وهو يجبرنا بعالم المثل.

**النظرية الثالثة: الشيوعية**، أو نظريته في الشيوعية التي تضمنها محاورته المسماة الجمهورية:

و"أفلاطون" قد وضع نظاماً سياسياً سماه الجمهورية، وقد دعا فيه إلى نظام شيوعي تقوم عليه الدول اليونانية.

ومن المعلوم أن اليونان في ذلك الزمان كانت تقوم على نظام الدولة المدينة أو المدينة الدولة، كل مدينة تقوم فيها دولة ولها حاكم وله جيش وله شرطة وله نظام كامل للدولة، لكن الدولة عبارة عن مدينة، وكانت كل مدينة في اليونان تمثل دولة لها حاكم ولها جيش، وكل مرافق الدولة كاملة، هذا في النظام السياسي يسمى الدولة المدينة، أو المدينة الدولة.

كانت كل مدينة في اليونان تقوم فيها دولة خاصة، وكان من هذه الدول مثلاً دولة "أثينا" في مدينة "أثينا" ودولة "أسبرطة" في مدينة "أسبرطة"، وهو قد وضع "أفلاطون" في كتابه الذي عنون له (الجمهورية) عنون له باسم "الجمهورية" وضع نظاماً سياسياً يقوم على شيوعية النساء والأموال عند عليّة القوم، يعني: ليس الشعب كله يقوم على الشيوعية وإنما الشيوعية تكون لعلية القوم من الحكام وقواد الجيش والأثرياء، بحيث يكون جميع النساء لجميع الرجال، وجميع الرجال لجميع النساء، وتحمل النساء وتلد فتُجمع المواليد في مكان معين، لا أحد يعرف ابنه ولا امرأه تعرف ابنها ولا بنتها، وإنما يجمعون جميعاً في مكان واحد ويؤتى بالمرضعات ليرضعن هؤلاء الأولاد مرةً واحدةً.

أما عامة الشعب والفقراء فلا يطبق عليهم النظام الشيوعي، وإنما يتركون على حالهم دون الشيوعية.

وقد صور "أفلاطون" هذا النظام بأسلوبه الأدبي الذي أغرى أحد الحكام في ذلك الزمان بأن يبعث إلى "أفلاطون" ليطبق نظامه هذا في دولته التي كانت اسمها دولة "سراقوسة" وهذه مدينة من مدن اليونان، كان فيها هذا الحاكم فأرسل إلى "أفلاطون" فأتى به، وطلب منه أن يطبق نظامه الشيوعي في دولته أو مدينته هذه، فذهب "أفلاطون" وحاول أن يطبق هذه الشيوعية في تلك المدينة التي هي دولة، ولكنه فشل فشلاً ذريعاً، فأمسك به الحاكم "يونفوس" الثاني وسجنه ثم جعله عبداً رقيقاً وعرضه للبيع، وظل "أفلاطون" عبداً رقيقاً معروضاً للبيع حتى اقتداه أحد تلامذته من الحكام، فدفع ثمنه فعاد إلى "أثينا" كما خرج منها. هذه جملة فلسفة "أفلاطون".

#### التعريف بـ"أرسطو"، وفلسفته، ونقدها

#### "أرسطو":

و"أرسطو" أو "أرسطو طاليس" الذي يعد لدى جمهرة المؤرخين والدارسين للفلسفة الأشهر والأخطر، وصاحب التأثير الأظهر في كثير من الفلاسفة من بعده، إلى حد أن الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام باعوا دينهم، واعتنقوا فلسفة "أرسطو" ديناً من دون دين الله الحق الإسلام.

لقد جاء "أرسطو" فابتدأ تلميذاً من تلامذة "أفلاطون" في الأكاديمية، وكان أنشط تلامذة "أفلاطون" وكان طوال وجوده في صحبة أستاذه نشطاً يدور في فلكه، فلما مات أستاذه بدأ يشق طريقه الخاص به، وذلك عن طريق إنشائه مدرسته التي كانت تقع داخل رواق طويل. وقد جعل "أرسطو" تدريسه لتلامذته يتم بينما هو

وهم يمشي هو وهم حوله يستمعون إليه ، فلم يكن "أرسطو" يجلس على كرسيه يدرس لتلامذته وهم جلوس حوله ، بل كان يدرس لهم وهو يمشي وهم حوله يمشون ويسمعون ويناقشون ، لذلك سميت فلسفة "أرسطو" الفلسفة المشائية نسبة إلى كون "أرسطو" وتلامذته كانوا يدرسون الفلسفة وهم يمشون.

ما يهمننا من فلسفة "أرسطو" تلك الموضوعات التي كان لها التأثير الأكبر في الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ، وفي فلسفاتهم ، وبخاصة أن فلسفتهم التي تأثروا فيها بأستاذهم "أرسطو" عند الكثيرين بل عند عامة الدارسين وجمهرة المثقفين وسمت أو سميت بالفلسفة الإسلامية ، نسبت إلى الإسلام وهي تناقده بل وتنقضه.

لذلك نحن نكرر ابتداءً أن "أرسطو" له جوانب فلسفية كثيرة ، لكننا ننتقي منها ما يهمننا في دراستنا مذهبه ، وفي هذا المجال ، وتطبيقاً لهذا المنهج سنتحدث عن نقاط ننتقيها من فلسفة "أرسطو" كما يلي :

**أولاً: الذات الإلهية:** والكلام هنا خطير جداً ؛ لأن الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام قد اعتنقوا عقيدة "أرسطو" وآمنوا بإلهه الذي ابتدعه من أفكاره وعقائده الوثنية التي كان يدين بها قبله.

والسؤال : كيف هي عقيدة "أرسطو" في الذات الإلهية؟

١ - إن "أرسطو" يعتقد أن الذات الإلهية عقل مجرد ، وأن هذا العقل عاقل بمعنى أنه صالح أن يعقل ، يقول : إن الإله الذي هو عقل عاقل لا يعقل إلا ذاته فقط ، ولا يعقل شيئاً من هذا الوجود كله ، وإذا ما سألنا عن الحكمة بأن "أرسطو" جعل إلهه لا يعقل شيئاً من الوجود ولا يعقل إلا ذاته فقط؟ أجابنا "أرسطو" بأن الإله كامل كمالاً مطلقاً ، وأن غيره أيًا كان ناقص بالنسبة للإله ، فإذا عقل الإله غيره

فقد عقل ما هو ناقص، وقد حل النقص فيه، واتصل بالناقص عن طريق علمه به أو عقله إياه، وذلك مناقض لكون الإله كاملاً كمالاً مطلقاً؛ لذا وحتى يظل الإله كاملاً كمالاً مطلقاً؛ فلا ينبغي أن يتصل بالناقص، ولذا فإن الإله عن "أرسطو" وأتباعه لا يعقل إلا ذاته، ومن ثم فقد وضع قاعدته الشهيرة بأن الإله عقل وعاقل ومعقول.

### ثانياً: صلة الإله ﷻ بالعالم:

ولعلنا نتساءل: إذا كان الإله لا يعقل شيئاً من العالم ولا يعلم إلا ذاته، فكيف خلق العالم؟

وتأتي إجابة "أرسطو": بأن الإله علة متى جعلها أو صدر عنها العالم صدور المعلول عن علته، فالله ﷻ عند "أرسطو" لم يخلق العالم، وكلمة يخلق أو كلمة الخلق ليس لها وجود في قاموس "أرسطو" فالعالم معلول عن علة هي الذات الإلهية، وصدور العالم عن الذات الإلهية قد تم دون علم من الإله أو إرادة أو قدرة؛ لأننا ذكرنا قبلاً أن الإله لا علم له بالعالم، فكيف يخلقه أو يوجده؟:

كل الذي حدث عن "أرسطو" أن العالم صدرَ عن الذات الإلهية كما تصدر الحرارة عن النار، والضوء عن الشمس، دون علم من النار أو الشمس، وهكذا صدر العالم عن الإله دون أن يعلم الإله عنه شيئاً.

هذه عقيدة "أرسطو" في الذات الإلهية وعن صدور العالم عن الله.

وأما عن صدور العالم عن علته التي هي الذات الإلهية، فـ"الأرسطو" حديث في هذا أفضل منه عتُه المعتوهين وخيالُ البله والمجانين. يقول "أرسطو": عقل الإله ذاته فنشأ عنه عقله الأول، وعقل العقل الأول علته -أي: الإله- فنشأ عنه عقل



ثانٍ، وهكذا حتى صدر عن الإله نيف وعشرون عقلاً، كل عقل علة في العقل الذي بعده، وهكذا. وآخر العقول هو الذي صدر عنه عالمنا الأرضي وهو الذي يدبره ويسيره، فالعقل الأخير عند "أرسطو" هو الذي أوجد عالمنا الأرضي، كذلك هو الذي يوجد وبعدم ويجي ويميت ويمرض ويشفي، وهو المتصرف في عالم العناصر كما يسمون عالمنا الأرضي.

**ثالثاً:** هذا العالم الذي صدر عن الإله عند "أرسطو" قديم أزلي لا أول لوجوده، وهو كذلك باقٍ أبدي لا نهاية لوجوده؛ لأنه حسب قواعد الفلاسفة وقواعد "أرسطو": المعلول باقٍ ببقاء علته، وما دام العالم معلولاً للإله والإله علته، فما دامت العلة موجودة فمعلولها الذي هو العالم موجود، وهم يذهبون إلى أن المعلول مرتبط بعلته، فإذا كانت العلة لا أول لها ولا نهاية لها، كان معلولها وهو العالم لا بداية له ولا نهاية له.

**رابعاً:** جاء "أرسطو" بالمنطق، و"المنطق الأرسطي" يطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى "أرسطو" ويسمى كذلك "المنطق القديم"؛ تفرقةً بينه وبين المنطق الحديث، وكذلك يسمى هذا المنطق "المنطق الصوري"؛ لعنايته بصورة العبارات دون الاهتمام بالواقع والمضمون.

والمنطق الأرسطي تكون عبر مراحل ثلاث:

**المرحلة الأولى:** على يد "سقراط" حيث أخذ يعرف الأشياء، ويبين حقائقها، ويفصل في الأفراد والأنواع والأجناس، والمعاني الجزئية، والمعاني الكلية، وكان له فضل بيان الكليات الخمس التي قام عليها القسم الأول من المنطق، نعني قسم التصورات إلى أمور أخرى تحسب له في موضوعات المنطق. ثم جاء بعد "سقراط" تلميذه "أفلاطون" فذكر أموراً أفاد منها "أرسطو" بعد ذلك حين أخذ يجمع مادة منطقته وينظمها.

**المرحلة الثانية:** على يد "أرسطو" نفسه حيث جمع "أرسطو" جهود "سقراط"، ثم ما جاء به "أفلاطون" ونظم كل ذلك ونسقه، وأضاف إليه الكثير من عنده، وبخاصة في باب الأقيسة حتى جعل المنطق علماً يدرّس ويدرس، لكنه كان بحاجة إلى تنسيق وتنظيم.

**المرحلة الثالثة:** على يد أبي نصر الفارابي، حيث أخذ منطق "أرسطو" فنسقه ورتبه، وجعله على الصورة التي هو عليها الآن؛ ولأن أبا نصر الفارابي قام بذلك فقد أطلق عليه لقب "المعلم الثاني" نسبةً إلى "أرسطو" الذي يلقبه الفلاسفة "المعلم الأول".

والمنطق الأرسطي منذ ترجم إلى العربية ضمن ما ترجم من علوم اليونان، وهو يثير جدلاً بين المفكرين والعلماء، وقد انقسموا جميعاً إلى فريقين محبٍ غالٍ وكارهٍ قال، فالفلاسفة والجمهرة من علماء الكلام وكثيرون غيرهم يعظمون من شأن المنطق الأرسطي، وقد جعلوه ميزان للعلوم، ومعياراً لها، حتى قال قائلهم: من لا يدرس المنطق لا يوثق بعلمه.

أما الفريق الآخر في مواجهة هذا الفريق؛ فيحقر من شأن المنطق الأرسطي، بل يجعله سبباً في الانفلات من الدين، وقد قال قائلهم: إنه علم وثني جاء به قوم وثنيون، أرادوا به إفساد الدين وتخريب الملة، وعلى رأس هذا الفريق والذي يعارض المنطق الفقهاء والمحدثون أو أهل الفقه وأهل الحديث، وقد اعتدل بعضهم واشتد آخرون، وطعنوا في العلم وطعنوا في تعلمه، وقد عبر عن موقف هؤلاء مقولة تُنسب إلى الإمام الشافعي -رحمه الله- تقول هذه المقولة: "من تمنطق فقد تزندق" بل هناك من الفقهاء من قال: "إن من اشتغل بعلم المنطق لا تقبل شهادته".

إلى جانب هؤلاء وأولئك فريق ثالث يرى أن منطق "أرسطو" لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ولكنه مضيع للوقت والجهد، ولا فائدة فيه سوى أنه تدريب للعقل وترويض للفكر، لكن بلا فائدة تعدل الوقت الذي يبذل فيه، وقد عبر الإمام ابن تيمية عن رأي هؤلاء الذي شبه المنطق، فقال: إن المنطق مثل لحم جمل غث فوق قمة جبل صعب، فلا اللحم طيب فينتقى، ولا الجبل سهل فيرتقى، هذا عندنا نحن.

أما المنطق عند الغربيين؛ فقد صار عندهم محل تقديس وتعظيم، وبخاصة عند رجال الكنيسة النصارى، حيث تعلوه من العلوم المساعدة على فهم كتابهم المقدس، حتى جاء عصر النهضة فلقني هجوماً عنيفاً، ثم جاء العصر الحديث فأجهز فلاسفته على منطق "أرسطو" لصالح ما أسموه "المنطق الحديث ومناهج البحث".

وقد آل الأمر في المحصلة النهائية إلى إخلاء الساحة الثقافية الغربية من المنطق الأرسطي إلا عند من يدرسه باعتباره تاريخاً ثقافياً لا مكان له بين العلوم والمعارف الحية النافعة.

فلم يعد مقررًا على طلاب العلم وأقسام الفلسفة - كما هو عندنا - عندنا نحن الشرقيين يدرس المنطق باعتباره مادة حية نافعة، وما يزال الأزهر يدرسه لطلابه حتى لكأن القائمين على مناهج الأزهر أرسطيين أكثر من "أرسطو" نفسه.

### نقد الفلسفة اليونانية:

والفلسفة اليونانية هي حجر الزاوية في الفلسفة الغربية القديمة، وما تزال تحتل مكانتها الكبيرة عند الغربيين.

لذا سوف نشير إلى أهم النقود ممثلةً في نقاط محددة كما سينصب نقدنا على هذين الفيلسوفين "أفلاطون" وتلميذه "أرسطو" باعتبارهما رأس الفلسفة اليونانية والأكثر شهرة وتأثيراً.

### نقد فلسفة "أفلاطون":

فقد رأينا فلسفته الخلقية التي بدأ بها فلسفة متوازنة حيث أخضع الغرائز في الإنسان لقوته العقلية، لكنه لم يصنع شيئاً يذكر في توجيه القوة العاقلة إلى الطريق السوي، فإن العقل كما يقولون: ابن بيته، يتأثر بالتعليم والتربية والعادات والتقاليد والمألوفات؛ فماذا لو كان العقل نفسه قد زرعت فيه قيم فاسدة وتعاليم خاطئة؟ فإنه حينئذ سوف لا يعدل من قوة الشهوة والغضب، بل سيكون عاملاً من عوامل انحرافهما وضلالهما.

أما عن عالم المثل فذلك اتجاه يدل على خيال مريض، ونفسية ضالة، وقد تأثر الرجل بأستاذه "سقراط" حين قال بالمعاني الكلية مثل الإنسانية والعدالة والفضيلة، وما إلى ذلك، وذكر أنها موجودة، فانجرف "أفلاطون" مع خياله ظاناً أن هذه المعاني الكلية لها وجود في الخارج، لكنه لما لم يرها في واقعنا الأرضي، ظن أنها موجودة في السموات العلى، فاخترع ما أسماه عالم المثل في العالم الأعلى. ولكن أسوأ ما عند الرجل ذلك النظام الشيوعي الذي اخترعه ودعا إليه ورغب فيه، وليس أدل على كذب الفيلسوف في دعواه وضلاله في فلسفته من أن أحد الحكام الذي أشرنا إليه "يونفوس الثاني" حاكم مدينة "سراقوسة" اليونانية دعا الفيلسوف في زمانه؛ ليطبق نظامه الشيوعي في دولته، ففشل الفيلسوف فشلاً ذريعاً، جعل الحاكم يتخذه عبداً رقيقاً ويبيعه لمن دفع ثمنه.

أما إلهه الذي يدين به ، فالبعض ذهبوا إلى أنه موحد ، واستدلوا على ذلك بأنه تكلم عن المثال الأعلى أو مثال المثل ، وهذا الكلام مبهم ، لا يثبت شيئاً ولا ينفيه ، أنه قالب العقل الكلي وقالب النفس الكلية ، وفصل في هذا بعض تفصيل ، لكن ما هو العقل الكلي؟ وما النفس الكلية؟ وما المراد بكل منهما؟ وما صلتها بالموجودات؟

كل هذا خيال في خيال وضلال يتبعه ضلال.

### نقد فلسفة "أرسطو":

فقد اخترع نظاماً إلهياً من خياله لا حقيقة له ، أقرب ما يكون إلى مسرحية هزلية يكتبها مؤلف عابث وهو لا يتحمل مسؤولية فلسفته ؛ لأنه فيلسوف وثني ، أطلق العنان لفكره فاخترع لنفسه إلهاً من خياله ، وقد ذهب إلى أن إلهه لا يوصف إلا بالسلوك ، فيقال : لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو متحرك ولا ساكن ، وقد ذهب إلى أن إلهه لا يوصف إلا بالسلوك ، فيقال : لا داخل العالم ولا خارجه ، ولا هو كبير ولا صغير ، ولا متحرك ولا ساكن ، يسلب عنه النقيضين ، فهو إذاً معدوم لا وجود له ؛ لأن الموجود لا يجتمع فيه النقيضان ، ولا يرتفعان.

وقد ذكرنا أنه وثني فليفعل بدينه ما يشاء ، فلا عجب لدينا من فعل هذا الرجل.

لكن العجب نجده عند فريق من الذين كانوا مسلمين ، كيف تركوا إسلامهم واتبعوا هذا الرجل في ضلاله وتفاهاته وخرافاتة؟ نعني بذلك الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ، بل إنهم زادوا على ذلك ، فاعتقدوا في عصمة الفيلسوفين "أفلاطون" و"أرسطو" عن الخطأ ، واعتقدوا حقبة جميع أفكارهم وفلسفاتهم ،

بل زادوا على ذلك، فاعتقدوا استحالة أن يخطأ أحد منهما -أي: "أفلاطون" و"أرسطو"- ولو خطأ بسيطاً، حتى تُسببَ إلى الفيلسوف ابن رشد أنه قال: "إن انخراق النظام الطبيعي أقرب إلى العقل من أن يخطئ "أرسطو" ولو خطأ بسيطاً" يعني: أن تشرق الشمس من مغربها وأن تغرب في مشرقها، وأن يهبط القمر ليصافح الناس ويصعد للسماوات، هذا أقرب إلى العقل عند ابن رشد من أن يخطأ "أرسطو" ولو خطأ بسيطاً.

انطلاقاً من ذلك قام الفارابي الفيلسوف الذي ينتسب إلى الإسلام بتأليف كتاب أسماه (الجمع بين رأيي الحكيمين) يحاول فيه أن يصوب جميع الآراء التي تعارضت فيها أقوال "أفلاطون" و"أرسطو" فاهتم هو بأن يبين أن كلام هذا حق، وكلام الآخر حق، والحق لا يعارض الحق. ومن ثم فكلام كل منهما صحيح حتى لو تناقضا أو تعارضا.

## الفلسفة الغربية في العصور الوسطى

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : بعض المصطلحات الخاصة بفلسفة العصور الوسطى ١٦٧
- العنصر الثاني : أمثلة لفلسفة العصور الوسطى: "أوغستين" ١٧٧





## بعض المصطلحات الخاصة بفلسفة العصور الوسطى

ينبغي علينا ابتداءً أن نعرف ببعض المصطلحات التي سوف تمر بنا أثناء دراستنا هذه، وأيضاً دراستنا للمراحل الفلسفية التالية.

**أولاً:** فلسفة العصر الوسيط أو فلسفة العصور الوسطى:

معنى هذه التسمية وسببها:

قد سميت هذه المرحلة بالمرحلة الوسيطة؛ لأنها توسطت بين الفلسفة اليونانية وفلسفات العصر الحديث، ومعلوم أن الفلسفة اليونانية تسمى بالفلسفة القديمة، فإذا نحن قارناها هكذا بالفلسفة القديمة وفلسفات العصر الحديث، عرفنا أن الفلسفة التي بينهما يمكن أن نسميها بالفلسفة الوسيطة. فلسفة العصر الحديث بدأت بعصر النهضة.

فهناك إذًا عدوتان:

**العدوة القصوى:** البعيدة في الفلسفة الغربية وهي الفلسفة اليونانية أو الفلسفة القديمة.

**العدوة الدنيا:** القريبة منا تاريخياً، وهي الفلسفات التي تبدأ بعصر النهضة، وبين العدوتين -القصوى والدنيا- تأتي المرحلة الوسيطة أو المتوسطة، هذا سبب تسميتها بالفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصر الوسيط.

لكن أحياناً تسمى بفلسفة العصور المتوسطة؛ لأن هذه الفترة الزمنية التي شغلها المرحلة المتوسطة كانت أطول المراحل الفلسفية بإطلاق، وأمر آخر يضاف إلى هذا وهو كثرة المذاهب الفلسفية التي شغلها هذه الفترة، لذلك سميت تلك

## نقد الفلسفة الغربية

المرحلة بالعصور جمع عصر، وقد وصفت هذه المرحلة أيضاً عند الكثيرين بكلمة المظلمة، فيقال: فلسفة العصور الوسطى المظلمة؛ وذلك لما اصطبغت به هذه الفترة من سمات وسمها بها عدد كبير من المؤرخين، فقد وسموا أو وصفوا العصور الوسطى بأنها عصور جهل وظلام، لا خير فيها.

وينبغي أن لا نقف عندها كثيراً، بل يجب أن نتخاطها؛ لنصل سريعاً إلى عصر النهضة، كما وصفوا فلسفة العصر الوسيط بأنها فلسفة مدرسية، كانت تدرس بلغة لاتينية ركيكة، وكانت تسرف في استعمال المنطق الأرسطي، وكانت كذلك تقوم على المناقشات اللفظية التي لا طائل وراءها، وكانت جماع نشاط الفلسفة الوسيطة تأييد ومساندة قضايا الدين النصرانية، وكانت كذلك تعتمد على النقل دون العقل، والنقل هنا يعني أخذ كلمات رجال الدين النصراني مسلمات لا تناقش.

فالفلسفة إذًا في العصر الوسيط كانت موسومة بكل هذه السمات أو الأوصاف التي تكلمنا عنها، سخرها آباء الكنيسة لتأييد قضايا دينهم التي تناقض العقل، فأرادوا أن يسندوها بالفلسفة، فأفسدوا الفكر الفلسفي كذلك، والفلسفة الوسيطة فسدت بذلك، وأزروا بالعقل، وظلت قضايا دينهم على حالها من مناقضة العقل ومسلمات الفكر.

## المصطلح الثاني: الفلسفة المدرسية:

فلسفة العصور الوسطى توصف بأنها فلسفة مدرسية، وهذا المصطلح يطلق على فلسفة العصور الوسطى، حيث كانت الفلسفة في ذلك العصر تدرس في المدارس التي أنشأها القساوسة غالباً لتعليم الفلسفة، وكانوا ينشئونها في الكنائس؛ ولأن

الفلسفة في ذلك العصر كانت تدرس في المدارس التي أنشأها هؤلاء القساوسة ، سميت تلك الفلسفة بالفلسفة المدرسية ، وقد عرفنا قبلاً أن رجال الدين النصارى كانوا يشعرون بالتهافت الشديد للقضايا الأساسية في دينهم النصراني ، بل كانوا يشعرون كذلك ويدركون مناقضة هذه القضايا العقديّة الساقطة للعقل ومسلمات الفطرة ، فوقعوا على الفلسفة فسخروها لتأييد أفكارهم ومعتقداتهم تلك .  
لذلك نلاحظ على هذه الفلسفة المدرسية أموراً :

**الأمر الأول :** أن المدارس التي افتتحت لتدريس الفلسفة كانت دائماً داخل إطار الكنائس ، وكان القائمون على أمرها من القساوسة النصارى ، ولم يكن يدرس فيها إلا أفراد يختارهم رجال الدين النصارى تحت هدف أن يكونوا دعاة للنصرانية بعد ذلك ، وذلك عن طريق إقناع هؤلاء التلامذة بصحة عقائد النصرانية ، وتعليمهم كيف يستدلون على تلك القضايا العقديّة الباطلة بقضايا الفلسفة ، ورأس ذلك منطق "أرسطو" ، لذلك اعتبر رجال الدين النصارى منطق "أرسطو" من العلوم المساعدة لفهم الكتاب المقدس ، ومن ثم أضفى رجال الدين النصارى على هذا المنطق نوعاً من الحماية ، بل والقداسة .

**الأمر الثاني :** أن الدراسة في هذه المدارس كانت تقوم على خلط الفلسفة بالدين وخلط الدين بالفلسفة ، وجعلهما شيئاً واحداً تقريباً ، بحيث يسدون الطريق أمام دارس الفلسفة في هذه المدارس ، فإذا درس الفلسفة واقتنع بها كان ذلك اقتناعاً منه بالعقائد النصرانية ، ولا يملك غير ذلك ؛ لأنهما شيء واحد ، والذي يدل على أن الهدف من وراء هذه المدارس ليس الفلسفة ولكن تأييد العقائد النصرانية ، أن رجال الدين النصارى كانوا لا يقبلون في مدارسهم هذه إلا أفراداً مختارين لدراسة الدين مع الفلسفة ؛ ليكونوا دعاة للنصرانية بعد ذلك ، ثم إن

## نقد الفلسفة الغربية

رجال الدين المشرفين على هذه المدارس كانوا يجرون تقويمًا لتلامذة هذه المدارس كل فترة؛ ليبقوا في هذه المدارس على المقتنعين بالنصرانية من هؤلاء التلامذة، ويستبعدوا من لا يصلح، أو يستبعدوا غير المقتنع بالعقائد النصرانية، أو الذي يثير تساؤلات في النصرانية أو حول النصرانية لا يجد رجال الدين جواباً عليها.

**الأمر الثالث:** من الأمور التي نلاحظها على المدارس التي أنشئت في الكنائس لتعليم الفلسفة، أن أشهر الفلاسفة الكبار في العصر الوسيط كانوا رجال دين من الآباء والقساوسة، والكثيرين منهم قد حصلوا على لقب "سان"، أي: قديس، والقديس عندهم في الغالب هو الذي قام بأعمال تخدم النصرانية إلى حد جعل يجعل المسيح الرب في معتقدتهم يظهر له جهرة؛ ليشكره على ما قدم للنصرانية من خدمات، ويقده، ومن أمثلة هؤلاء القديسين عندهم القديس "سان أوغستين" والقديس "فونا فتورة" والقديس "ألبرت الأكبر" والقديس "توما الأكويني" أو "سان توماس" أو "توما" كما يشتهر، هؤلاء جميعاً يوسمون بأنهم القديس فلان أو سان فلان.

## المصطلح الثالث: الفلسفة الاسمية:

الفلسفة الاسمية اسم يطلق على فلسفات كثيرة، منها الفلسفة الوسيطة، والفلسفة الاسمية هذا مصطلح خاص بالمعاني الكلية التي يجردها العقل من الأفراد ثم يعطيها معنى كلياً يشمل الأفراد جميعاً مثل كلمة الإنسانية، هذا معنى الكلية.

هل لهذا المعنى الإنساني وجود خارجي أم ليس لها وجود خارجي؟ هل لها وجود ذهني أم ليس لها وجود ذهني؟

هذه المعاني أو هذا المعنى اختلف حوله الفلاسفة، المعاني الكلية التي تقوم عليها الفلسفة الاسمية هي التي تُصاغ وتستمد من الأفراد المشخصة؛ لتدل على المجموع، فمثلاً عندنا محمد وعندنا علي وعندنا زيد وعندنا حسين، هؤلاء أشخاص معينون، كل منهم إنسان، العقل مجرد من هؤلاء الأفراد معني كلياً يضمهم جميعاً، بصرف النظر عن المميزات الفردية أو الشخصية من كون هذا أبيض أو هذا أسود، أو هذا طويلاً أو هذا قصيراً أو هذا مصرياً والآخر إنجليزياً، هذه مفردات أو معانٍ لا قيمة لها، وإنما نريد أن مجرد العقل معني كلياً من هؤلاء الأشخاص، هذا المعنى الكلي يضمهم جميعهم، فنقول: الإنسانية، وكذلك نقول: الحيواني، دلالة على القرد والحصان والذب، فهذا حيوان وذاك أيضاً حيوان، فنجمعها جميعاً تحت معنى كلي يضمها فنقول: الحيواني.

هذه المعاني الكلية اختلف حولها الفلاسفة على أربعة مذاهب حول هذا المعنى أو هذه المعاني الكلية، كلمة الإنسانية، كلمة الحيوانية، كلمة العدالة أو العدل، هذه المعاني المجردة، هذه المعاني الخلاف حولها هل لها وجود خارجي أم ليس لها وجود خارجي؟ هل لها وجود ذهني أم ليس لها وجود ذهني؟

أربعة مذاهب:

**المذهب الأول:** يسميه العلماء الفلاسفة أو مؤرخو الفلسفة مذهب الوجودية المسرفة، كلمة مسرفة فيه نوع من التطرف، أصحاب هذا الرأي قد تأثروا بـ"أفلاطون" ومذهبه في المثل الذي يكرر أن كل معنى في الوجود الأرضي له مثال حقيقي في العالم الأعلى، لذلك ذهب أصحاب هذه المدرسة إلى أن المعاني الكلية لها وجود في الذهن، ولها كذلك وجود في الخارج، كلمة لها وجود في الخارج هذا هو الذي وسمها بأنها مسرفة، بل إن وجودها في الخارج كما

يزعمون أقوى وأكد من وجودها في الذهن، بل ذهب بعض أصحاب هذا المذهب في تطرفه إلى أن زعم أن كلمة عدم أو كلمة لا شيء لها وجود حقيقي في الخارج.

ولأن هذا المذهب تطرف إلى هذا المستوى فقال بما لا يعقل ولا يقبل، فقد أطلقوا عليه اسم الوجودية المسرفة، أي: المتطرفة في آرائهم.

**المذهب الثاني:** الوجودية المعتدلة: هذه المدرسة أو أصحاب هذا الرأي يرون أن الكليات لها وجود في الذهن ولها كذلك في وجود في الخارج، غير أن وجودها في الخارج مرتبط بأفراد هذا الكلي، ومرتبطة بأعراض وصفات أشخاص هذا الكلي، فوجود المعاني الكلية مقطوع بأنه في الذهن، وأما وجودها في الخارج فليس بإطلاق، بل وجودها في الخارج مرتبط بأعراض وصفات هؤلاء الأفراد أو هؤلاء الأشخاص، وهذا قول فيه نوع من التطرف أيضاً، لكنه مقبول نوع ما.

**المذهب الثالث:** الاسمية: وهذا المذهب حُصَّ بهذه التسمية، رغم أن جميع الآراء التي ذكرناها هنا هي في مذهب الاسمية، والمصطلح نفسه اسمه الاسمية، لكن هذا الرأي أو هذا المذهب الثالث خص بتلك التسمية؛ لأنه مبالغ ومتطرف في نفي وجود الكليات، إلى حد أن أصحاب هذا الرأي نفوا وجود الكلية في الخارج، وكذلك نفوا وجودها في الذهن، فقالوا: إن الكلية مثل الإنسانية والحيوانية والنباتية والعدالة وما إلى ذلك، لا وجود لها في الخارج، ولا وجود لها كذلك في الذهن، وهنا مناط التطرف الشديد عندهم، أنهم نفوا وجودها حتى في الذهن، ونفيهم وجودها في الذهن من أعجب الأمور، فإن الوجود الذهني أمر ضروري وحتمي لكي نتكلم عن شيء ما، فإذا نفيت وجود شيء ما في الذهن وفي الخارج أيضاً، استحالة أن نتحدث عنه.

**المذهب الرابع:** مذهب يسمونه الذهنية نسبة إلى الذهن، وقد سمي هذا المذهب بذلك؛ لأنه يقوم على إثبات وجود الكليات ذهنيًا فقط، وينفي وجودها في الخارج، وقد ظهر هذا المذهب في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو يقوم على أساس أن المعاني الكلية موجودة في الذهن كمعانٍ كلية مجردة، لكنها أيضًا موجودة في أفرادها كمعانٍ جزئية في كل فرد فرد، فالإنسانية معنى كلي في الذهن، لكن يبقى مع ذلك موجود في محمد وعلي وزيد باعتبار كل منهم على حدة إنسانًا، فكأن المعنى الكلي موجود في الذهن ومنقسم في الخارج على أفراد.

وهذا المذهب في الحقيقة مذهب معتدل جدًا وواقعي جدًا، وهذا المذهب الأخير هو الغالب على الفلسفات الحديثة.

**المصطلح الرابع:** الفترة الزمنية التي شغلها العصور الوسطى ابتداءً وانتهاءً:

فقد اختلف مؤرخو الفلسفة على آراء كثيرة في المرحلة الزمنية للعصور الوسطى، متى بدأت؟ ومتى انتهت؟ من أهم هذه الآراء:

**الرأي الأول:** ذهب بعض المؤرخين للفلسفة إلى أن العصور الوسطى شغلت مساحة زمنية تقدر بألف سنة - ألم أقل لكم: إن هذه أطول مساحة أو أوسع مساحة في مراحل الفلسفة كلها - تبدأ بسقوط الدولة الرومانية الغربية منتصف القرن الخامس الميلادي ١٤٠٠ وكذا، وتنتهي بسقوط القسطنطينية على أيدي الأتراك العثمانيين منتصف القرن الخامس.

العصور الوسطى نفسها التي نتكلم عنها، شغلت مساحة زمنية من منتصف القرن الخامس إلى منتصف القرن الخامس عشر، فاستغرقت عشرة قرون. هذا رأي.

**الرأي الثاني:** يرى أن العصور الوسطى تبدأ من القرن السادس وتنتهي في منتصف القرن الخامس عشر، وتكون مدتها تسعة قرون تقريباً.

**الرأي الثالث:** يرى أن العصور الوسطى تبدأ من القرن التاسع وتنتهي في القرن الخامس عشر، وتكون مدتها ستة قرون فقط.

هذه آراء المؤرخين.

لكن الذي يغلب عندنا أن العصور الوسطى تبدأ مع بداية القرن الخامس الميلادي وليس في المنتصف، ونحن نؤرخ له مع ظهور القديس "أوجستين" عندهم الذي عاش بين مائتين أربعة وخمسين أو ٤٣٠ إلى ٣٥٠، مع منتصف القرن الرابع إلى منتصف القرن الخامس تقريباً أو حول ذلك.

#### ملاحظات:

**الملاحظة الأولى:** أن هناك فترةً زمنيةً بين نهاية الفلسفة اليونانية التي انتهت مع بدايات التاريخ الميلادي وبين بداية فلسفة العصر الوسيط التي تبدأ - كما ذكرنا - في القرن الخامس، وهذه فترة تستغرق قرابة خمسة قرون، لم تحسب هذه الفترة لا مع الفلسفة اليونانية؛ لأنها انتهت مع بداية التاريخ الميلادي، ولا تحسب مع فلسفة العصور الوسطى؛ لأن العصور الوسطى بدأت في القرن الخامس أو منتصف القرن الخامس الميلادي.

خمسة قرون بين انتهاء الفلسفة اليونانية وابتداء الفلسفة الوسيطة، أين نضعها؟ الرد على هذا: أن هذه القرون جاءت بعد انتهاء مرحلة الفلسفة اليونانية النشطة، وقد حدث بعدها فترة ركود واضمحلال للفكر الفلسفي الغربي، وقد ركز الفلاسفة في تلك الفترة على نقل الفلسفة اليونانية إلى الفكر اللاتيني أو اللغة



اللاتينية، فكان جل عملهم الترجمة، وكان من أشهر هؤلاء المترجمين ومن أوائلهم الخطيب المشهور اليوناني "سشرون" الذي عاش بين سنتي خمس وستين ومائة وثلاثة وأربعين قبل الميلاد، ١٦٥ إلى ٤٣ قبل الميلاد. وهذا يعني أن حركة نقل الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية بدأت قبل التاريخ الميلادي، أي: في فترة مبكرة، ولم تبدأ هذه الحركة إلا حين عمت حركة الركود والجمود. كذلك كان من أشهر هؤلاء الفلاسفة الذين قاموا بنقل الفلسفة اليونانية إلى اللاتينية الفيلسوف المشهور "ترتليانو" ١٦٥ إلى ٢٢٠ ميلادية، وغير هؤلاء كثيرون.

**الملاحظة الثانية:** أن فلسفة العصور الوسطى لم تكن فلسفة خالصة، بل كانت نصرانية خالصة اتخذت الفلسفة وسيلةً تقنع العقل الغربي بعقائده التي لا يقبلها عقل ولا منطق، فقد كانت الفلسفة في هذه العصور الوسطى وسيلة لنشر العقائد النصرانية، وبذلك يكون من الخطأ اعتبار العصور الوسطى عصراً أو مرحلة من مراحل الفلسفة الغربية، بل هي مرحلة من مراحل نشر الديانة النصرانية، أو قُلْ: فرضُ الديانة النصرانية عن طريق الفلسفة من جانب، ومن جانب آخر وهو الأهم عن طريق القهر والقسر والإكراه.

الحاصل في هذه الفترة الثانية أننا نلفت النظر إلى أن هذه الفترة مرحلة العصور الوسطى، هي مرحلة من مراحل نشر الديانة النصرانية، وهي كذلك لها حظ من التفلسف، لكن اعتبار مرحلة دينية نصرانية أكبر وأجدر من اعتبارها مرحلة فلسفية.

**الملاحظة الثالثة:** إن هذه المرحلة قد ركز رجال الدين النصارى فيها على نشر ديانتهم بوسيلتين:

**الوسيلة الأولى:** الفلسفة على ما بينا آنفاً، حيث سخرُوا الفلسفة بنشر الديانة النصرانية، ومحاولة إقناع الناس بها، وقد بينا أن الفلسفة في العصور الوسطى لم

يكن لها مكان إلا المدارس التي تنشئها الكنائس ، ويشرف عليها رجال الدين النصارى ، وكانت مهمتها تخريج فلاسفة نصارى ينصرون النصرانية بالفلسفة ، لذلك سميت الفلسفة في ذلك العصر - كما ذكرنا - بالفلسفة المدرسية.

**الوسيلة الثانية :** محاكم التفتيش : محاكم التفتيش وتلك كانت من أسود النقاط في تاريخ الكنيسة ، بل في تاريخ الغرب كله وتاريخ النصرانية أيضاً ، رغم النقاط السوداء التي تملأ ثوب التاريخ الكنسي النصراني ، فهذه المحاكم هي أسود النقاط بإطلاق.

والمحاكم كانت هي نهاية المطاف لمراحل كثيرة كلها سوداء مخزية فاضحة للكنيسة ورجالها ، وقد حرّم رجال الدين النصارى التفكير الحر ، وكذلك حرّموا فهم شيء من مصادرهم المقدسة العهد القديم والعهد الجديد ، إلا حسب شروح الآباء والقساوسة ، كذلك حرّموا التفكير العلمي الذي يعارض ما يراه رجال الدين النصارى ، لذلك أعدموا الآلاف من العلماء حرقاً ؛ بسبب نظرياتهم العلمية عن طريق محاكم التفتيش الشهيرة هذه.

ومن أشهر العلماء الذين أعدمتهم تلك المحاكم حرقاً العالم الفلكي الشهير "كوبارنيقوس" وكادوا أن يحرقوا "جاليليو" لولا أنه أعلن خطأه وتاب عنه بالطريقة التي أرضتهم عنه في ذلك الزمان.

**الملاحظة الرابعة -** التي لها أهمية خاصة - : حيث كانت نهاية العصور الوسطى مظلمة في أوروبا وفي الغرب كله :

العصور الوسطى كانت في بلاد الغرب تسمى العصور الوسطى المظلمة ؛ لانتشار الجهالة ، والأمراض ، والجهل والغباء في هذه الفترة والظلم الشديد الذي كان يقع على الشعوب بين فلقتي الرحي من الملوك والإقطاعيين من جانب ، ورجال

الكنيسة من جانب آخر، كانت هذه العصور مظلمة فعلاً، لكن كانت في العالم الإسلامي مضيئة نيرة، أضاءها الإسلام، وأنارها العلماء المسلمون الذين فتحوا مغاليق العلم في ذلكم الزمان بجميع مجالاته في الرياضة، والكيمياء، والفيزياء، والبصريات، والطب، والفلك، والهندسة، في كل شيء، إلى آخر تلك المجالات التي كان العلماء المسلمون يخطون فيها خطوات واسعة، بينما الغرب تسربله ظلمات الجهالة والتخلف.

### أمثلة لفلسفة العصور الوسطى: "أوغستين"

نسوق أمثلة للفلسفة في تلك المرحلة من مراحل الفلسفة الغربية.

وقد عرفنا أن هذه مرحلة تبلغ زماناً ألف عام تقريباً، أو أقل قليلاً، وقد ظهر فيها من الفلاسفة أعداد يصعب حصرها، ومن النظريات والآراء الشيء الكثير، لكن الذي يخفف من العبء أن هؤلاء الفلاسفة الكثيرين وفلسفاتهم يغلب عليها طابع واحد تقريباً، هو الفلسفة المدرسية، وما دامت الفلسفة فيها مدرسية فهذا يعني أن حرية الفكر مفقودة، والفلاسفة وتلامذتهم محكومون بمنهج جامدة وضعها وأشرف على تنفيذها رجال الدين النصارى، وهذا التشابه الذي يقرب من التماثل يخفف من عبء اختيارنا مثالين أو ثلاثة من الفلسفة ومن الفلاسفة نعرف من خلالها الطابع العام للفلسفة الغربية في العصر الوسيط.

أول من نأخذ من الفلاسفة في العصر الوسيط كمثال هو القديس "أوغستين"  
٢٥٤ - ٣٠٣:

لقد اخترنا أن نأخذ أول فيلسوف له وزنه في العصور الوسطى كلها، وله فلسفته التي سنجد فيها جميع الخصائص التي تكلمنا عنها في فلسفة العصر الوسيط،

اخترنا هذا الفيلسوف ، إن جميع تلك الخصائص والملاحظات التي تكلمنا عنها نجدها واضحة غايةً الوضوح في فلسفة "أوغستين" أو كما يسمونه القديس "أوغستين".

### أولاً: حياة "أوغستين":

كانت أسرته تعيش في المغرب العربي في المنطقة التي تشغلها الجزائر الآن ، وكان أبوه وثنيًا يعبد الأوثان المنتشرة في تلك المنطقة ، وكانت أمه نصرانية ، يعني : ولد من أب وثني وأم نصرانية. أما "أوغستين" نفسه فقد ولد بمدينة صغيرة اسمها "طاجسته" من أعمال مدينة اسمها "نوميديا" وهذه المدينة يشغل مكانها الآن سوق "الأخرس" من أعمال الجزائر.

ولما ولدته أمه سارعت بتسجيله في الكنيسة التابعة لها ؛ لكي يعمد نصرانيًا تابعًا لها في الديانة ، وقد سارعت حتى لا ينشئه أبوه وثنيًا مثله ، وبعد قليل عمدته الكنيسة نصرانيًا ، تعلم اللاتينية وبرع فيها حتى إنه افتتح مدرسةً لتعليم البلاغة والبيان باللاتينية وهو في التاسعة عشرة من عمره ، وذلك بعد أن انتقل إلى روما واستقر فيها.

### ثانيًا: عقيدة "أوغستين":

اعتقد "أوغستين" المانوية -ديانة ماني الفارسي- معتقدًا أن هذه الديانة أفضل من النصرانية ، وذلك بعد أن قرأ العهد القديم -توراة اليهود- فلم يقتنع منه بشيء ، وكذلك قرأ العهد الجديد الذي هي رسائل النصارى لم يجد فيها شيئًا يفهمه ، لكنه أخذ يختلف إلى إحدى الكنائس التي كان يلقي العظة فيها رجل بليغ مؤثر ،

فانجذب إليه الفيلسوف بعد أن أعجبه أسلوبه، ومن ثم ترك المانوية وواظب على الكنيسة أكثر من سنتين، لكنه دخل في مرحلة من الشك متحيراً بين المانوية التي كفر بها والنصرانية التي لم يقتنع بعقائدها، وإن كان مشدوداً إلى أحد القساوسة، لكنه لم يجد ذلك مقنعاً، فوقع في الشك وظل على ذلك زمناً.

**ثالثاً:** تعاون كثير من القساوسة ورجال الدين النصارى على إقناعه بالنصرانية التي ربما وجدها أفضل الشرور الثلاثة: الشرور الثلاثة هذه هي الوثنية التي يدين بها أبوه، أو المانوية التي كان يدين بها هو ثم كفر بها وتركها، أو النصرانية التي وجد لها كنيسة ورجال دين يعتقدون هذا الدين ويعتنون به هو شخصياً، ويحرصون على اقتناصه وجذبه إليهم؛ لما رأوا من ذكائه ونضجه، فأملوا فيه خيراً وسنداً لهذا الدين النصراني، وكان أن ركن إلى النصرانية مستريحاً من الشك قليلاً.

ثم جاءت المرحلة الحاسمة في حياته، حيث ذهب وجماعة من أصحابه إلى الريف حيث قضوا هناك بضعة أشهر يبحثون ويفتشون ويتناقشون، ثم في هذه الرحلة سمع عن الرهبان الذين يعيشون في مصر يعانون حرماناً وفقراً، ومع ذلك يصبرون ويضحون من أجل النصرانية، فكانت نهاية المطاف بالنسبة إليه هذا الحدث.

وكان أن ذهب إلى أحد القساوسة الذي يسمى القديس "إنبرواس" وقبل منه المعمودية أي: هذا الرجل القديس عمده نصرانياً للمرة الثانية، معتبراً أن المرة الأولى لم تكن صحيحة؛ لأنه لم يكن مقتنعاً، وقد كان تعمده على يد "إنبرواس" في سنة الثالثة والثلاثين، وقد بدأ عهده مع النصرانية بعد أن تعمد على يد "إنبرواس" وقد بدأ من ذلك الوقت عمله فعاد إلى قريته التي ولد بها التي هي

"طاجسته" وعاش ومعه بعض أصدقائه عيشة الرهبان ثلاث سنين، ثم عين كاهنًا ثم مات الأسقف بعد خمس سنين، فاختره الشعب أسقفًا، ثم مات هو شخصيًا بعد خمس وثلاثين سنة في الأسقفية. هذه حياة "أوغستين" ولا يهمننا منها كثيرًا.

### فلسفة "أوغستين":

لقد أطلنا التفصيل في حياة أوغستين لكي نصل في النهاية إلى ما أشرنا إليه قبلًا من أن فلاسفة العصور الوسطى، كانت فلسفتهم ونصرانيتهم شيئًا واحدًا، وأنهم سخرُوا فلسفتهم لخدمة النصرانية، وإقناع الناس بعقائدها المناقضة للعقل والفكر.

وذلك ما سنجده واضحًا في فلسفة الرجل التي نوجزها فيما يلي:

١. لقد بان لنا من تفاصيل حياة الرجل أنه تقلب بين الكثير من الأديان، ولم يستقر على واحدة من هذه الأديان أو الديانات الوضعية، بين الوثنية ديانة أبيه، وبين المانوية، ثم النصرانية، وأنه حين دخل النصرانية هاجمته نوبة شك عنيفة ظلت معه طويلًا، ولم يتخلص منها إلا تحت ضغوط من أصدقائه ورجال الكنيسة الذين ساعدوه في محنته، ثم هرب إلى الرهبة ثلاث سنين.

وينبغي أن نلاحظ هنا أن الرهبة ضد الفلسفة أو نقيض الفلسفة؛ لأن الرهبة إسلام الإنسان نفسه إلى حالة وجدانية عاطفية بعيدة تمامًا عن الجانب العقلي والتحاور الفكري، بينما الفلسفة تعتمد على العقل والفكر اعتمادًا أصيلًا، وهذا يعني أن انخراط الرجل "أوغستين" في الرهبة لا تفسير له إلا أنه قد يأس من الاقتناع أو اليقين العقلي بهذا الدين أو بهذه الديانة النصرانية، فلم يجد بُدًّا من أن

يقذف بنفسه في تيار الرهينة ملغياً عقله وفكره، يائساً من أن يقنع عقله بشيء من عقائد النصرانية، كما سيتضح ذلك أكثر حين ننظر في فلسفة الرجل ونتمعق فيها -بحول الله تعالى.

٢. يقرر الرجل "أوغستين" أن العقائد الإيمانية لا بد أن تكون مدركة بالعقل، وهذا جيد، لكن الرجل كأى رجل دين نصراني، يعرف أن عقائده لا يقبلها عقل، يقول: إن لم تكن العقائد الإيمانية مدركة في ذاتها كالحقائق العلمية، فيكفي فيها أن تكون مؤيدة بشهادة شهود جديرين بالتصديق، هؤلاء الشهود هم الرسول والشهداء. وإذن فالرجل يقر بأن إدراك العقائد النصرانية بالعقل والاعتناع بها أمرٌ مستحيلٌ، ومن ثم انتقل إلى طريقة أخرى، فقال: إذا استحال إدراكها والاعتناع بها عقلاً، فإنه يكفي في الاعتناع بها شهادة الشهود كالرسول مثلاً، وهو يعني بالرسول هنا "بولس" الرسول، ذلكم الكذاب الذي كان اسمه "شاؤول" اليهودي، ثم سمي نفسه "بولس" الرسول.

فآل الأمر بشهادة "أوغستين" إلى أن العقل عاجز عن الاعتناع بعقائد النصرانية حيث لا يمكن الاعتناع بها، والحل أن يكتفوا هم بشهادة الكذاب الأساس "بولس"؛ لكي يقتنع بها هؤلاء النصارى، يكفي فيها شهادة "بولس"، فإذا كان "بولس" هو الكذاب الأول في هذا فكيف يأخذون بشهادته؟

٣. يقرر الرجل "أوغستين" أن العقل يمكن أن يكون مقدمة للإيمان -أي: سابقاً للإيمان- وهذا جيد، لكن الرجل يقول: العقل يقنع صاحبه بوجود الإيمان وليس بموضوع الإيمان، يعني: هذا تصريح خطير جداً للرجل، إن الرجل يقرر أن العقل لا بد أن يسبق الإيمان، لكن العقل يبحث ليس في العقائد الإيمانية،

لكن يبحث في وجوب الإيمان وليس في الموضوع، أي: إن العقل يقرر أن الإنسان لا بد أن يؤمن بدين ما، ولا يجوز أن يعيش ملحدًا، العقل يوجب ذلك، فوجوب الإيمان يوجب أن يكون الإنسان مؤمنًا بدين ما قضية عقلية مسلمة، أما عن موضوع الإيمان الذي هو عقائد النصرانية، فالرجل ينفي دور العقل فيها تمامًا، ويقرر أنها لا صلة لها بالعقل، وهذا معنى قول الرجل: إن العقل سابق على الإيمان يقنع صاحبه بوجوب الإيمان وليس بموضوع الإيمان، فموضوع الإيمان لا صلة له بالعقل عند النصرانية.

٤ - فيما يتصل بموضوع الإيمان وهو عقائد النصرانية، يقرر الفيلسوف "أوغستين" أن الإيمان هنا يسبق العقل، وأن قضية الإيمان بالنصرانية وعقائدها لا تخضع للعقل؛ لأن هذه العقائد فوق مستوى العقل، ومن ثم فلا مجال للعقل هنا، وإنما يؤمن المرء بالنصرانية دون أن يعقل أو يدرك أو يفهم تلك العقائد التي يؤمن بها. ولذلك قال الفيلسوف قاعدته الشهيرة: آمن كي تعقل، يعني: آمن أولاً دون أن تعقل، ثم بعد ذلك تعقل، يقول الرجل: آمن أولاً بالنصرانية دون فهم أو عقل، أو حتى دون أدنى إدراك لما تؤمن به؛ لأن الإنسان هنا سائمة أو بهيمة تجر من أذنها لتؤمن بشيء لا تفهمه ولا تعقله، و"أوغستين" ليس أول من قال هذا، وإنما قاعدتهم الشهيرة التي يقولون فيها عن عقائد النصرانية: إنها للاعتناق وليست للاقتناع، ويقولون: آمن أولاً يرزقك الرب اليقين، ويقولون: على قدر إيمانك يرزقك الرب اليقين.

لقد كان "أوغستين" -الذي جعله النصارى قديسًا، فقالوا: "القديس أوغستين"- متعصبًا لبني إسرائيل، ثم للنصرانية تعصبًا مقيتًا كريهًا، وكان في ذلك يكرر



عقيدة اليهود عن كونهم شعب الله المختار، أو كما قال القرآن عن اليهود والنصارى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ [المائدة: ١٨].

كذلك الرجل إلى هذا ذهب، حيث قسّم البشر منذ آدم إلى قسمين أو كما يقول: مدينتين، هذان القسمان أو المدينتان كانت من "قايين" إلى إبراهيم الخليل - قايين هو قابيل بن آدم - مدينة واحدة، ويقول: كان الناس فيها جنساً واحداً، لكن منذ جاء إبراهيم # أبو المؤمنين - يقصد أبا اليهود والنصارى كما يقول الرجل - بدأت المدينتان تتمايزان كالآتي: المدينة السماوية يمثلها بنو إسرائيل، والمدينة الأرضية يمثلها باقي البشر الذين يجب أن يكونوا في خدمة بني إسرائيل.

هكذا ذهب الرجل الذي يسمونه قديساً!! وقديس هذه لا تعني عندنا إلا أنه قد أغلق عقله وقلبه تماماً، ووقع فريسة دين أو عقائد باطلة فاسدة.



تابع: الفلسفة الغربية في العصور الوسطى

عناصر الدرس

- العنصر الأول : الفيلسوف: "روجر بيكون" ١٨٧
- العنصر الثاني : الفيلسوف "ألبرت الكبير" ١٩٧



#### الفيلسوف: روجر بيكون

فقد تحدثنا عن فيلسوف يعتبر عند الغربيين النصراري أشهر الفلاسفة في العصر الوسيط وربما بإطلاق، هو "أوغستين"، أو القديس "أوغستين" كما يدعونه!. والآن نقدم فيلسوفاً آخر له شهرة خاصة جداً عند الأوربيين، حيث كان من أوائل بل لعله الأول بإطلاق الذي دَعَا إلى نبذ العلوم النظرية، وهاجم منطق "أرسطو" وقاوم الاشتغال به، وذكر أن هذا المنطق -منطق "أرسطو"- هو السبب في تأخر العلوم التجريبية، وفي تخلف الأمم الغربية، ثم ذكر كثيراً من الوسائل والطرق التي ظن أنها تأخذ بيد العلوم التجريبية والعملية، إضافة إلى أنه ساهم بقدر ضئيل في اختراع بعض الأشياء التي لا تزيد عن تحسين بعض الآلات البصرية، أو حول ذلك.

لذلك كانت جهوده في الجوانب النظرية والفكرية هي المعتبرة، وهي التي أهلتها للمنزلة التي شغلها في تاريخ الفكر الفلسفي الغربي.

#### فمن هو ذلك الفيلسوف؟

الفيلسوف الذي نحن بصدد الحديث عنه هو "روجر بيكون" فيلسوف إنجليزي، ولد سنة أربعة عشر ومائتين وألف، وتوفي سنة أربع وتسعين ومائتين وألف، عاش قريباً من ثمانين عاماً. درس في "أكسفورد" ثم بعد أن أنهى دراسته سافر إلى باريس، وأقام بها قريباً من ثماني سنوات، ثم عاد إلى جامعة "أكسفورد" فعمل بها أستاذاً، ثم منعه إدارة الجامعة من التدريس بها؛ لأنه كان يدرس السحر والتنجيم والشعوذة ضمن العلوم التجريبية.

## نقد الفلسفة الخيرية

ولما طرد من جامعة "أكسفورد" سافر مرة أخرى إلى باريس، وظل مصرًا على رأيه في إدخال السحر والتنجيم والشعوذة ضمن العلوم التجريبية المعتبرة، وقد أمضى بقية حياته يقاوم العلوم النظرية ويعارضها، ويدعو إلى العلوم التجريبية حتى آخر حياته.

## آثاره وفلسفاته :

**أولاً:** أول ما نلاحظ على الفيلسوف "بيكون" أنه غارق في نصرانيته حتى النخاع، فهو يقدم اللاهوت على كل شيء من جانب، ومن جانب آخر يسخر كل فلسفته لنصرة النصرانية حتى وهو يتكلم عن التجربة، ويحض على العلوم التجريبية؛ لا ينسى ديانته النصرانية، فيصرح بأن نهاية العلوم التجريبية - أي: أن الهدف والغاية منها - أن ينتصر العلم وتفوز المسيحية - يقصد النصرانية - ولا ندري ما علاقة النصرانية بالعلم لتفوز بفوزه رغم أن النصرانية ممثلة في رجال الكنيسة ظلت تحارب العلم والعلماء، بل وكم قتلت من العلماء جزاء اختراعاتهم ومكتشفاتهم؟!.

**ثانياً:** درس الفلسفة واهتم بها في بداية حياته فاشتغل بدراسة "أرسطو" ثم اشتغل بدراسة الفلاسفة المتسبين إلى الإسلام، فأعجب جداً بل افتتن بالفيلسوف ابن سينا، وفضَّله على جميع الفلاسفة بل فضله حتى على "أرسطو" إلى حد أنه أطلق على ابن سينا لقب "رب الفلسفة" وأطلق عليه كذلك "زعيم الفلاسفة" لكنه رغم ذلك ينتقد ابن سينا في قوله بأزلية العالم، وأن العالم قديم لم يخلقه الله، كذلك ينتقد ابن سينا في قوله بنظرية الصدور.

**ثالثاً:** وجه الرجل - أعني: "روجر بيكون" - أكبر اهتمام إلى التجربة وإلى العلوم التجريبية، وفي هذا الإطار سنأقضى هجوم على العلوم النظرية، وتحديدًا على

المنطق الأرسطي الذي اتهمه بأنه علم عقيم، لا يؤدي إلى نتائج علمية، وفوق ذلك اتهمه بأنه السبب الحقيقي وراء تخلف العلوم بشغل الناس بالمجادلات اللفظية والأشكال الصورية، وصرّفهم عن العلوم العملية التجريبية.

وقد وجه الفيلسوف "روجر بيكون" إلى منطق "أرسطو" نقوداً قاسيةً، منها ما هو حق وكثير منها تجنّ بغير حق، وكان الرجل أول فيلسوف يجرؤ على مهاجمة منطق "أرسطو" بهذه الضراوة والقسوة، وقبله لم يجرؤ أحد على مهاجمة المنطق، حيث كانت الكنيسة تضي عليه حمايتها، حيث اعتبره رجال الدين النصارى من العلوم المساعدة لفهم الكتاب المقدس وعلوم النصرانية، لذلك لما هاجمه "روجر بيكون" انتصب للدفاع عنه عددٌ كبير من رجال الدين النصارى حتى جاء "توما الأكويني" وبعده "جون ديلسس كوت" وغيرهما، فركزاً هجوماً عنيفاً على "بيكون" ثم ركزاً أكثر على إضفاء الحماية بل والقداسة على منطق "أرسطو". لكن ذلك لم ينفذ كثيراً، حيث كانت الضربة الأولى التي وجهها "روجر بيكون" إلى المنطق قد جرأت الناس عليه، وقبل ذلك قد جرأت الفلاسفة على الخروج على الكنيسة والاستهانة بتعاليمها.

**رابعاً:** في سبيل تأكيد الفيلسوف "روجر بيكون" على أهمية التجربة، وأنها وحدها الموثوق بنتائجها، وأن كل ما عداها من وسائل المعرفة هي وسائل باطلة لا تفيد، ذكر الرجل وسائل المعرفة، وحصرها في ثلاث:

**الوسيلة الأولى:** النقل عن الغير.

**الوسيلة الثانية:** الاستدلال على الخبر بأدلة مؤكدة.

**الوسيلة الثالثة:** التجربة.

## نقد الفلسفة الغربية

وبعد أن حصر الرجل جميعاً وسائل المعرفة في هذه الثلاثة، أخذ يفندها واحدةً واحدةً، فيقول: إن النقل عن الغير مهما كان ذلك الغير ثقة فإنه لا يفيد علماً ما لم تثبت التجربة صدق المنقول، إذاً التجربة هي التي ستثبت صدق المنقول. كذلك قال: الخبر الذي ينبني على الأقيسة الصحيحة لا يُقبل ابتداءً؛ لأن القياس قد يكون قياساً سُفسطائياً ما لم يقيم الدليل على صدقه بالتجربة، يعود الرجل مرة أخرى بالوسيلة الثانية فيعقلها ويربطها بالتجربة.

يبقى بعد ذلك الوسيلة الثالثة التي هي التجربة وحدها، فيقرر أن التجربة وحدها هي الدليل القاطع الصادق على قبول الخبر أو رفضه، ومن ثم فهي الوسيلة الصادقة للمعرفة، وما عداها فهي وسائل باطلة لا تفيد علماً ولا عملاً.

**خامساً:** وصل هوس الرجل بالتجربة حدّاً جعله يتخطى حدود الضرورات، حين يقرر أنه حتى في الرياضيات لا تُقبل نتائجها إلا بالتجربة، يعني: لو قلت: أضفت واحداً "زائد" واحداً يساوي اثنين، يقول: لا، نقوم بالتجربة أولاً، وصل إلى حد الهوس.

ومثل ذلك يقول في الضرورات الحسية فيقول: إن الأخبار بأن النار محرقة أمر لا يقبل إلا بالتجريب، ثم يقول مدللاً على طريقته الفاسدة هذه: لو فرضنا أن رجلاً لم ير النار قط، وأنت أخبرته بضرورة البعد عنها؛ لأنها محرقة، فإنه لن يصدقك ويتعد عن النار إلا بالتجربة، وذلك بأن يضع يده في النار؛ ليقنع بصدق ما تقول.

وهكذا يذهب الخيال بالرجل إلى حد أن يفترض وجود رجل في زماننا هذه أو في زمانه هو لم يسمع بالنار، ولم يرها، وهذا افتراض أيسر منه الخيال والوهم.



**سادساً:** الرجل صاحب خيال خصب سبق به زمانه بمراحل كثيرة، فهو يملك خيالاً خصباً - كما ذكرنا - لكن آفة الخيال الجرأة والتحمم، لذلك بدأ الرجل يذكر أنواعاً من العلوم والآلات والاختراعات والقوى الطبيعية التي يمكن أن يسخرها الإنسان لخدمته، وضرب لذلك أمثلة كثيرة، فذكر مخترعات يتخيلها وهو ينتظر أن تتحقق في مستقبل الزمان، ذكر من المخترعات التي تخيلها هو المخترعات الآتية:

يقول: حمامات ساخنة تحتفظ بسخونتها بغير نار، تخيل وجود هذا أو سوف توجد هذه، ثم يقول: مصابيح تضيء باستمرار دون تجديد وقودها. من الأمور أيضاً التي تخيلها يقول: مواد ملتهبة تهلك جيشاً بأكمله في طرفة عين، ثم يقول أيضاً: مواد متفجرة تحدث دويًا هائلًا وأضواءً شديدة، يتخيل مرايا ترسل على العدو أشعة تحرقه، ثم يقول: مساحيق تهلك الحيوانات في طرفة عين، ثم يقول: سحب مسمومة، ثم يقول: مرايا مسحورة تكثر الصور وتكبرها، وأخرى تصغرها، ثم يقول: آلات وأدوات توفر للناس الراحة وترفه عنهم، يتخيل هذا.

ثم يتخيل بأنه سيوجد مخترعات منها سفن بلا مجاديف ولا أشرعة يدفعها شخص واحد، فتجري بقوة وسرعة لا تبلغ إليها سفننا ولو كانت غاصة بالمجاديف والمجدفين، ثم يقول أيضاً: مركبات شديدة السرعة تجري بذاتها دون أن يجرها حيوان، ثم يتخيل أيضاً: آلات طائرة يحرك الإنسان أجنحتها كما يفعل الطير، ثم يتخيل آلات للغوص في أعماق البحر دون التعرض لأي خطر، ويتخيل أيضاً آلات لرفع الأثقال الضخمة بسهولة، ثم يتخيل وجود جسور تُقام على الأنهار دون أعمدة تسندها.

هذه بعض أحلام الفيلسوف "بيكون" الذي كان يحلم بأن الإنسان سوف يصل إلى تحقيقها، ربما في حياة الفيلسوف وربما في حياة أخرى بعد موته.

والذي نلاحظه أن الكثير مما كان يحلم به هذا الرجل في هذه المنظومة من المخترعات، قد تحقق فعلاً، وإن لم يكن الفيلسوف يدرك في زمانه كيفية التحقق، وللإنصاف فإن الرجل لم يزعم معرفة كيف تتحقق هذه الأمور، لكنه أشار إليها وتخيلها، وترك كيفية تحقيقها إلى الزمن والظروف. فالسفن التي تمشي بسرعة بلا مجاديف ولا أشرعة تملأ سطح البحار والمحيطات الآن، والعربات التي تجري بسرعة دون أن يجرها حيوان تملأ الشوارع والطرقات الآن، والآلات التي توفر للناس الراحة وترفه عنهم تملأ الأبيات الآن، وليس أكثر من التلفزيونات والراديو والمسجلات وهكذا، وكذلك المساحيق، والسحب المسمومة التي تهلك الحيوان والإنسان، والتي تهلك جيشاً بأكمله في طرفة عين، قد تحقق منذ زمن.

كل ذلك وغيره قد تخيله الرجل، ثم طُبق في عصرنا، لكن المهم أن هذا لا يحقق للرجل ميزة على غيره سوى سعة الخيال من جانب، والجرأة والتقحم من جانب آخر.

**سابعاً:** لقد أشرنا إلى أن سعة الخيال أفتها الجرأة والتقحم، ثم إطلاق الإنسان العنان لخياله دون حدود يقف عندها، وذلك ما وقع من الفيلسوف "بيكون"، حيث اندفع مع خياله الجامح فأورده الموارد، لقد جمع بالرجل خياله حتى جعله يضع السحر والتنجيم والشعوذة في مستوى واحد مع الرياضيات والكيمياء والفيزياء والطب والهندسة. بل إن الرجل جعل من السحر والتنجيم علوماً عظيمة على قدر كبير من المنفعة للإنسان، وأقام وزناً كبيراً للأحجية والتمائم والتعاويد.

وقد ذكر الفيلسوف أموراً ثلاثة أقام عليها صروحاً من الخيال الذي لا نستطيع أن نصفه سوى أنه خيالٌ مريضٍ، وأن صاحبه كان أولى به أن يصنف ضمن المرضى النفسيين، ولقد سبق وذكرنا أنه عمل مدرساً بجامعة "أكسفورد" لكن الجامعة منعتته من متابعة التدريس بها، بسبب أنه أخذ يدخل السحر والتنجيم ضمن علوم الرياضيات والكيمياء، ورغم أن الجامعة رفضته بسبب هذه المزاعم، إلا أنه ظل مصرّاً على رأيه هذا في السحر والتنجيم حتى نهاية حياته؛ بل لقد أخذ يجتهد ليقيم السحر والتنجيم على ما ظنه قواعد علمية صحيحة، ولن نطيل في مناقشة ما ظنه أدلة علمية قاطعة.

لكن سنشير إشارة موجزة إلى أمرين اعتقدهما الرجل وقعدَ لهما، وأخذ يبحث فيهما، بل واشتغل بهما كثيراً، معتقداً أن بإمكانه أن يسلكهما ضمن العلوم المعترف بها.

هذان الأمران هما:

**الأمر الأول:** حَجَر الفلاسفة، أو ما كان يسميه هكذا بعض المشتغلين بالسحر والشعوذة والتنجيم عند العرب، وكانوا يظنون أو يزعمون أنه حجر سري يحول المعادن بعضها إلى بعض، وتبعاً لذلك فإن في قدرة هذا الحجر أن يحول النحاس إلى ذهب، وله إضافة إلى ذلك منافع سحرية عجيبة، وقد خصص له "بيكون" أبحاثاً مطولةً غامضةً، وله أفكار عن ذلك الحجر المزعوم اعتبرها سريةً لم يبح بها لأحد.

هذا هو الأمر الأول الذي اهتم به "بيكون".

**الأمر الثاني:** وهو أخطر من هذا بكثير، وهو ما يسميه "إكسير الحياة" سر الحياة هكذا أسماه الفيلسوف، وهذا مصطلح معروف عند السحرة والمنجمين

## نقد الفلسفة الغربية

والمشعوذين ، وحول هذا الشيء الذي يسميه "بيكون" "إكسير الحياة" تأتي مزاعم كثيرة ، فالفيلسوف يدعي أنه عن طريق هذا الشيء يستطيع أن يطيل عمر الإنسان ضعف ما هو عليه في العادة ، ثم يقرر أن عمر الإنسان الآن لا يتجاوز ثمانين عاماً ، لكن إذا نحن نحينا الأمور التي تؤدي إلى قصر العمر وضعف الشيخوخة من الإسراف الجسمي ، والإجهاد البدني ، واستعملنا "إكسير الحياة" أمكن للإنسان أن يعيش أعماراً طويلةً أضعاف ما يعيش الآن ، ويبدو أن الرجل فهم أن النسرين يعيش فوق المائة عام ، فقال ضمن ما قال : إن "إكسير الحياة" يمكن أن يجعل الإنسان يعيش ثلاثة أضعاف عمر النسرين أي : ثلاثمائة عام.

**ثامناً :** الفيلسوف يقرر أن التنجيم علم صحيح ، من حيث إن حركات الأجرام السماوية هي علل الأحداث الأرضية ، فإذا عرفنا قوانين حركة الأفلاك السماوية استطعنا أن نعرف الماضي والمستقبل ، ونعدّل الحاضر على ما نشاء ونريد ، ويرى : أن المنهج الصحيح في علم التنجيم إنما هو المقارنة بين الأحداث الإنسانية المسجلة في التاريخ. يقصد اسم الشخص ، وتاريخ ميلاده واسم أمه وأبيه وهكذا. يقول : نقارن بين هذه وبين مواقع النجوم في أوقاتها المختلفة. ويرى : أن ذلك يمكننا من معرفة الحاضر والمستقبل للشخص الذي درسنا حاله ، ويقرر الرجل كذلك ، يقول بالنص : إنه يمكن تعديل أخلاق شعب بأكمله إذا ما استخدمنا التأثيرات السماوية المنتشرة على سطح الأرض ؛ لتعديل الجو ، قال : ويمكن استعباد شخصاً مدى الحياة إذا جعلناه يأكل نباتاً زُرِعَ ونما تحت تأثير موقع معين من مواقع الشمس. أمر عجيب وخيال مريض !.

**تاسعاً :** يرى الفيلسوف : أن السحر علم يوصل إلى علوم مدهشة ، ويحدث نتائج غريبة بمجرد التلفظ بكلمات معينة ، ذلك أن الأجسام بما فيها جسم الإنسان

ينبعث منها بخارات ضارة وبخارات نافعة -أبخرة يريد- فإذا اجتمع ذلك مع مواقع مناسبة للنجوم، وصاحب ذلك تكرار كلام معين له تأثير معين، فإن ذلك يغير من حياة الأشخاص، ويغير من ظروفهم الحياتية تغييراً جذرياً، وبخاصة إذا صاحب ذلك كلام مكتوب كالأحجية، والتمائم، والتعويذات المكتوبة بطريقة معينة.

خلاصتها: أن الرجل الذي يعتبرونه فيلسوفاً كبيراً إنما هو في واقع الأمر مُخرّفٌ كبيرٌ.

**تاسعاً:** نصل إلى ثمرة ذلك كله عند الرجل، حيث يقدم النصيحة للقائمين على أمر النصرانية، فيقرر الآتي:

**أولاً:** يجب معرفة أسرار السحر والتنجيم والاحتفاظ بذلك كله سرّاً؛ حتى لا يطلع عليه الكفار أعداء المسيحية -ويقصد النصرانية- فينتفخوا به، بينما يجب قصر الانتفاع بالسحر والتنجيم على المسحيين فقط أي: النصارى فقط.

**ثانياً:** يرسم الرجل كيفية الانتفاع بالسحر والتنجيم في خدمة النصرانية، والتغلب على الكفار، فيقرر الآتي:

أ. السحر والتنجيم يأتي بأمور تفوق أعمال وظواهر الطبيعة، ومن ثم ينبغي إظهارها أمام الناس على أنها معجزات مسيحية أو نصرانية.

ب. هذه الأعمال السحرية التي تظهر كأنها معجزات يمكن أن يستفيد منها المنصرون -أي: الذي يسمونهم مبشرين، وهم مبشرون بجهنم- الذين ينشرون النصرانية بين الشعوب الكافرة، كيف يستفيد المنصرون بالسحر والشعوذة في نشر النصرانية ونفع النصارى.

## نقد الفلسفة الغربية

- يقول الرجل : يمكن أن يستفيد المنصرون بالسحر والتنجيم بأمر ثلاثة ، هي :
- الأمر الأول :** أن نتائج السحر تظهر أمام الكفار - غير النصارى يقصد- كأنها معجزات ، فتجذبهم نحو الإيمان بالنصرانية.
- الأمر الثاني :** أن علم السحر والتنجيم يمكن أن يكشف خداع وكذب الأديان الباطلة التي يدين بها الكفار.
- الأمر الثالث :** أن استعمال السحر والتنجيم في إقناع الكفار بالنصرانية سوف يوفر على النصارى الكثير من الدم والمال الذي يبذلونه في إقناع الكفار بالنصرانية ، أو في شن الحروب عليها.

## نقد فلسفة "بيكون" لهذه الجوانب :

١. أنه عصبي الطبع ، جامد الفكر ، ليس لديه أي قدر من المرونة ، أو تقبل الحق من الغير ، بل يجمد على فكره مهما كان على خطأ ، وضح لنا ذلك من التزامه بتدريس السحر والشعوذة بـ"السوربون" ولما حاولت معه إدارة الجامعة لإبادة خطئه وطلبت إقلاعه عن هذا الخطأ ، لم يقبل وترك الجامعة.
٢. أنه صاحب خيال يسبق زمانه أحياناً ، لكنه إلى جانب ذلك صاحب جرأة واندفاع بلا روية أو توسط ، أي : هو قريب إلى الحمق منه إلى العقل.
٣. أنه يؤمن بالنصرانية إيماناً قوياً ، ولكن إيمانه قائم على التعصب والحمق ، حيث يقرر ويوضح أن اللاهوت النصراني يقوم على التسليم ولا يقوم على العقل.
٤. لديه هاجس مرضي في نشر النصرانية ، أي : في تنصير الشعوب التي يسميها الكافرة ، من ثم يقدم النصيحة الواحدة بعد الأخرى في نشر النصرانية ،

ويقدم النصيحة في كيفية استعمال السحر؛ لخداع الشعوب وإظهار آثاره على أنها معجزات.

في آخر حديثنا عن هذا المخرف نذكر بأن هذا مثال لفلاسفة النصرانية في العصر الوسيط.

### الفيلسوف "ألبرت الأكبر"

يمكن أن ننظر نظرة عجلاء إلى فيلسوف متميز يحقق هدفنا من دراسة فلسفة العصور الوسطى، ويبين ما ذكرناه آنفاً من أن الفلسفة في هذا الدور كانت فلسفة دينية نصرانية، كما يؤكد لنا على حقيقة أخرى، توخينا أن نبينها فضل تبين تلك الحقيقة التي تقرر أن جميع عقائد الدين النصراني مصادمة للعقل، مناقضة للفطرة، وحين تأتي هذه الشهادة من الآباء النصارى أنفسهم تكون حاسمة.

نتكلم عن الفيلسوف الشهير "ألبرت الكبير" أو "ألبرت الأكبر" ولقبه الرسمي القديس "ألبرت الأكبر" أو "سان ألبرت الأكبر".

ولد بإقليم "بافاريا" في جمهورية ألمانيا الاتحادية الآن، وذلك سنة ست ومائتين وألف، وتوفي سنة ثمانين ومائتين وألف، درس في بلده حتى سن السادسة عشرة، ثم هاجر إلى إيطاليا فدرس في عدة جامعات هناك، ثم دخل رهبنة "الدومينكان" ثم درس في باريس حيث حصل على لقب أستاذ في اللاهوت، وبعد ذلك عكف على تدريس اللاهوت في جامعات فرنسا، وهنالك لقي إقبالاً شديداً وثناءً عظيماً من المجتمعات العلمية، ثم لقب بـ "الأكبر"؛ تمييزاً له عن المشاركين له في الاسم كلمة "ألبرت".

## نقد الفلسفة الغربية

ثم حصل على لقب "سان" أي: قديس، وقد ذكرنا آنفاً: أن هذا اللقب يكون غالباً بسبب ما يُزعم من أن صاحبه قدم خدمات للنصرانية، اقتضت أن ينزل المسيح الرب بنفسه - برأه الله مما يقول الظالمون - فيشكره بشخصه على ما قدم للنصرانية.

عرفنا أن "ألبرت الأكبر" كان أستاذاً في اللاهوت من جامعات باريس، وأنه اشتغل بتدريس اللاهوت بعد ذلك، ثم كان قديساً نصرانياً، ثم أمضى حياته في العظات والخدمات للنصرانية، وهذه أربع صفات تجعل شهادة الرجل في النصرانية فوق مستوى الشبهة، وبخاصة عند النصرانية.

نحن ندرس فلسفة الرجل لنبين النقاط الآتية:

**أولاً:** كان الفيلسوف "ألبرت الأكبر" متأثراً بفلسفة "أرسطو" و"أفلاطون" معاً، وكان متأثراً أكثر بفلسفة الفارابي وابن سينا وموسى بن ميمون الذي يسميه الغربيون "ميمونيدوس" وتأثره بهؤلاء جميعاً يجعلنا ننتظر منه أن ينهج منهجاً عقلياً خالصاً.

**ثانياً:** الفيلسوف قاوم العقل، وخرج على مقتضيات النزعة العقلية، وانتقل بوضوح شديد من عدوة العقل إلى عدوة التسليم اللاهوتي بقضايا النصرانية التي تناقض العقل والفطرة، لكن السؤال: كيف انتقل الرجل وهو الفيلسوف الأرسطي السيناوي من احترام للعقل واعتزاز به إلى إهماله إهمالاً كاملاً، والتسليم بقضايا النصرانية، وقبول جميع عقائدها التي تناقض العقل وتنقض الفطرة؟

والجواب هنا يكمن: في أن الرجل صار في طريقين متعارضين:



**أولاً:** درس الفلسفة واشتغل بها، لكنه في نفس الوقت اتجه لدراسة اللاهوت النصراني، وتخصص فيه.

**ثانياً:** قضى حياته يشتغل به، واللاهوت النصراني من شأنه أنه يعارض العقل ويناقض الفطرة، ويزري حتى بالأوليات.

فالرجل إداً وقف بين تيارين متعارضين كل منهما يجذبه إلى طريق التيار الفيلسفي العقلي، والتيار اللاهوتي النصراني المعارض للعقل، والرافض للفهم، لكن يبدو أن التيار اللاهوتي هو الذي انتصر واحتوى الرجل، فكان الرجل من أنصاره وإن كان قد ظل محسوباً على التيار الفيلسفي.

ولكن كيف استطاع الرجل أن يعايش هذين التيارين المتعارضين في وقت واحد؟:

**ثالثاً:** فصل الرجل "ألبرت الكبير" بين الفلسفة واللاهوت، وقرر أن كلا منهما له مجاله الخاص به، وقد حسم الفيلسوف قضية العلاقة بين الاثنين، فقرر أن اللاهوت يقوم على الوحي وليس العقل، ومن ثم قرر أن الأمور اللاهوتية لا تتفق في مبادئها مع الأمور الفلسفية، ذلك أن اللاهوت يقوم على الوحي دون العقل - هذا تصريح على أعظم قدر من الخطورة من رجل فيلسوف لاهوتي - وهذا يعني أننا - كما يقرر الفيلسوف - لا نستطيع أيضاً في الفلسفة الخوض في مسائل لاهوتية وذلك أمر طبيعي؛ وذلك لأن الفلسفة عقل واع واللاهوت النصراني لا يستقيم مع عقل ولا فطرة.

من هنا نكرر القاعدة النصرانية: أن العقائد النصرانية للاعتناق وليست للاقتناع، وأنها لا تخضع للتعقل؛ لأنها فوق مستوى العقل. هكذا يزعم.

## نقد الفلسفة الغربية

**رابعاً:** يرى الفيلسوف "ألبرت الأكبر" من منطلق نصراني بَحْت: أن اللاهوت أعظم من الفلسفة، ومن ثم فإن الفلسفة لا تحتاج إلى اللاهوت، ولأنه لا يجوز أن يكون اللاهوت في خدمة الفلسفة؛ لأن الفلسفة أقل منه وأحق، لكن الفلسفة يجب أن تكون في خدمة اللاهوت، وذلك يذكرنا بما ذهب إليه الفيلسوف السابق "روجر بيكون" الذي دعا إلى استغلال الفلسفة والسحر والتنجيم والشعوذة؛ لخدمة النصرانية. لذلك يقرر الفيلسوف الذي معنا "ألبرت الأكبر" أن الفلسفة يجب أن تسخر لخدمة اللاهوت النصراني، فاللاهوت النصراني بحاجة شديدة للفلسفة؛ كي تخدمه وتيسره، وتقع الناس به، وبدون الفلسفة قد ينجذب الكثيرون إلى الأديان الكافرة.

**خامساً:** يهمننا هنا -وأخيراً- أن نقرر أن الفيلسوف "ألبرت الأكبر" يرى ويقرر: أن النصرانية تشتمل على عقائد، وأن أهم عقائدها بل عقائدها جميعاً لا تستقيم مع العقل، وأن عقائد النصرانية لا يمكن أن يعتقدتها الناس بمقتضى عرضها على عقولهم، بل ذلك أحرى أن يتركوها، ومن ثم فلا بد من بذل جهود فلسفية لإقناع الناس بتلك العقائد النصرانية.

من هنا نلاحظ أمرين قد ركز عليهما الفلاسفة النصارى جميعاً وبخاصة في العصر الوسيط:

**الأمر الأول:** أنهم جميعاً دعوا إلى استغلال الفلسفة في خدمة النصرانية، وجعل الفلسفة أداة إقناع بعقائد النصرانية، بل إن منهم من دعا إلى إعمال السحر والتنجيم والشعوذة؛ لخداع الناس، وإقناعهم بالنصرانية -مثل ما رأينا عند "روجر بيكون".

**الأمر الثاني:** أن الفلسفة في العصر الوسيط قد اتحدت بالدين النصراني، فصاراً كأنما شيء واحد، وقد أصبحت الفلسفة هي النصرانية، وكذلك أصبحت النصرانية هي الفلسفة، يعملان في مجال واحد، وذلك المجال لصالح العقيدة النصرانية، وذلك أمر نبهنا إليه قبلًا ولفتنا إليه الأنظار.

إن الإنسان ليعجب من هؤلاء الذين يدينون بأديان باطلة لا تقوم على أساس من الفطرة أو الضرورات والأوليات، والأعجب من ذلك أن بعض هذه الأديان تناقض العقل وتعارض الفطرة، وتذهب بالبدهيات، وبدلاً من أن يراجع الإنسان نفسه ويعدل من صلواته بربه، ويبحث عن الصراط السوي، بدلاً من ذلك يفتش عما يؤيد هذه الضلالات ويؤكد لها، والأعجب من العجب أن يكون هؤلاء الضالون من المثقفين الفلاسفة، إنما نتلمس الأعذار للجهال والحمقى، لكن ماذا نقول إذا كان هذا الضلال من مثقفين بل في الفلاسفة؟!.



### الفلسفة الحديثة

#### عناصر الدرس

- العنصر الأول : من خصائص الفلسفة الحديثة: حركة الإصلاح الديني ٢٠٥
- العنصر الثاني : ظهور المذهب الإنساني وانتشار الإلحاد في الحياة الغربية ٢١٣
- العنصر الثالث : سلخ الفلسفة عن الدين، وإلحاق حريات للنصارى، وظهور المخترعات ٢١٤



## من خصائص الفلسفة الحديثة: حركة الإصلاح الديني

وقبل أن ندخل في خضم الفلسفة الحديثة الفسيح أذكركم بأننا ذكرنا قبلاً أن مؤرخي الفلسفة الغربيين يقسمون مراحل فلسفتهم إلى خمسة أدوار هكذا:

**الأول:** الفلسفة اليونانية، والتي تسمى الفلسفة القديمة.

**الثاني:** الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى.

**الثالث:** فلسفة النهضة أو عصر النهضة.

**الرابع:** الفلسفة الحديثة.

**الخامس:** الفلسفة المعاصرة.

وقد بينا أن ذلك التقسيم منهم يعتبر تعنتاً وتكلفاً، وأن الواقع الواقعي الفكري والفلسفي يجعل هذه المراحل ثلاثاً، وعلى ذلك يمكن تقسيم الفلسفة الغربية إلى الأدوار الآتية:

١. الفلسفة اليونانية التي تسمى القديمة.

٢. الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى.

٣. الفلسفة الحديثة.

والفلسفة الحديثة - في رأينا - تشمل ما يسمونه فلسفة عصر النهضة الذي يضعونه قبل الفلسفة الحديثة، ثم الفلسفة المعاصرة التي يضعونها بعدها - أي: بعد الفلسفة الحديثة - فالفلسفة الحديثة تشتمل على دور قبلها هو ما يسمونه عصر النهضة أو فلسفة النهضة، وتشتمل أيضاً على عصر بعدها، وهو ما يسمونه

## نقد الفلسفة الغربية

بالفلسفة المعاصرة؛ فتكون أدوار الفلسفة الغربية ثلاثة أدوار فقط، وتكون هذه الأدوار: الفلسفة القديمة اليونانية، الفلسفة الوسيطة، ثم الفلسفة الحديثة.

ونكون قد جعلنا فلسفة عصر النهضة جزءاً من الفلسفة الحديثة، ويمكن أن نعتبر ما يسمونه فلسفة عصر النهضة، والذي يستغرق قريباً من قرن ونصف من منتصف القرن الخامس عشر حتى نهاية القرن السادس عشر - يُمكن أن نعتبر هذه الفترة تمهيداً للفلسفة الحديثة، أو تطوراً طبعياً من فلسفة العصور الوسطى إلى الفلسفة الحديثة.

دعونا نتجه إلى دراسة الفلسفة الحديثة، والتي جعلناها تشمل فلسفة عصر النهضة، وجعلناها كذلك تشمل الفلسفة المعاصرة.

كل دور من أدوار الفلسفة له خصائص وله مميزات، وإلا ما استحق أن يسمى دوراً بخاصته، أو دوراً خاصاً مميّزاً بين الأدوار كلها، لا بد أن يكون لديه أو له من الخصائص والمميزات ما يجعله يستحق أن نسميه دوراً من أدوار الفلسفة، أو مرحلة من مراحلها.

الفلسفة الحديثة كذلك لها خصائص ومميزات، هذه الخصائص والمميزات هي التي جعلت هذه الفلسفة تختص بدور وحدها متميزة عن الفلسفات والأدوار والمراحل الفلسفية التي جاءت قبلها، مع ملاحظة أن هذه المميزات والخصائص سوف نراها - بحول الله تبارك وتعالى - متمثلة في المذاهب الفلسفية الحديثة.

وخصائص الفلسفة الحديثة ومميزاتها كثيرة، لا نستطيع أن نأتي عليها جميعها، وبخاصة وأن أنظار المؤرخين للفلسفة الغربية تختلف حول هذه المميزات، وحول هذه الخصائص، منهم من يعدُّ منها خصائص ومميزات لا يعتبرها غيره كذلك، ولذلك نتحدث عن خصائص ومميزات الفلسفة الحديثة بإيجاز:



**أولاً:** نتتقي منها أهمها، ونتتقي منها كذلك ما اجتمعت عليه آراء المؤرخين لهذه الفلسفة:

من أهم مميزات وخصائص الفلسفة الحديثة، بل والعوامل التي أثرت فيها، ووجهتها وجهات معينة:

### أولاً: حركة الإصلاح الديني:

حركة الإصلاح الديني قامت على ثلاث قضايا... قضاياها وأمورها التي قامت عليها هي خطيرة وشهيرة كان لكل منها أثره الذي لا يُنكر في الفلسفة الحديثة، هذه القضايا الثلاث التي قامت عليها حركة الإصلاح الديني هي:

١. انقسام الكنيسة الغربية الكاثوليكية إلى كنيستين: كاثوليكية، وبروتستانتية، أو إنجيلية، كلمة بروتستانت أو بروتستانتية تعني باللاتينية: المحتجين، أو الرافضين، والكنسية البروتستانتية أو المذهب البروتستانتية لا يرضى هذه التسمية لنفسه، ويسمون أنفسهم الإنجيليون، أو الكنسية الإنجيلية.

٢. هل يسمح لرجال الدين النصارى بالزواج أو لا؟ هذه القضية من القضايا الخطيرة التي أثرت أيضاً في توجهات الفلسفة الحديثة.

٣. علمانية الكنيسة: بمعنى فصل الكنيسة عن المجتمع، فصل الدين عن الدولة؛ نقول: فصل الدولة تماماً عن الدين، فلا شأن للدين بالحياة، وإنما يقبع الدين داخل الكنيسة وينحى تماماً عن شئون الدنيا...

هذه هي الأمور الثلاثة التي قامت عليها ما عُرفت بحركة الإصلاح الديني، والتي كان لها تأثيرها الواضح في توجهات الفلسفة الحديثة، وقد بدأت هذه

الحركة على يد رجل دين اسمه "مارتن لوثر" ثم انشعبت إلى فروع كثيرة نشير إلى أهمها بإيجاز فيما يلي :

**أولاً:** انقسام الكنيسة الغربية الكاثوليكية :

لقد بدأ ذلك على يد راهب ومعلم لللاهوت اسمه مارت لوثر ١٤٨٣ - ١٥٤٦ م، وكان الرجل راعياً - أي : رئيساً وقساً لكنيسة صغيرة - بألمانيا تسمى كنيسة فتنبرج، وقد أغضبه من الكنيسة الكبرى - كنيسة الفاتيكان - ومن راعي الفاتيكان أو بابا الكاثوليك، بل وأغضبه من جميع رجالها ما دربوا عليه، واشتهروا به من تفسخ خلقي، وزنا علني، بل وشذوذ جنسي، غضب جداً، وأغضبه وأحزنه هذا الذي يشاع عن الكنيسة الكاثولوكية، وبخاصة في رموزها الكبار في الفاتيكان يُشاع، أو من الأمور المعروفة المؤكدة عنده في ذلك الوقت، ذلك التفسخ الخلقي والسلوك الجنسي المقيت، والشذوذ الجنسي الذي وصل إليه هؤلاء الرجال أو هؤلاء الرموز، وغير ذلك مما يعفُّ اللسان عن ذكره.

وقد أغضب الرجل أن هذه أضحت أموراً مشهورة، ومألوفة إلى حد أن أحد الكاردينالات الكبار انتخبه هذا المجمع بابا للكنيسة الكاثوليكية العالمية، وهذا الرجل الذي انتخب بابا للكنيسة كان عنده امرأة عشيقة، يعني : احتازها بالقوة والترهيب من خطيبتها، وأخذها عنده في بيته قسراً وكرهاً، هذه الأمور أغضبت "مارتن لوثر".

ثم كانت القاصمة التي زادت من غضب الرجل - أقصد "مارتن لوثر" - القاصمة هذه هي صكوك الغفران التي طبعها الباباوات، وسجلوا فيها مغفرة لذنوب الذين يشترونها جميعاً، ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر، وكذلك يمكن لأي إنسان نصراني غربي أن يشتري هذا الصك لصديق له وبمقتضى مجرد أن يدفع ثمن هذا

الصك يصبح هذا الصديق قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، صار النصرارى أتباع الكنيسة يشترى صكوك الغفران لأنفسهم ولأصدقائهم، ويدفعون ما تطلبه الكنيسة ثمنًا لها، ثم ينطلق الناس وقد ضمنوا مغفرة ذنوبهم السابقة واللاحقة، وإنما فعل الباباوات هذا لحاجتهم الشديدة للمال الذي ينفقونه على ملذاتهم وشهواتهم.

عند ذاك سافر "مارتن لوثر" من ألمانيا إلى الفاتيكان ومعه رسالة للبابا يشكو له فيها تلك الفضائح الخلقية، ثم يشكو له أيضًا صكوك الغفران، لكن البابا رفض لقاء الرجل، وأرسل أوامره إلى نائبه في ألمانيا بفصل "مارتن لوثر" وطرده من كنيسته، ظل "مارتن لوثر" أيامًا ينتظر أن يسمح له البابا بمقابلته، ولما فشل في ذلك رجع "مارتن لوثر" من رحلته الفاشلة إلى كنيسته في ألمانيا، وعندما وصل هنا وجد قرار طرده من كنيسته، وقرار حرمانه، أي: الحكم بطرده من دين النصرارى أيضًا، وهذا يعني أنه أضحي كافرًا ملعونًا.

عند ذاك جمع "مارتن لوثر" شعب كنيسته - أي: الناس الذين يجتمعون في كنيسته - في لقاء عام، ثم أعلن رفضه لقرار البابا، وأعلن على الناس وثيقة بها خمس وتسعون فضيحة خلقية: زنا، وشذوذًا جنسيًا ولواطًا إلى آخر ذلك، أعلن هذه القضايا بأسماء الذين ارتكبوها من كبار رجال الدين الكاثوليك في الفاتيكان وغيرها، ثم علق هذه الوثيقة على باب الكنيسة وجدرانها، وقد وقف الناس إلى جواره بل صارت معه كنائس كثيرة أخرى بألمانيا، ثم انفصلت منذ ذلك العهد الكنيسة البروتستانتية، أو الإنجيلية عن الكاثوليكية الغربية، وقد اعتُبر ذلك بداية عند جديد.

وكان إعلان مارتن لوثر سنة ١٥٢٠ ومنذ ذلك التاريخ ألغت الكنيسة البروتستانتية عقيدة الاعتراف ومغفرة الذنوب من القساوسة. وسبق وأن ذكرنا أن عقائد النصرارى تقوم على خمسة عقائد:

أولها: الخطية الجدية التي يعنون بها خطيئة آدم # ، ثم الصلب والفداء، ثم التثليث والتوحيد، ثم التعميد أو العماد، ثم الاعتراف.

عقيدة الاعتراف، يعني: الرجل النصراني يذهب إلى القس فيعترف، والقس يغفر له ذنوبه، هذا الاعتراف رفضته الكنيسة البروتستانتية، وقررت حق الفرد في الاتصال المباشر بالله وسؤاله المغفرة دون حاجة إلى قس أو راهب يعترف الرجل النصراني له، ودانت الكنيسة البروتستانتية بفكرة أو عقيدة تُسمى كهانة جميع الناس، وهي تعني: أن كل إنسان له الحق أن يتصل مباشرة بالرب، وليس محتاجاً إلى وساطة كاهن، أو قسيس.

### زواج القساوسة:

طُرحت هذه المسألة كحلٍّ ضروري للفضائح الخلقية والشذوذ الجنسي وغير ذلك مما انتشر واشتهر عن رجال الدين النصراني؛ لذا رأى المصلحون علاج هذا في أن يُسمح لرجال الدين النصارى بالزواج، وبخاصة وأن آباء الكنيسة الأوائل كانوا يتزوجون، بل وكانوا يُعدّدون إلى غير نهاية، أي: يتزوج أحدهم بأكثر من واحدة، وليس هنالك عدد محدد يقفون عنده.

ورغم أن الأمر ملح، وإنما طُرح ليعالج الكثير من الفضائح والقبائح التي أزمكت الأنوف، والتي يقوم بها رجال الدين النصارى، رغم ذلك فقد تمسكت الكنيسة بالرفض، وقد رأى الباباوات أن زواج رجل الدين النصراني سوف يُحيله إلى رجل من عامة الناس يهتمُّ بشئون زوجته وأولاده، وأحوالهم الاقتصادية، وطلبات المعيشة والتعليم، إلى غير ذلك من أمور، وهم لا يريدون ذلك... رجال الدين النصارى أو بابا الكنيسة النصرانية، أو المجمع المقدس من الكاردينالات

هناك في الفاتيكان لا يريدون ذلك... يريدونهم أنصاف آلهة... أليس هو الوساطة بين الرب والناس؟! ثم أليس قد منح الرب سلطاته في مغفرة الذنوب وغيرها؟! فليكن إذن نصف إله، لكن على حساب الفضيلة والعفة والطهارة، هو نصف إله، لكنه زانٍ لائطٍ، شاذ جنسي، لكن هكذا أرادته الكنيسة.

### العلمانية:

وقد سعى إليها الغرب النصراني للخلاص من الجحيم الذي كان الغربيون يعانونه تحت ظل الكنيسة ورجالها، فقد ظل الغربيون مطحونين لأكثر من ألف عام بين فلقتي رحا، بين أمراء الإقطاع في أوروبا من جانب، ورجال الكنيسة من جانب آخر، وكان الفريقان يتعاونان في إذلال الشعوب الغربية، ومعاملتها أذل من العبيد، وقد وضع رجال الدين أيديهم في أيدي الإقطاع، وساموا الشعوب الغربية سوء العذاب.

وظل الأمر على ذلك طوال العصور الوسطى حتى جاء من جرؤ فنأدى بحرية فهم الكتاب المقدس لدى النصارى، وإلغاء الوساطة بين الناس والله، أو بين الناس والرب - كما يقولون، وذلك بدأ على يد مارتين لوثر في بدايات القرن السادس عشر.

ثم جاء من المفكرين من هاجم رجال الكنيسة، بل هاجم الكنيسة نفسها - أعني: الدين النصراني، وطالب الجميع بالإصلاح، ولم يكن الإصلاح يتمثل إلا في شيء واحد، في تقليد أظافر الكنيسة ورجالها، وتنحية الكنيسة - أي: الدين النصراني - عن حياة الناس، وقصره داخل الكنيسة فقط، وقد بدأت العلمانية حُطَّاهَا على استحياء على ألسنة بعض الخطباء وأقلام بعض الكتاب.

## نقد الفلسفة الغربية

وقد أخذ بالعلمانية بعض أنظمة متفرقة هنا وهناك ، وطبقتها بعض الدول الغربية - لكن جزئياً ، وظلت الكنيسة تقاوم هذا الإصلاح وتدافع بكل قوتها حتى قامت الثورة الفرنسية في نهاية القرن الثامن عشر ، فانطلقت تطحن تحت رحاها جميع الأنظمة والتقاليد ، وعلى رأس ذلك الكنيسة وأنظمتها ، فطبقت الثورة الفرنسية العلمانية كاملة ، وسجنت الدين النصراني داخل الكنائس ، وخلصت جميع مرافق الحياة من هذا الدين ومن رجاله ، حتى الزواج جعلته الثورة الفرنسية مدنياً لمن أراد. وبذلك أصبح باب الكنيسة في العالم الغربية يفصل بين عالمين : من باب الكنيسة إلى الداخل دين نصراني ، ومن باب الكنيسة إلى الخارج لا دين.

ومنذ قامت الثورة الفرنسية سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف ميلادية ، وطبقت العلمانية ، وقد سارعت الدول الغربية إلى تطبيق العلمانية بكل حذافيرها ، وأصبحت منذ ذلك الوقت جميع الدول الغربية علمانية النظام ، ولكن ما تزال فرنسا التي تزعمت تطبيق العلمانية هي الأشد تطرفاً في تطبيق هذا النظام ، إلى حد أنها تعتدي على حريات الفرنسيين والفرنسيات في كثير من شئونهم الحياتية ، باسم تطبيق العلمانية.

ويزداد النظام في فرنسا تطرفاً وتشدداً ، وتبرز العلمانية كأشد أنواع الأنظمة قساوة ، وتبرز العلمانية أنيابها ، وتحد من أسنانها إذا ما تعلق الأمر بمسلم أو مسلمة ، فعلى الرغم من أن الإحصائيات تقرر أن سبعة وستين بالمائة من الفرنسيات يُعلقن الصليب في أعناقهن ، وقريب من ذلك الرقم يفعل الرجال ، ورغم أن الصليب انتماء واضح ، وعلامة بارزة على النصرانية ؛ فلا أحد يتكلم ، أو يعارض هؤلاء. لكن إذا ما وضعت فتاة مسلمة نقاباً أو حجاباً قامت الدولة بجميع أجهزتها ، وانبرى المسئولون يقاومون هذا الخطر الداهم المتمثل في شال تضعه امرأة على وجهها أو رأسها ، إلى حد أن يتدخل رئيس الدولة بنفسه ،

ويلقي التصريحات في وسائل الإعلام حول هذا الخطر الذي يُهدد الدولة، ولعله يهدد أوروبا والغرب بأكمله.

وقد درجت العلمانية دون ضجة أو تصريحات أو إعلانات أو تقنيات، إلى الشرق إلى بلادنا، لكن بهدوء وسكون، وخفاء، وأصبحت الدول العربية الإسلامية إقليلاً - ولعل القليل هذا تُمثله دولة واحدة - تطبق النظام العلمانية في التعليم العام، والسياسية والاجتماع، وأخطر من هذا كله في وسائل الإعلام التي انفلتت من كل القيم، وأخذت تحارب الدين علانية.

ومن العجيب أن يُعتبر ذلك ضمن حركة ما يسمى الإصلاح الديني، فإن ذلك إفساد وليس إصلاحاً؛ لأن الدين النصراني مهما كان فيه من ضلال وفساد يصل إلى حد الكفر والشرك؛ حيث يجعل أتباعه المسيح شريكاً لله رب العالمين.

إن النصرانية مهما كان فيها من كفران؛ فهي خير من الإلحاد الذي يُنكر الإله، ويحارب الأديان جملة، وذلك ما نبينه في الخُصيصة الآتية من خصائص ومميزات الفلسفة الحديثة.

### ظهور المذهب الإنساني وانتشار الإلحاد في الحياة الغربية

**ثانياً:** من خصائص الفلسفة الحديثة: ظهور المذهب الإنساني، وانتشار الإلحاد في شتى مناحي الحياة الغربي:

والمذهب الإنساني مذهب يقوم على إنكار وجود إله لهذا الكون، ويقوم على اعتبار الإنسان هو محور هذا الوجود كله بسمائه وأرضه، وليس هناك غير الإنسان، وقد سُمِّي هذا المذهب بالإنساني؛ نسبة إلى ما ذكرنا من الانصراف عن الدين النصراني في الغرب، واعتبار الإنسان وحده هو رب هذا الوجود.

## نقد الفلسفة الغربية

ثم ساعد على ترسيخ المذهب الإنساني وتأكيد أنه جاء حركة الكسوف الجغرافية في أواخر القرن الخامس عشر تقريباً على أيدي "كولومبس" و"فاسكو دي جاما"، و"ماجلان"، ودريك، وقد جاءت هذه المكتشفات بمعلومات عن شعوب كانت معزولة عن الحضارة الإنسانية، أو عن جميع الأديان بما فيها النصرانية وأي دين آخر معلوم للغربيين، ومع ذلك كانت هذه الشعوب تدين بأخلاق وأديان وآداب، وغير ذلك؛ مما جعل الناس في الغرب يبحثون إذا كانت النصرانية لم تصل إلى هؤلاء، فمن أين جاء هؤلاء بالدين والشعائر الدينية والعقائد وما يحل وما يحرم؟!.

من هنا توصل بعض العلماء والمفكرين في الغرب إلى ما أسموه الدين الطبيعي، أو الطبيعي - أي: الدين الذي يخترعه الإنسان، ويستمد من الطبيعة دون حاجة إلى رسل، أو كتب، أو غير ذلك. ولذلك سمي هذا الدين ديناً طبيعياً - أي: معتمداً على الطبيعة ومستمداً منها، فالدين الطبيعي يقارن الإلحاد ويساويه، أو هو نوع من الوثنية القائمة على الإيمان بالهة المحليين، لكل قبيلة آلهتها وعباداتها وطقوسها التي تختلف في قليل أو كثير عما هو موجود لدى القبائل الأخرى.

## سلخ الفلسفة عن الدين، وإطلاق حريات للنصارى، وظهور المخترعات

**ثالثاً:** من خصائص الفلسفة الحديثة: سلخ الفلسفة عن الدين، وتنحية الدين بعيداً عن الفلسفة، أو بمعنى آخر وضع الفلسفة في مواجهة الدين:

ولعلكم تذكرون أننا بينا عند كلامنا عن فلسفة العصر الوسيط أن من خصائص الفلسفة في هذا العصر خلط الفلسفة بالدين، وخلط الدين بالفلسفة، إلى حد أنه كان من الصعب أن تُفرق بين الأمرين: بين ما هو فلسفة وبين ما هو دين.



وقد كان الهدف من هذا عند فلاسفة العصر الوسيط هو خدمة الدين ؛ بحيث تصبح الفلسفة خادمة للدين ، تُساعد الناس على الاقتناع بقضايا الدين النصراني ، وقد اتضح لنا رجال العصر الوسيط ، خلطوا الفلسفة بالدين ؛ لشدة حبه للدين ، ورغبتهم في أن يؤيدوا الدين بالفلسفة.

أما وقد تغير موقفهم من الدين في العصر الحديث واتخذوا من الدين النصراني موقفاً عدائياً ؛ فقد انقلبت الأمور إلى النقيض ، ولم يعودوا بحاجة إلى تأييد الدين ، لأنهم عادوه وخلفوه وراء ظهورهم ، من ثم فقد سلخوا الفلسفة عن الدين ، بل بمعنى أدق عملوا على إقامة الفلسفة عدوة للدين ، وقد اتضح إذن ذلك الانقلاب من كون الفلسفة مساعدة في خدمة الدين النصراني إلى كونها عدوة للدين تعمل على نقضه ، وبيان بطلانه.

**رابعاً:** من خصائص الفلسفة الحديثة: إطلاق الحريات للنصارى في قراءة كتابهم المقدس وفهم محتواه بحرية كاملة :

وقد كان الشأن في العصر الوسيط ألا يطلع الإنسان النصراني على الكتاب المقدس إلا بتوجيه من رجل الكنيسة ، ثم إذا اطلع على شيء فإنه يحرم عليه أن يفهم ما يهديه إليه عقله ، بل عليه أن يفهم ما يفرضه عليه رجل الدين في عصر الفلسفة الحديثة ، وبعد مضي عقود على ثورة مارتن لوثر ، وسفنجن ، وكالفن ؛ ترسخ لدى الناس الحرية في قراءة ما يريدون من العهدين القديم والجديد - كتاب النصارى المقدس - وأن يفهموا عنه ما تهديهم إليه عقولهم.

**خامساً:** ظهور الكثير من المكتشفات والمخترعات والتي منها :

١. اختراع المطبعة التي تستخدم حروفاً متحركة ، وهذا في أواخر القرن الخامس عشر ، وقد كان اختراع المطبعة قد عُرف في الصين ، عرفه الصينيون قبل الغرب ببضعة قرون ، ولكنها لم تصل إلى الغرب إلا في القرن الخامس عشر.

## نقد الفلسفة الغربية

٢. وصول أرشميدس إلى قوانينه في الطفو وغيره ، وقد ساعد في إقامة ميكانيكا ، أو علم آلي خَدَمَ الإنسان.

٣. اختراع البوصلة والتوسع في استعمالها.

٤. اختراع التليسكوب الذي فتح آفاق العوالم السماوية على سعتها أمام الإنسان ، كل هذه الأشياء وغيرها جعلت إنسان العصر الحديث في الغرب يحسُّ من الكبرياء ، والقدرة على التسلط على العالم ما لم يكن عند أسلافه ، من ثمَّ كان أظهر شيء من آثار هذا هو انقلابه على الدين ، وانفلاته منه ، بل واتخاذ الأهبة وإعداد العدة لإقامة حياة جديدة تقوم على أسس جديدة ليس من بينها الدين.

**سادساً:** وهذا العامل المميز للفلسفة الحديثة والمعاصرة معاً ، أو هذه الخصيصة من خصائص الفلسفة لم يشر إليه أحد من قبل ، ولم يطرقة مؤرخ للفلسفة الحديثة ، أو حتى الفلسفة المعاصرة من قبل ، لكننا نراه على قدر كبير وخطير من الأهمية ؛ لأن هذا العامل يفسر لنا أموراً كثيرة من خصائص الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، لا نجد لها تفسيراً سوى هذا العامل المميز لهذه الفلسفة ، والذي نشير إليه هنا مستندين إلى واقع الحال وصادق الموضوع - ذلكم أن الشعوب الغربية كانت في العصور الوسطى محجوراً عليها ، عقلاً ، وفكراً ، وفهماً ؛ فلا حرية في قراءة كتابهم المقدس ، ولا حرية في فهم شيء عنه - كما ذكرنا آنفاً ، ولا حرية في مزاوله حياتهم الخاصة في كثير من الأمور.

وكانت تلك الشعوب تُعاني القهر وما يشبه العبودية من جانب أمراء الإقطاع والحكام من جانب ، ثم من رجال الدين من جانب آخر ، وذلك الجانب هو الأخطر ، وهو الذي كان يحيل حياة الشعوب في الغرب إلى ما يشبه العبودية ؛

حيث أقام رجال الدين النصارى من أنفسهم رقبا على عقول الناس وضمايرهم ، وكانوا يحاكمون الناس ويأخذونهم بالظنة ، وكانت عقوبة الحرمان سيفا مسلطا على رقاب الناس وعقولهم ، وما أيسر أن يغضب رجل الدين على أحد الناس ، فيتخذ إجراءات : إصدار إعلان تحريمه ، أي : إخراج من ملكوت الله ومن شعب الكنيسة ، أي : إعلان كفره ، وكانت هذه وحدها كافية لأن يتجنبه الناس ويقاطعونه حتى أقرب الناس إليه وزوجه وأولاده ، وكان يعيش منبوذاً من الجميع .

ظل الأمر كذلك طوال العصور الوسطى حتى جاء القرن الثالث عشر والرابع عشر ، فبدأ الناس يُعلنون نوعاً من الخروج على هذا النظام الكنسي المقيت ، وما جاء القرن الخامس عشر حتى بدأت الأصوات ترتفع من هنا وهناك معلنة ضيقها بهذا النظام الحديدي من الرقابة على العقول ، بل على الضمائر ، وبدأ ذلك أول ما بدأ على أقلام الكتاب من أمثال فولتير ، وأفكار الاجتماعيين من أمثال جان جاك روسو ، ثم توالى الأحداث سريعاً فطبقت العلمانية في بعض البلاد ، ثم طبقت كاملة في العالم الغربي كله ، ثم انطلق الناس من إيسار الكنيسة كأنهم انطلقوا من عقاب طال ربطهم به ، أو ربطهم إليه .

ولكم أن تتخيلوا قطعاً من الذئب المسعورة طال حبسه ، واستمر سجنه ، ثم فجأة انطلق من إيساره دون مقدمات ولا تهديدات ؛ فانطلق يضرب في جميع الجهات على غير هداية ، ولا رعاية ، ولا خبرة ، ولا رشاد . هكذا كانت المجتمعات الغربية حين انطلقت من إيسار الكنيسة ، وتخلصت من هيمنة رجال الدين الذين تراخت أيديهم ، وضاع سلطانهم ، وحين انطلق الناس من هيمنة الكنيسة لم يكونوا قد قدروا لهذا الأمر قدره ؛ فانطلقوا لا يدرون ما يفعلون ،

وقد فقدوا اتزانهم ، ولم يُحسنوا مواقع أعمالهم. من هنا وجدنا خليطاً من الأفكار والمذاهب والآراء لا يربط بينها رابط ، ولا تنظمها علاقة ؛ لذلك لاحظنا الآتي :

١. انطلق الناس كلُّ يعبر عن وجهة نظره أو رأيه في قضايا مطروحة ، اجتماعية ، أو سياسية ، والكثير منها قضايا فلسفية ، ولم تكن المشكلة إبداء آرائهم في تلك القضايا ، لكن المشكلة كانت في الجرأة والاندفاع ، الذي اتسمت به آراؤهم وتصرفاتهم دون شعور بالمسئولية.

٢. لم يكن إبداء آرائهم تعبيراً حقيقياً عن وجهات أنظارهم أو عن آراء ، بقدر ما كان رغبة في التنفيس عن الكبت والحبس ، والتعبير المتكلف والمبالغ فيه عن الحرية التي شعروا بها وزاولوها بعد عهود طويلة من الحجر عليهم ، والتي حولوها بسوء تصرفاتهم إلى ما يشبه الفوضى.

٣. كثرت الآراء والمذاهب من كل اتجاه ، وبخاصة في الفلسفة ، فصار هناك عشرات المذاهب والآراء الفلسفية التي ازدحمت بها الساحة الفلسفية.

٤. كانت المذاهب الفلسفية منها قليل يُمثل رأياً متزناً ، وفكراً واعياً ، ومن ثمَّ كان جديراً بالدراسة ، أما الكثير منها فكان غريباً وعجيباً ، لا يُعبر إلا عن رغبة في التعبير عن الحرية ، أو فلنقل الفوضى التي هبطت عليهم.

٥. المثير للعجب أكثر من غيره أن الناس كانوا يحفلون بالمذهب الغريب المنفلت أكثر من إعجابهم واحتفالهم بالمذهب المتزن الواعي المقبول ، وكلما كان المذهب أكثر غرابة وشدوداً ؛ كان الناس به أكثر احتفاءً واحتفالاً واهتماماً ، وسوف نأخذ أمثلة على صدق ما قلناه من مذاهب القوم الفلسفية بحوله تعالى.

٦. حين انفلت الناس من قبضة الكنيسة وهيمنة رجالها انطلقوا يعبرون عن أنفسهم دون وعي كامل بالمرحلة الجديدة، التي أضحوها فيها؛ لذلك فقد كثرت المذاهب، والآراء الفكرية والمذاهب الفلسفية، إلى الحد الذي جعل من الصعوبة احتواء هذه الآراء والمذاهب، أو دراستها وعرضها؛ لذا لم يكن بدُّ لكي ندرسها ونحيط بما فيها من أفكار، ونقوم هذه الأفكار، وننقضها لم يكن بد من جمعها في حُزم، أو اتجاهات متماثلة، نجمع المذاهب والآراء التي جاء بها الغربيون حين انطلقوا من إيسار الكنيسة، حين انطلقوا جاءوا بمذاهب كثيرة، وآراء عديدة، لم يكن بدُّ من أن نجمع هذه المذاهب والآراء في اتجاهات، أو حزم متماثلة، ثم نعرض أقواها وأوضحها تمثيلاً لهذا الاتجاه الذي وُضعت لتعبر عنه.

٧. هناك مذاهب كثيرة تُعبر عن وجهة نظر أو أنظار تشاؤمية سوداء، وتنظر إلى الحياة على أنها شر محض، وتدعو إلى التخلص من هذه الحياة بالانتحار، بل وتمجد المنتحرين، لا سبيل إلى دراسة هذه المذاهب التشاؤمية كلها، فلنصنع إذن منها جميعاً اتجاهًا واحدًا نسميه الاتجاه التشاؤمي في الفلسفة الغربية الحديثة، ثم نتخير من هذه المذاهب وأوضحها وأقواها تمثيلاً لهذا الاتجاه، وندرسه، ونقومه، وننقضه، ومثل هذا نصنع بفلسفة القوة نضع مذاهب القوة كلها في اتجاه واحد، ثم ندرس ممثلًا لها، أقواها، وأوضحها في هذا الاتجاه.



## فلسفة الشك عند رينيه ديكارت

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : الفيلسوف رينيه ديكارت: حياته، وفلسفته ٢٢٣
- العنصر الثاني : الشك عند ديكارت ٢٢٢
- العنصر الثالث : كيف أثبت وجود نفسه، ثم وجود إله، ثم وجود العالم ٢٣٦





### الفيلسوف رينيه ديكارت: حياته، وفلسفته

قد اعتبرنا أن العصر الحديث يشمل عصر النهضة كمهد له، ويشمل كذلك الفلسفة المعاصرة كجزء منه، وهذا الاعتبار منا له وجاهته وواقعيته؛ حيث إن الأفكار والآراء، والمذاهب ليست أردية يخلع المرء رداءً، ويلبس آخر في لحظات، أو أغطية يغير المرء غطاءً ويلتحف آخر في لحظات، لكن الأفكار والآراء لا تتغير بين يوم وليلة، ولا بين عام أو عقد، وآخر، بل تتغير عبر عقود بل قرون، وحتى بعد التغير يظل القديم أصلًا للجديد مؤثرًا فيه سلبيًا أو إيجابًا.

إن التغير والتحول قانون الوجود، وإن التدرج قانون هذا التغير والتحول، فالتغير والتحول في المذاهب والآراء إنما يتم عن طريق التدرج البطيء، الذي يؤدي في النهاية عبر زمان يطول أو يقصر حسب الحدث نفسه الذي يجري عليه التغير والتحول، والحدث الذي معنا هو الأفكار والمذاهب الفلسفية التي تتلاقح فيها الآراء، وتختلط فيها الأفكار، وتتجاذب المذاهب تأثيرًا وتأثرًا، ولقد رأينا الفلسفة في العصر الوسيط تستغرق دورًا بلغ ألف سنة تقريبًا حتى حدث التغير والتحول من العصر الوسيط إلى العصر الحديث، وبين بداية العصر الحديث الذي حددنا له نهايات القرن الخامس عشر حتى يومنا هذا خمسة قرون، أو أكثر قليلًا.

وهذه فترة زمنية تستغرق نصف الفترة التي شغلتها الفلسفة الوسيطة، لذلك يكون صعبًا أن تأتي على هذه الفترة الصغيرة نسبيًا، والتي تبلغ خمسة قرون، ثم نقسمها إلى ثلاثة عصور فلسفية أعني: عصر النهضة، والفلسفة الحديثة، والفلسفة المعاصرة. إن ذلك أمر غير دقيق وغير واقعي؛ لذلك رأينا أن نُجمل هذه كلها في الفلسفة الحديثة، لتتكلم عنها من خلال أشهر فلاسفتها، وإذا كنا

## نقد الفلسفة الغربية

ستتكلم عن أشهر فلاسفة الفلسفة الحديثة ، فلا شك أن بدايتنا ستكون مع الفيلسوف الأشهر رينيه ديكارت ، وذلك لأمر:

**الأول:** أن هذا الفيلسوف بإجماع آراء المؤرخين للفلسفة الحديثة هو أكبر هؤلاء ، وأعمقهم فكراً ؛ لذلك منحوه لقب أبو الفلسفة الحديثة.

**الثاني:** أنه أثر في مسيرة الفلسفة الحديثة إلى الحد الذي جعل فلسفته تُمثل ليس فيلسوفاً واحداً معيناً ، وإنما تُمثل تياراً فلسفياً كاملاً صار في نطاقه عدد من الفلاسفة أُطلق عليهم في تاريخ الفلسفة الحديثة اسم الديكارتيين ؛ نسبة إلى ديكارت طبعاً ، مثل ماربرانش واسبينوزا... إلى آخر هؤلاء.

**الثالث:** أنه لا يتخيل أن يكون هنالك دارس للفلسفة الغربية الحديثة ، دون أن يعرف ديكارت وفلسفته معرفة مقبولة.

**الرابع:** أن ديكارت من الذين اهتموا بالدين النصراني ، وذلك طبعي باعتباره نصرانياً ، وقد وضع في إطار ذلك أدلة على وجود الإله الذي يؤمن هو به ، وقد ظن أنه بذلك قد خرج من دائرة الإلحاد في الله ﷻ ، بل ظن هو ومن تابعه أنه قد أتى بما لم يخترعه الأوائل ؛ بينما إلهه الذي أتى هو هو به إنما هو إله عقلي اخترعه اختراعاً ، ولفق أدلة وجوده تلفيقاً ، لا يُقنع أحداً ، ولا يغني في هذا المجال فتيلاً :

رينيه ديكارت :

أولاً: حياته :

وُلد رينيه ديكارت بمقاطعة نورين بفرنسا ، في شهر مارس سنة ست وتسعين وخمسمائة وألف للميلاد ، وكان ينتمي إلى أسرة نبيلة ثرية ، ماتت أمه بداء الصدر ،

وكان هو نفسه عليلاً، وقد خشي والده أن يموت بقاء أمه، فكان يشجعه على العمل الذهني، وبذل الجهود العقلية؛ خوفاً عليه من الجهود الجسمية التي قد تؤذي، وتهدد حياته، وكان أبوه يدعو تشجيعاً له، فيلسوفي الصغير.

دخل في سنة الثامنة من عمره مدرسة الآباء اليسوعيين، وهي مدرسة كهنوتية راقية، وكانت أشهر المدارس ليس في فرنسا وحدها، بل في أوروبا، وظل بها ثماني سنين، وكانت الدراسة تقوم على تدريس الفلسفة كأساس، لكن ديكرت ترك المدرسة ناقماً على الفلسفة، معتقداً أن اختلاف الآراء في الفلسفة مدعاة للشك فيها، وأنها -مقارنة بالرياضيات- لا تستحق أن يُبذل فيها مجهود، ومنذ ذلك أولع الفيلسوف بالرياضيات حتى كان له فيها باع طويل، ويحتفظ لنا التاريخ العلمي أن هذا الفيلسوف هو واضع علم الهندسة التحليلية، وله جهود كثيرة في الرياضيات، وبخاصة في الجبر.

بدا لديكرت أن يأخذ نفسه بالشدة والحشونة، فانضم إلى الجيش الهولندي عام ١٦١٨، ثم ترك الجيش الهولندي وانضم إلى جيش بافاريا بألمانيا في العام التالي ١٦١٩م، وكان في المرتين اللتين انضم فيهما إلى الجيش يكتشف فشله في حياة الجيش، وذلك لضعف بنيته، وطبيعته العقلية؛ لذلك ترك حياة الجندي نهائياً عام عشرين وستمئة وألف.

كان يحب باريس؛ لكن حياة الصخب فيها وغلبة الحياة الاجتماعية، وانحراف الأخلاقيات والسلوكيات لم يوافقا طبيعته، فكان يترك باريس إلى هولندا، ثم يعود إليها إلى أن استقر في هولندا سنة تسع وعشرين وستمئة وألف نهائياً حتى نهاية حياته.

إبان بحثه عن العلوم اليقينية، أو عن اليقين نفسه جاءت حالة من الشك، واستولت عليه، وكان يبذل جهوداً مضنية في محاولة للتصرف مع هذه الحالة، وكيف يخرج منها، وقد استغرق في تفكيره أوصله إلى حال من التعب جعلته يستغرق في نوم عميق.

ذات مرة أو ذات ليلة تعب كثيراً من القراءة والمذاكرة ومن شدة تعب استغرق في نوم عميق، وهو في هذه الحال رأى في منامة ثلاثة أحلام، اعتقد أنها وحي من القوة العليا يقصد الإله، وأن الإله اختاره ليتوصل إلى علم كلي لم يكتشفه أحد بعد.

وطبعي أن هذا نوع من الخيال الواهم أصيب به الفيلسوف من كثرة بحثه عن اليقين في أمور لا توصل إلى اليقين، ثم من شدة استغراقه في التفكير مما أصابه بما يشبه الانفصام، أو ما يسمى أحلام اليقظة.

أرسلت إليه الملكة كريستين ملكة السويد تدعوه إلى ستوكهولم، كي تتعلم الفلسفة على يديه، وبعد تفكير وتردد قبل الفيلسوف الدعوة، وسافر إلى السويد في خريف عام تسعة وأربعين وستمئة وألف، وهناك في ستوكهولم لم تحمل صحته الضعيفة البرد الشديد؛ حيث طلبت الملكة أن يكون درس الفلسفة في الخامسة صباحاً، فلم تحمل صحة الفيلسوف، فأصيب بالتهاب رئوي حاد أودى بحياته في الحادي عشر من فبراير سنة خمسين وستمئة وألف.

### ثانياً: فلسفته:

بعد أن تكلمنا قليلاً عن حياة الرجل، وليس في الكلام عن حياة هؤلاء الناس وقت ضائع إطلاقاً، فإننا لا نستطيع أن نحكم على فلسفة واحد من هؤلاء حتى

نعرف ظروف حياته التي مر بها؛ ولذلك نشير بإيجاز إلى حياة هؤلاء، أو إلى حياة الواحد من هؤلاء، ثم نتقل مباشرة إلى فلسفته:

للرجل فلسفة ثرية بالجوانب الفكرية الكثيرة في الرياضيات، والفلسفة، وعلم المناهج، وفلسفة الشك، وجوانب أخرى كثيرة، لكن ليس من منهجنا دراسة فلسفة الرجل بتفاصيلها الكثيرة، ولكن يهمننا من فلسفته الجوانب التي جعلت من الرجل عند المؤرخين أعظم فيلسوف في العصر الحديث، وبعضهم يراه فوق ذلك؛ لذا سوف نتخيل من فلسفته أموراً ثلاثة هي أظهر وأشهر جوانب فلسفة ديكارت بإطلاق:

**الأولى:** التي ندرسها من فلسفته كتابه فيما أسماه (قواعد المجد)، وهذا الجانب من فلسفته يعتبره البعض أعظم جوانب الفلسفة الحديثة بإطلاق.

**الثانية:** الشك الذي وقع فيه ديكارت، وكيف واجهه، وما هي نتائجه.

**الثالثة:** كيف أثبت وجود نفسه، ثم وجود إله، ثم وجود العالم، وذلك بعد وقوعه في الشك وخروجه منه.

وسوف نتوقف عند كل جانب من هذه الجوانب الثلاثة وقفة متأنية؛ لنعرف قيمته المعرفية، وأثره في إفادة اليقين، ومنزلته بالنسبة للعلوم الأخرى، وهذا هو الأهم هل هو فعلاً من اكتشاف الرجل، أم أنه استفاده أو سرقة من آخرين سابقين عليه ونقصد -تحديداً الإمام الغزالي- رحمه الله رحمة واسعة-!؟:

المسألة الأولى من فلسفة ديكارت التي سنقف عنده -بحوله تعالى- هي ما يسمى في الفلسفة الحديثة: قواعد المنهج؛ والتي وضعها الفيلسوف في كتاب ألفه سنة ١٦٣٧م ألف الرجل كتاباً تحت عنوان (مقال في المنهج) لقد نشر ديكارت كتابه

## نقد الفلسفة الغربية

مقال في المنهج - كما قلنا - سنة سبع وثلاثين وستمئة وألف ، وقد اعتبر هذا الكتاب عند مؤرخي الفلسفة فتحاً في علم المناهج ، وفتحاً في علم الفلسفة ، وفتحاً في العلوم كلها. كما اعتبر صاحبه فذاً بين المفكرين ؛ فماذا عن هذا الكتاب؟! وماذا عن محتواه؟! :

موضوع هذا الكتاب يقوم على أربعة قواعد توصل المفكر إلى اليقين ، كما زعم الفيلسوف ، بل زعموا أيضاً أن به القواعد الأربعة تغني عن المنطق الأرسطي - مع مكانته في ذلك الزمان ، بل حتى عن المنطق الحديث ، وقد اشتهر هذا الكتاب إلى حد أن العالم احتفل سنة سبع وثلاثين وتسعمائة وألف بمرور ثلاثة قرون على نشر كتاب (المقال) أي : (مقال في المنهج) لديكارت. إلى هذا الحد هذا الكتاب له منزلة عند مؤرخي الفلسفة في الغرب أولاً ثم في الشرق بعد ذلك؟! :

## ما هذه القواعد الأربعة؟

إذن القواعد الأربعة التي تكلم عنها الرجل في هذا الكتاب ، والتي جعلت من هذا الكتاب أعجوبة الزمان.

**القاعدة الأولى :** نطلق عليها قاعدة اليقين ، ويقول فيها ديكارت : " لا أسلم بشيء حتى أعلم يقيناً أنه حق ، وألا يكون لدي فيه أي شك بأي حال من الأحوال " ، فإذا عُرض على عقلي شيء ، فلا بد من بحثه ، ولا بد من بحثه بحثاً جيداً ، بحيث لا أسلم بصدق شيء منه حتى أصل إلى درجة اليقين المطلق بأنه حق لا ريب فيه .

**القاعدة الثانية :** قاعدة التبسيط والتجزئة والتحليل : وهي تعني : أن أقسم كل مشكلة تصادفني إلى أصغر أقسامها ، وأن أجزئها إلى أقل أجزائها ، وأن أحللها على قدر ما يلزم للوصول إلى حلها على أفضل الوجوه .

**القاعدة الثالثة:** قاعدة التركيب: وهي تعني: أن أسير عكس القاعدة السابقة، فالقاعدة السابقة كنت آخذ الشيء المركب فأحلله إلى أجزائه، هذه القاعدة قاعدة التركيب آخذ الشيء الذي حللته قبل ذلك إلى أجزائه الصغيرة، فأعيد تركيبه مرة أخرى ليعود إلى وضعه الأول، أسير عكس القاعدة السابقة، فأبدأ بأبسط الموضوعات وأسهلها، ثم أضمرها إلى ما يأتلف معها، وأسير بالتجريد تأليفاً بين الجزئيات وتركيباً حتى أصل إلى المشكلة مركبة كما كانت قبل ذلك، هذه هي القاعدة الثالثة.

**القاعدة الرابعة:** وهي قاعدة التتبع والاستقراء والإحصاء: وهي تعني: أن أقوم بمراجعة، ومتابعة، واستقراء لجميع جزئيات المشكلة التي درستها؛ بحيث أكون على يقين من أنني لم أغفل منها شيئاً، وأني درستها جميعها، وأعطيت كل جزئية منها حقها في الدرس والتفكير.

هذه هي القواعد الأربع للمنهج التي قال بها رينيه ديكارت، والتي أقام الغربيون الدنيا ولم يقعدوها بعد احتفالاً بهذه القواعد التي زعموا أنها خوارق في بابها، واحتفاءً بصاحبها الذي زعموا أنه يُشبه الأنبياء إذا لم يكن فعلاً، وكيف لا وقد أتى عندهم بالخوارق، ولا يأتي بالخوارق إلا الأنبياء!؟.

ولكن دعونا من مزاعم الغربيين ودعواهم حيث وصل بها الهوى والزيف أن احتفلوا بمرور ثلاثة قرون على مجيء ديكارت بهذه القواعد الخارقة، وتعالوا ننظر في تلك القواعد، وهل هي فعلاً على هذا المستوى من النفع والفائدة!؟

**القاعدة الأولى:** والتي تقول: إن البحث في مشكلة ما يتطلب منا أن نتأكد من صدق المشكلة، أو صدق القضية المعروضة للحل، وأن نبحت خلف كل جزئية من جزئيات المشكلة، وألا نسلم بصدق شيء منها إلا إذا تأكدنا وأيقنا بصدقه

## نقد الفلسفة الغربية

مائة بالمائة عن طريق الوسائل الحسية المباشرة أو غير المباشرة، وهي الاستنباط؛ فالرجل لا يكتفي بأن يطلب منا التيقن من صدق القضايا، بل ويعين لنا وسائل التيقن، وفي وسائله يستبعد القضايا التاريخية، ولو كانت معتمدة على الخبر المتواتر الصادق، الذي لا يتصور العقل كذبه، وإلى هنا يصل الفيلسوف إلا أخطر القضايا التي ترفض الدين، وترفض تصديق الوحي والإلهام، وترفض الإيمان بالرسول، وبما جاءوا به.

وقد تحقق فعلاً ذلك الذي دعا إليه ديكرت، حيث تذرع كثيرون بهذه القاعدة التي قال بها الرجل، فرفضوا الدين، وكفروا بجميع ما جاء به الرسل؛ لأنهم لا يستطيعون التثبت من صدق الوحي لا بحواسهم، ولا عن طريق الاستنباط العقلي المباشر، الذي لا يتعاطاه، ولا يشترطه إلا الملاحظة، وإلا فمن ذا الذي يستطيع أن يعمل عقله، فيستنبط أن الله تعالى سوف يرسل رسولاً في عين ذلك الزمان والمكان؟! الذي يبعث فيه الله الرسول؟! ثم من ذا الذي يستطيع أن يستنبط أماكن نزول الوحي وأزمته، ثم من ذا الذي يستطيع أن يستنبط أيضاً ما سوف يأتي به الوحي؟! إلى آخر هذه التخريفات التي لم تتعلق بالقاعدة التي أتى بها الرجل، وهي قاعدة اليقين بالمسائل المطروحة، ولكنها تتعلق بوسائل التيقن التي فرضها الرجل، والتي لا يقول بها، ولا يذهب إليها إلا الشُّكَّاء الماديون الملاحدة.

لذلك لم يكن عجباً ولا غريباً أن يتذرع الكثيرون، بل جمهرة الغربيين بتلك القاعدة لينبذوا الدين، ويكفروا بالرسالات، بل إن تطبيق هذه القاعدة كما أرادها الرجل جدير بأن يقطع ماضي الأمم عن حاضرها، ذلكم أن الماضي تاريخ يقوم على الأخبار كتابة أو أقوالاً، وذلك كله لا يُمكن التثبت من صدقه بنفس الطرق والوسائل التي اشترطها الرجل من الحدس المباشر عن طريق الحس، أو غير المباشر عن طريق الاستنباط القائم على الحس أيضاً.



ولأن هذه القاعدة هي أهم قواعد المنهج عند الرجل ، وهي رأس الأدلة على ذكاء الرجل عند الغربيين ، فقد ركزنا عليها ؛ لنبين بالنسبة إليها أموراً بدهية لا تحتاج إلى استدلال ، من هذه الأمور :

أ. أن هذه القاعدة بدهية فطرية ، وأن الأمر فيها يرجع إلى أمور مسلمة لا ينكرها أحد ، بل نقول : إنها تقوم على أمور لا يغفل عنها أحد ، أعني : أن يتحقق المرء من صدق القضية التي يبحثها ، هذا أمر بدهي جداً ، فإذا ما جاءني من يخبرني أن بركاناً انفجر في بلد ما ، وأنه أرسل سحابة سوداء غطت نصف الكرة الأرضية ، وأن كثيراً من المطارات أُغلقت إلى آخر ذلك ، فطبعي أن أكذب أو أصدق ؛ بناء على أن أنظر في محتوى الخبر ، وهل يحتمل الصدق والكذب ، أو أنه صادق فعلاً ، أو أنه كاذب فعلاً. فهذا أمر بدهي لا يحتاج إلى فيلسوف كبير يأتي إلينا ليضع قواعداً ما ؛ فالقاعدة - كما قلنا - بدهية ضرورية ، حتى عوام الناس حينما يلقى إلى أحدهم خبر ، فإنه ينظر فيه ، ويزنه بعقله ، وبوسائله الفطرية التي خلقها الله فيه .

ب. أن هذه القاعدة البدهية جاء الرجل فأفسدها ، وأدخل عليها ما تسبب في إساءة استعمالها ، وإفساد نتائجها ؛ حيث كان الناس يتأكدون من صدق القضايا المطروحة عليهم بالوسائل الطبيعية المتاحة ، والتي يعرفونها ، ويزاولونها طبعياً وجبلياً... جاء الرجل ففرض عليهم وسائل للصدق مادية حسية ، لا تصلح إلا في بعض الجوانب ، ولا تصلح في غيرها ، والأمر واضح ، فإذا ما أخبرني أحد عن بركان ثار ، وقذف بسحابة من غبار ، تأكدت بحدسي المباشر وغير المباشر ، لكن ماذا لو أخبرني أن رسول الله محمدًا ﷺ قد فرض صلوات خمسة ، كيف لي أن أتيقن من ذلك الخبر بالحدس المادي المباشر أو بالاستنباط؟! .

الرجل يشترط استبعاد الوقائع التاريخية الذي تؤكد أنه هنا أن الرجل في هذه القاعدة إنما هو مادي بحت ، والذي نؤكد أيضاً أن الرجل قد أساء إلى القاعدة إساءة

## نقد الفلسفة الغربية

بالغة؛ حيث اشترط للتيقن منها وسائل مادية حسية، واشترط استبعاد الوقائع التاريخية من وسائل الصدق، واشترط عدم قبول الخبر الصادق، وأوجب إسقاطه، وعدم الأخذ به، بذلك أبطل رسالات الرسل، بل أبطل الدين جملة، فماذا أفاد الرجل؟! وأية فوائد أو منافع جاء بها إلى البشرية؟! هذا عن القاعدة الأولى.

**القاعدة الثانية:** وهي تحليل المشكلة إلى أبسط أفرادها أو أجزائها...

**القاعدة الثالثة:** وهي إعادة تركيب الظاهرة أو المشكلة لتعود من جديد بعد أن انتهينا من دراستها...

**القاعدة الرابعة:** وهي مراجعة جميع الجهود في حل المشكلة، بحيث نضمن الاطمئنان على أننا لم نترك شيئاً من أجزاء المشكلة...

هذه القواعد كلها طبيعية ومعروفة عند الجميع حتى قبل ديكارت، الجديد هو أسمائها التي أطلقها عليها الرجل، أما هي فمعلومة لنا قاعدة الفك والتحليل، قاعدة التركيب والبناء، قاعدة المراجعة، أو قاعدة التيقن.

## الشك عند ديكارت

## الأمر الثاني: الشك:

وديكرت اشتهر بمنهجه في الشك، كما اشتهر قبل ذلك بقواعده الأربع التي وضعها في كتابه (مقال في المنهج)، وقبل أن نتكلم عن الشك عند ديكارت، تعالوا نتعرف على الشك وأنواعه فيما يلي، هذه الجزئية لا علاقة لها بفلسفة ديكارت، وإنما هي أمر ندرسه ونعرفه بالضرورة؛ لنكون على علم به، وهو أمر بسيط:

أنواع الشك :

الشك نوعان :

**النوع الأول :** شك منهجي .

**النوع الثاني :** شك مذهبي .

تعالوا ابتداءً نُعرف الشك : يُعرّف الشك بأنه تساوي طرفي التصديق والتكذيب بالنسبة لقضية ما دون ترجيح أحد الطرفين على الآخر ، فالتصديق يساوي التكذيب ، ويتساويان تماماً. فإذا شككت في موضوع بين التصديق والتكذيب ، لكن أميل إلى كونه التصديق يرجح عندي أكثر ، فإذا ما ترجح أحد الطرفين ؛ فليس ذلك شكاً ، وإنما هو الظن .

الظن يُعرف بأنه : احتمال صدق أو كذب الطرفين مع ترجيح أحدهما ، الشك نوعان - كما قلنا - شك مذهبي وشك منهجي :

والشك المذهبي : هو الذي اتخذهُ إنسان ما مذهباً وعقيدة لا يحيد عنه في حياته ، وذلك كالسفسطائيين ، وتحديدًا فرقة اللأدرية من السفسطائيين ، هؤلاء لا يحيدون عن الشك ، بل يلتزمونهُ عقيدة ومذهباً ، ونظام حياة .

الشك المنهجي : وقد سمي هذا النوع من الشك بالشك المنهجي ؛ لبيان أن صاحبه ليس من الشُّكَّاء الدائمين أو الشُّكَّاء المرضى ، وليس من الذين يمثل الشك بالنسبة إليهم حالة مرضية ملازمة ، لكن شك هؤلاء - أي : الشك المنهج شك هؤلاء الذين يتخذون الشك منهجياً - هو وسيلة وليس غاية ، اتخذهُ أصحابه وسيلة ليصلوا من خلاله إلى اليقين ، فهو وسيلة وليس غاية ولا هدفاً .

وذلك كالشك الذي وقع فيه الإمام الغزالي - رحمه الله - حيث شك ، فاتخذ الشك منهجاً للوصول إلى اليقين ، ومن خلال شكه وصل فعلاً إلى اليقين في

جميع القضايا التي كانت قد تحير فيها. وطبعي أن الإمام الغزالي كان يشكُّ في كل شيء إلا في دينه وما يتصل بدينه، الإمام الغزالي كان شكه مقصوراً على وسائل المعرفة من الحس والعقل، ولم يصل شكه أبداً إلى دينه أو عقيدته، أو نفسه.

### الشك عند ديكارت :

وقع ديكارت في شباك الشك، هكذا يدعي الغربيون، ونحن نظن وبعض الظن حق، أن هذه دعوى ادّعاها الرجل، وقد سرق هذا المنهج عن الإمام الغزالي؛ حيث ثبت يقيناً أنه اطلع على كتاب (المنقذ من الضلال) للإمام الغزالي مترجماً إلى الفرنسية، فنقل الرجل تجربة الغزالي كاملة، بل بألفاظها...

يهمنا أن الرجل ادّعى أنه وقع في الشك... وكان شكّه حسب تصويره هو - كما يأتي - هو يقول: "لقد أخذت معارفي، وجميع معلوماتي عن طرق متعددة: عن طريق البيت وأنا طفل، ثم عن طريق المدرسة من خلال مدرسين كثيرين منهم العالم، ومنهم الجاهل، ومنهم الصادق، ومنهم الكاذب، ثم أخذت كثيراً من معلوماتي أيضاً ومعارفي عن أصدقاء المدرسة والمجتمع، ثم أخذت كثيراً من معلوماتي عن طريق قراءاتي... كل هؤلاء هم مصدر معلوماتي؛ فأنا إذن لم آخذ معارفي ومعلوماتي من جهة واحدة مؤكدة؛ بل من جهات متعددة، فأصبحت معارفي ومعلوماتي كالثوب الخلق المرقع شيء من هنا وشيء من هناك.

والحل ماذا عنده؟ يقول ديكارت: "الحل أن أطرح جميع هذه المعارف، وأرفض جميع هذه المعلومات، ثم أبدأ فأنظر فيها واحدة واحدة، وإلا انهارت معارفي

كلها وأهلكتنى" والرجل عنده مثال يسميه سلة التفاح - يشبه معارفنا بسلة مليئة بالتفاح، دخل الرجل وفي يديه سلة فارغة، فأخذ يأخذ تفاحة من هذه الشجرة، وأخرى من هناك وأخرى من هناك؛ حتى ملاً سلته بالتفاح لو كان التفاح كله سليماً وبينه تفاحة واحدة فاسدة فإنها ستعديه وتفسده كله، والحل عنده أن يفرغ السلة بكاملها، ثم يبدأ فيختبر جميع التفاح الذي ألقاه واحدة واحدة؛ ليتأكد يقيناً من صحتها ويضعها في السلة، لذلك يرى الرجل أن نرفض جميع معارفنا ثم ننتقيها بعد ذلك واحدة واحدة، وقد ألقى الرجل بجميع معارفه وعلومه، وبدأ ينظر في كل شيء على الترتيب الآتي:

شك في نفسه وفي وجوده أولاً، ثم أثبت وجوده، ثم شك في وجود الله ﷻ ثم أوجده، لا أقول أوجد الله - جل الله - وإنما أوجد إلهه الذي يزعمه، ثم شك في وجود العالم، ثم أثبت وجود العالم.

أما عن كيفية شكه: يقول: "أنا أشك في الحواس؛ لأنها خدعتني أحياناً، ولعلها تخدعني دائماً، وليس من الحكمة أن اطمئن إلى من خدعني ولو مرة واحدة" الحواس إذن غير مؤتمنة في المعارف التي توصلها إلينا، ثم إنه يشك في استدلال العقل؛ لأن الناس يخطئون في استدلالاتهم، ومنهم من يخطئ في أبسط موضوعات الهندسة والحساب.

يقول: "فلعلي أخطئ دائماً في الاستدلال، ثم يقول: ثم إنني أجد نفس الأفكار تراودني أحياناً في اليقظة، ثم أجدتها كذلك تراودني في المنام كما تراودني في اليقظة، ولست أجد علامة مؤكدة للتمييز بين حالتي اليقظة والمنام، فلعل ما أحسبه مناماً يكون يقظة، ولعل ما أحسبه يقظة يكون مناماً، ولعل حياتي

## نقد الفلسفة الغربية

جميعها حلم متصل ، ولعل اليقظة أو ما أحسبه يقظة يكون حلمًا متصلًا ، وأنا لا أدري أنني في حلم".

هذه العبارات التي ذكرتها الآن هي العبارات بنصها قالها الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) الذي روى فيه قصة الشك حينما جاءت... بألفاظها.

ثم يقول ديكارت: "إن مما يزيد حالة الشك ويؤكد لها أن يكون هناك مصدر للشك من خارج نفسي ، فقد يكون هناك روح خبيث قادر على خداعي يبذل قدرته ومهارته في خداعي ، فيجعلني أخطئ في كل شيء حتى في أبسط الأمور ، والرجل يريد بهذا الروح الخبيث الشيطان..."

هكذا ذكر ديكارت مصادر الشك لديه ، فهي من داخل نفسه في الحس والعقل والوحي ، ثم من خارج نفسه في الروح الخبيث أي : الشيطان.

ثم يأخذ ديكارت بعد ذلك في الخروج من شكه ، والتغلب عليه ، فيبدأ في إثبات وجوده هو ، ثم يثني فيثبت من خلال وجود نفسه وجود الإله الذي يؤمن به ، أو يزعم الإيمان به ، ثم يثبت بعد ذلك العالم".

## كيف أثبت وجود نفسه ، ثم وجود إله ، ثم وجود العالم

وتعالوا نسير مع "ديكارت" في رحلته الخيالية لنرى أولاً كيف يثبت وجوده ، ثم كيف يثبت إلهه :

بالنسبة إلى إثبات وجوده يقول ديكارت: "إنني أعيش حالة من الشك المطلق ، لكن وأنا في هذه الحالة من الشك المطلق أتلفت بفكري فأجد شيئاً يقاوم هذا الشك المطلق عندي ، هذا الذي يقاوم الشك عندي هو أنني أشك ؛ فحالة الشك

التي أعانيها هي الشيء الوحيد الثابت عندي، فأنا أستطيع الشك في كل شيء إلا في أنني أشك، ولما كان الشك تفكيراً؛ فأنا إذن أفكر، ولما كان التفكير دليلاً على الوجود فأنا إذن موجود، ويمكن صياغة كلام الرجل في قضية منطقية هكذا: أنا أشك وكل من يشك يفكر، وكل من يفكر موجود، إذن أنا موجود، ويمكن صياغتها أيضاً هكذا، أنا أشك فأنا مفكر، فأنا موجود، وتختصر إلى العبارة المشهورة عنه: "أنا أشك فأنا موجود".

وهذا قياس فاسد؛ لأن فيه دوراً ظاهراً، فالرجل يشك لأنه موجود، ثم هو موجود لأنه يشك؛ فالقضية كلها مبنية على مغالطة واضحة، ومن ثم فبطلان فلسفته أو نظريته واضح، وقد انتبه إلى هذا الدور الباطل في نظريته كثير من الفلاسفة، وأعلنوا فساد نظريته، وبطالان فلسفته.

أما عن إثبات وجود إله المزعوم فيقول: "الواقع أنني أجد بين أفكاري فكرة الله، أعني: فكرة موجود كامل لا متناهي، وهذه الفكرة واضحة ومتميزة، فمن أين أتتني وأنا ناقص؟! إن الشيء لا يخلق نقيضه يقول: أنا ناقص وأجد عندي فكرة عن موجود كامل - الكمال المطلق هو الله، فمن أين أتتني فكرة الكمال المطلق وأنا ناقص؛ والشيء الناقص لا يأتي أو لا ينتج عنه ما يناقضه؟!".

إذن هذا دليل على أن فكرة الكمال المطلق لم تأت من نفسي، وإنما أتتني من قوة خارجة من عند الله، وهذا دليل على وجود الله"، أرايتم هذا الذكاء المفرط عند الرجل؟! هذا كلام الرجل في إثبات إله المزعوم، وهو كلام - كما ترون - ساقط متكلف لا يثبت شيئاً ولا ينفيه.

وليس لنا من تعليق على هذا الغثاء الذي جاء به الرجل، لكننا نعرف أن الرجل نصراني، وقد جاءه عن طريق عقيدته النصرانية ثلاثة آلهة: ولو التزم الرجل

نصرانيته لكان أولى، مع أن النصرانية كفر، وكلامه هذا كفر، لكن بعض الكفر أكثر من بعض!.

والذي رأيناه أن ديكارت كفر بالإله الذي جاءت به نصرانيته، واحد هو ثلاثة، أو ثلاثة هم واحد كما يزعمون، وشك فيه، وقد ذهب يبحث عن إله يخترعه بعقله بعيداً عن ديانته النصرانية، ولم يكن بحثه عن إله رغبة منه في معرفة حق، أو رعاية لدين، وإنما كان يحقق حظ نفسه من الشهرة، وإظهار براعته العقلية، وذكائه الفلسفي؛ لذلك وقع في خلط كثير، وتناقضات كبيرة، وكأن الإله قد أخفى نفسه عن الخلق، وانتظر أن يأتي هذا الأفك؛ ليدل الناس عليه، ويخترعه اختراعاً... سبحانك هذا بهتان عظيم.



## الفلسفة الوضعية الإلحادية عند "أوجست كونت"

### عناصر الدرس

٢٤١	العنصر الأول : الفيلسوف أوجست كونت
٢٤٤	العنصر الثاني : فلسفة أوجست كونت
٢٤٩	العنصر الثالث : نقد فلسفة كونت



## الفيلسوف "أوجست كونت"

ندرس نماذج من الفلسفة الغربية ممثلة في أشخاص الفلاسفة الذين نختار كل واحد منهم ممثلاً باتجاه من اتجاهات تلك الفلسفة:

والاتجاه الذي معنا هو الفلسفة الوضعية، أو المذهب الوضعي والمثال أو النموذج الذي معنا لفيلسوف يُمثل الإلحاد، أي: الاتجاه الإلحادي في الفلسفة الغربية، لننبه على أن الرجل لم يكن ملحدًا عاديًا، بل كان فذًا بين الملحدين، وكان كما ذكرنا غريبًا وعجيبًا في كراهيته للدين والمتدينين، كما سيتضح لنا - بحوله تعالى. موضوعنا هو الفيلسوف الأشهر في الفلسفة الحديثة بعد "ديكارت" وهو "أوجست كونت"، وحديثنا عنه في نقاط:

## أولاً: حياته:

وُلد "أوجست كونت" بباريس سنة ثمان وتسعين وسبعمائة وألف للميلاد لأسرة متدينة، شديدة التعلق بالكنيسة أي: بالنصرانية الكاثوليكية، وكان المنتظر أن يكون هذا الرجل ابن أسرته في ذلك متدينًا متزمتًا، لكنه فاجأ أسرته بإعلانه كفره بالنصرانية وجميع الأديان، وقد اتخذ قراره ذلك في سن مبكرة؛ حيث كانت سنة حين أعلن كفره حول الرابعة عشرة.

لم ينتظم في التعليم طويلًا، لكنه تولى تعليم نفسه، فدرس الرياضيات، وبرز فيها، وكذلك الفلسفة، ثم اتصل بالفيلسوف الفرنسي الشهير سان سيمو، وعمل سكرتيرًا له لخمس سنين، من سنة سبعة عشرة وثمانمائة وألف إلى اثنتين وعشرين وثمانمائة وألف، ثم اختلف معه حول بعض القضايا الفكرية فتركه.

## نقد الفلسفة الغربية

اشتغل بعد ذلك بإلقاء محاضرات في فلسفة العلوم، وكانت محاضراته تجتذب الكثيرين من العلماء، لكنه بعد ثلاث سنين أُصيب بلوثة عقلية، وانهار عصبى، ولما شفي من مرضه عاد إلى إلقاء محاضراته، لكن الأمر لم يطل به؛ حيث عاوده المرض العقلي مرة أخرى، فحاول الانتحار، ولكن امرأته عنيت به حتى مرت الأزمة.

وكان مرضه الثاني بسبب هيامه بامرأة عشقها حتى الجنون، ولما ماتت هذه المرأة التي عشقها بعد سنتين من هيامه بها أصابته لوثة الجنون التي بدا أنه شُفي منها، بينما كانت لوثته وجنونه يعيشان داخله، يستقي منهما أفكاره، وفلسفته؛ حتى كان ذلك الكم الهائل من الفلسفة التي أقل ما توصف به أنها فلسفة ساقطة، لا تصدر إلا عن رجل مجنون.

لم يقف به جنونه عند حد عدائه للدين، بل وصل به الجنون إلى اختراع دين جديد من بنيات جنونه، أخذ يدعو إليه بقية حياته حتى اجتذب إليه جماعات من أمثاله المجانين، ثم هلك سنة سبع وخمسين وثمانمائة وألف للميلاد.

## ثانياً: مفتاح شخصية الفيلسوف، أو المؤثرات في فلسفته:

المؤثرات في شخصية "أوجست كونت" كثيرة أهمها:

**أولاً:** العصر الذي كان الرجل يعيش فيه: حيث اتسم هذا العصر بالفوضى الفكرية، والغوغائية المذهبية؛ حيث كانت الشعوب الغربية تعيش حالة من الكبت والحجر على الفكر والرأي قرابة الألف عام، وكانت تلك الشعوب مطحونة بين رجال الكنيسة وفسادهم من جانب، وطغيان أمراء الإقطاع من جانب آخر، ولما جاء الوقت الذي ثارت فيه تلك الشعوب على ثنائي الجريمة

هذا، واستنشقت نسمات الحرية لأول مرة منذ ألف عام تقريباً انطلق الناس كالسوائم التي طال سجنها، فأصابها سعار، من ثم أخذ الناس يُعبرون عن أنفسهم بأفكار وآراء على قدر كبير من الشذوذ، والكثير من أفكارهم تخطى عدوة العقل إلى عدوة الجنون، وليس من شك في أن أفكار "أوجست كونت" تُعدُّ مثلاً جيداً وواضحاً على ما قلناه.

**ثانياً:** من المؤثرات في شخصية الرجل: عدااء الرجل الشديد للدين والمتدينين: ولم يكن الرجل بدعاً في هذا وقت ذاك، فقد كان الإلحاد ومعاداة الدين سمة ذلك العصر، غير أن كراهية الرجل للدين ومقته المتدينين قد فاقت كل حد، وتخطى كل مثال، ولعل بعض ذلك يرجع إلى فساد رجال الدين النصارى، وما اتسموا به من الانحلال الخلقي، والفجور، والتفسخ، والشذوذ.

**ثالثاً:** من المؤثرات في شخصية الرجل النفسية والعقلية: حالته النفسية وحالة الجنون التي أصابته قبل ذلك مرتين - كما ذكرنا-: فالرجل كان يتميز بصفات نفسية وعقلية شاذة لازمتها طوال حياته، وتركت آثارها على فلسفته وأفكاره، فقد جمع الرجل بين الذكاء الحاد، والمزاج المتقلب، والنفسية المهزوزة، والعقل المضطرب، والمزاج المنحرف، والمشاعر المريضة. وكل هذه الصفات جعلته مؤهلاً للإصابة بالأمراض النفسية، والهزات العصبية، والاختلال العقلي.

**رابعاً:** من العوامل التي أثرت في فلسفة الرجل ما أدركه الرجل من حاجة المجتمع إلى الدين، أو إلى التدين بمعنى أصح، فالرجل يمقت الدين، ويرى أنه خرافة ووهم، وفي نفس الوقت يدرك جيداً أن المجتمع بحاجة إلى الدين، ولا يمكنه الاستغناء عنه، فهو يمثل حاجة جوهرية للمجتمع، وبدون الدين يفقد المجتمع اتزانه، وتهتز قيمه وتتصادم علاقات الأفراد فيه، ويفقد المجتمع أهم مقوماته...

## نقد الفلسفة الغربية

من هنا اشتغلت نار الحقد في قلب الرجل ، وأصابه الاضطراب والحيرة: كيف يتصرف مع هذا العدو الذي لا غنى عنه -أعني: الدين، والذي إذا فقد انهار المجتمع وفسدت العلاقات بين أفرادها؟!.

من هنا وجد الحل الذي هداه إليه جنونه ، وهو أن يخلق ديناً للإنسانية كلها من عنده ، وبذلك يحقق للإنسانية الدين الذي تحتاجه ، ولا تستغني عنه ، وفي نفس الوقت يقضي على الدين الذي يدين به مجتمعه ، ومن جانب ثالث يحقق لنفسه شهرة عظيمة حين يكون هو صاحب الدين الذي تدين به الإنسانية ، ولقد عكف على تكوين دينه الذي سوف يجعله دين البشرية جمعاء ، والذي سوف نراه تفصيلاً فيما يلي.

## فلسفة أوجست كونت

## ثالثاً: فلسفة "كونت":

تقوم فلسفة هذا الرجل الفيلسوف كونت على جوانب متعددة، لكننا -كشأننا في دراسة الفلسفة الغربية من خلال نماذج من فلاسفتها- نأخذ من كل فيلسوف ما يُعيننا على إدراك غايتنا وهدفنا، من التعرف على الاتجاه الذي تمثله فلسفته من جانب، ثم على نقد هذا الاتجاه من جانب آخر.

وفي هذا المجال سوف ندرس من فلسفة كونت موضوعين هما:

**الأول:** قانون الأحوال الثلاثة، أو كما يسميه الرجل قانون التقدم الإنساني: والذي يتحدث فيه الرجل عن الأديان في المجتمع الإنساني، وعن تطورها، والمراحل التي مرت بها حتى انتهت تماماً، ولم يعد لها وجود في المجتمعات

البشرية - كما زعم الرجل ، قبحه الله - وهذا الموضوع من فلسفة كونت هو الذي يمثل فلسفته الوضعية أو مذهبه الوضعي .

**الثاني:** دين الإنسانية ، وهو الدين الذي اخترعه الرجل "أوجست كونت" بديلاً عن النصرانية في مجتمعه ، وعن الأديان كلها في المجتمعات الأخرى .

وهذان الموضوعان - قانون الأحوال الثلاثة ، ثم دين الإنسانية - هذان الموضوعان يمثلان فلسفة كونت تمثيلاً كاملاً ، ثم إنهما ما يهمننا من فلسفته في هذا المجال .

### فلسفته الوضعية :

تقوم فلسفة كونت الوضعية على أن العقل الإنساني لا يدرك إلا ظواهر الأشياء المحسوسة في العالم الذي نعيشه ، ويدرك كذلك ما بين تلك الظواهر من علاقات مادية جزئية محسوسة .

أما البحث وراء الظواهر الطبيعية عن علل خفية ، أو أمور غائية ، أو حكمة وعناية ، أو فاعل مدبر ، أو خالق صانع ، وهذه كلها عند كونت أوهام وخرافات ما ينبغي أن يفكر فيها أحد ، وإن وُجد من يتمسك بها ويؤمن بحقيقتها فهذه أوهام ذاتية استمدّها من خياله وجهالاته ، ولا صلة لها بالواقع على الإطلاق . فالبحث في العلل والغايات وراء الظواهر المادية المحسوسة ؛ إضافة إلى أن ذلك وهم وخرافة ، فإنه لا ثمرة له في عالم الواقع ، وهو مفسدة للعقل مضیعة للجهد .

يتضح من ذلك أن المذهب الوضعي أو الفلسفة الوضعية التي وضعها "أوجست كونت" مذهب مادي حسي إلهادي ، يقوم على الإيمان بالمادة وحدها ، وينكر ما وراء الحس والمادة ، ويرى أن المعرفة اليقينية هي التي تقوم على الملاحظة والتجربة الحسية المادية .

## نقد الفلسفة الغربية

فالمذهب الوضعي إذن مذهب مادي إحدادي يُنكر جميع الأديان ، ويرفض عالم الغيب بإطلاق ، ويطعن في كل معرفة تأتي عن طريق الوحي ؛ لأنه لا يؤمن أصلاً بوجود الإله الموحى سبحانه ، فكيف يؤمن بوحي جاء من عند موح لا يؤمن هو بوجوده؟! هذه هي الأسس التي يقوم عليها المذهب الوضعي ، أو الفلسفة الوضعية... وعن هذا المذهب الأحادي صدرت جميع الآراء والأفكار الفلسفية لـ "كونت"... وذلك ما سنراه في دراستنا الموضوعين الآتين :

**الموضوع الأول:** قانون الحالات الثلاث ، أو قانون التقدم الإنساني - كما يسميه كونت - :

يرى كونت أن البشرية مرت عبر تاريخها الطويل منذ وجود الإنسان الأول حتى زمانه هو بحالات ثلاث ، أو مراحل ثلاث متتابعة ومتوالية ، كل مرحلة تسلم إلى التي تليها ، وهذه الحالات تلخص مسيرة البشرية الدينية.

والفيلسوف مثل كل الفلاسفة والمفكرين الماديين الملاحدة يعتقد أن البشرية بدأت حياة بدائية قريبة من حياة الحيوان ، ثم تقدمت تدريجياً عبر التجارب والخبرات الحياتية دون عناية ، أو معونة من إله.

وهذه هي نفس عقيدة علماء الاجتماع وعلماء النفس الغربيين ، فكل هؤلاء يعتقدون أن الإنسان نشأ بدائياً ، ثم تدرج بخبراته الذاتية حتى وصل إلى ما هو عليه الآن ، وهذا الرأي مناقض تماماً ومصادم للعقيدة الحقّة التي نؤمن بها نحن المسلمين ، بل ويؤمن بها كذلك اليهود والنصارى أهل الكتاب ؛ فكل أصحاب الأديان الكتابية يؤمنون بأن البشرية لم تبدأ بدائية قريبة من حياة الحيوان - كما يزعم هؤلاء - بل بدأ تاريخها بأبي البشر آدم # ، وقد كان آدم # ليس عاقلاً فقط ولا مثقفاً فقط ، بل كان نبياً ، ولم يكن جاهلاً ، ولا بدائياً # ؛ بل كان لديه من العلم الذي أفاضه الله تعالى عليه وعلمه إياه ما لم يكن لدى الملائكة.



بل إن الله تعالى قد أمر آدم # أن يعلم الملائكة بعض ما كانوا يجهلون، حيث قال له الله ﷻ: ﴿يَتَّادُمُ أَنبَتُهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] هذه عقيدتنا، وهي الحق الذي لا ريب فيه، لكن كونت الملحد يرى - كما يرى الملاحدة جميعاً - أن البشرية بدأت بدائية، ثم ترقى بخراتها الذاتية دون عناية إلهية؛ بأنه لا يؤمن بإله لهذا الوجود.

من هنا وضع الفيلسوف قانونه الذي يقوم على أن البشرية مرت بثلاثة أدوار، أو ثلاث حالات، كل حال تسلم إلى التي تليها:

**الحالة الأولى:** الحالة اللاهوتية، وفي هذه الحالة يزعم كونت أن الإنسان كان يبحث عن كنه الظواهر وحقيقة الأشياء، وكان يبحث عن علل مفارقة للأشياء والظواهر. وقد مر في هذه المرحلة بثلاثة أدوار:

**أولاً:** كان الإنسان يخلع على الظواهر والأشياء نوعاً من الحياة، وهي ما يسميه علماء الاجتماع والنفوس غريزة الاستحياء، أي: أن الإنسان البدائي - فيما يزعمون - كان يعتقد أن الأشياء حتى الجمادات مسؤولة عما يحدث منها، ومن ذلك أن الإنسان كان إذا اصطدم بحجر فتألم، فإنه يأخذ الحجر ويضرب به الأرض، وإذا اصطدم بحائط بصق عليه أو ضربه بحجر، كأنه يعاقبه، وهذا يعني أن الإنسان كان يتعامل مع الجمادات كأنها أشياء حية، فيعاقبها إن أحدثت له ما يتعبه أو يضايقه.

**ثانياً:** في هذا الدور بدأ الإنسان يعبد الآلهة المتعددة.

**ثالثاً:** داخل الحالة اللاهوتية وصل الإنسان إلى عبادة الإله الواحد.

وهذه الأدوار الثلاثة استحياء الجمادات والظواهر، ثم عبادة الآلهة المتعددة، ثم أخيراً عبادة الإله الواحد. هذه جميعها متضمنة في الحالة الأولى التي هي الحالة اللاهوتية.

**الحالة الثانية:** من قانون الحالات الثلاث: فهي الحالة الميتافيزيقية: وفي هذه الحالة يزعم كونت أن العقل الإنساني قد نضج نوعاً ما؛ ولذلك يرفض العقل تعليل الظواهر والأحداث بالعلل المفارقة التي هي الآلهة، ويبدأ في البحث عن علل الظواهر والأحداث داخل الظواهر نفسها، فيبحث عن علل الظواهر كظاهرة البرق، والرعد، والمطر، والزلازل... إلى آخره، يبحث عن عللها وأسبابها داخل هذه الظواهر نفسها.

**الحالة الثالثة:** ويسمىها الحالة الوضعية: ويرى الفيلسوف أن هذه الحالة هي قمة النضوج لدى العقل الإنساني، وهذه خاتمة الخبرات والتجارب الذاتية للإنسان، ويرى الفيلسوف أن هذه الحالة تتميز عن الحالتين السابقتين بما يلي:

**أولاً:** أن العقل في هذه المرحلة قد استبعد تماماً البحث عن علل وأسباب الظواهر والأحداث، واهتم بالظواهر والأحداث نفسها؛ وأنه اكتفى بذلك حتى لا يضع جهده في شيء لا فائدة فيه ولا نفع وراءه.

**ثانياً:** أن العقل في المرحلتين السابقتين كان يهتم بالأمر الغيبية ويبحث وراءها مثل العلل والأسباب؛ لكنه هنا قد أراح نفسه تماماً من الغيب والتفكير فيه؛ لأنه اكتشف أن الغيب خرافة ووهم لا حقيقة له - كما يعتقد الفيلسوف الملحد.

**ثالثاً:** أن العقل اكتفى في هذه المرحلة بالاهتمام بواقع الأشياء والظواهر، وقصر همه على اكتشاف قوانين الظواهر من خلال واقعها المادي المحسوس، القائم على الملاحظة والتجربة.

## رابعاً: نقد فلسفة "كونت":

نقد فلسفة الفيلسوف الوضعي أي: نقد قانون الحالات الثلاث الذي جاء به الفيلسوف:

هذه هي الحالات الثلاث التي تمثل الفلسفة الوضعية عند كونت، والتي فتن بها كثير من الفلاسفة الماديين الملاحدة، والتي أقام عليها مذهبه الذي اشتهر به في الفلسفة الغربية، وسماه الفلسفة الوضعية؛ فالفلسفة الوضعية عند الغربيين جميعاً هي ما وضعه "أوجست كونت" في هذه الحالات الثلاث.

لكننا إذا نظرنا إلى هذه الحالات الثلاث التي تقوم عليها الفلسفة الوضعية، نجد الكثير من النقود التي تبين عن فسادها، وضلالها، وتهافتها، وأهم هذه النقود ما يلي:

**أولاً:** من الملاحظ ابتداءً أن الفيلسوف كونت، وهو يتكلم عن فلسفته الوضعية المتمثلة في الحالات الثلاث، نلاحظ - كما لاحظ غيرنا - أن الرجل يصدر عن فكر نظري بحت، وعن أوهام ذاتية خالصة لا صلة لها بالواقع ولا بالموضوع، وبذلك أضحي، وهو الذي يتكلم عن الوضعية، وينعى على الأوهام الذاتية، أضحي مثلاً واضحاً وأنموذجاً فاضحاً لهؤلاء الذين يعيشون أسرى الأوهام الذاتية، والخرافات الشخصية من جانب، ثم يصدرون في فكرهم عن أبحاث نظرية لا صلة لها بالواقع، أو الموضوع من جانب آخر، وبذلك فقد الفيلسوف مصداقيته من اللبنة الأولى للنظرية التي أقام عليها فلسفته.

## نقد الفلسفة الغربية

وقد وقع الفيلسوف في هذه المناقضة الواضحة بين ما يدعو إليه والحقيقة التي هو عليها فعلاً حين أقام نظريته في قانون التقدم الإنساني التي أطلق عليها قانون الحالات الثلاث على فكر نظري خيالي بحت، دون أن يُعنى بدراسة المجتمعات الإنسانية في بيئاتها المختلفة وأقاليمها المتعددة، ودون أن يعطي الوحي الإلهي والحضارات الدينية لدى المتدينين حقه من البحث والتحليل والتحقيق.

**ثانياً:** ينظر كونت إلى المجتمعات الإنسانية على أنها بناء واحد ذو لبنات متماثلة، وأن تطورها وتقدمها يخضع لقانون واحد، ونمط معين لا يختلف في بيئة عنه في الأخرى؛ بينما الواقع يكذب ذلك الذي ذهب إليه الرجل، ويبين أن المجتمعات الإنسانية تختلف اختلافاً بيناً في أنماطها الحياتية، وأساليبها المعيشة، ومستوياتها الثقافية والحضارية، مما يجعل إخضاعها جميعها لقانون واحد في التقدم، أو التطور أمراً بعيداً عن الواقع والموضوع، ويجعل ذلك وهماً ذاتية، أو افتراضاً خيالياً لا يمت للواقع بصلة.

**ثالثاً:** مما يؤكد ما قلناه: أن الحالات الثلاث التي ذكرها الرجل، وأقام عليها نظريته في الفلسفة الوضعية لا تبدو متعاقبة في المجتمعات الإنسانية بنفس النسق الذي ذكره الرجل، بل تختلف المجتمعات فيما بينها من حيث مرورها بهذه الحالات الثلاث، ومن حيث ترتيبها إن هي وردت، فبعض المجتمعات يسير فيها الفهم العلمي للظواهر متساوياً مع الالتزام الديني جنباً إلى جنب، وذلك كالغرب النصراني في التزامه بالنصرانية، أو الشرق الهندوسي في التزامه بالهندوسية، مع تقدمه العلمي والتقني، فالحالة الوضعية - كما يسميها الرجل مريداً بها التقدم العلمي - هذه الحالة لم تأت كما زعم وتوهم على أنقاض التدين، بل صاحبت التدين في جميع الحالات.

**رابعاً:** أن الحالة اللاهوتية - كما يسميها كونت - ليست بالترتيب الذي زعمه جهلاً وافتراءً؛ حيث زعم بأن التعدد كان سابقاً للتوحيد، وأن التوحيد قد جاء متأخراً، بينما بدأت البشرية بالتعدد - هكذا زعم - ونحن نقول: إن الحق غير ذلك فالرجل قلب الحقائق وعكس الأوضاع؛ فالحق الذي ندين به ويدين به أصحاب الدينين الكتابيين - اليهود والنصارى - أن التوحيد - الذي ندين به - جاء ابتداءً قبل التعدد، وأن أول البشر آدم # كان نبياً، وكان موحداً - بطبيعة الحال، ولكن البشرية بعد مرور أجيال كثيرة ابتليت بالشرك والوثنية، وجاءت مرحلة التعدد بعد مرحلة التوحيد، وليس قبلها كما زعم هذا الرجل - أخزاه الله.

الرجل إذن واهمٌ مخرفٌ حين زعم أن الإنسان الأول كان بدائياً قريباً من الحيوان، ثم ترقى حتى صار على ما هو الآن، والرجل كذلك واهمٌ مخرفٌ حين زعم أن الإنسان بدأ وثنياً مشركاً، ثم وصل إلى التوحيد بعد ذلك، ولكن الحق عكس ذلك تماماً؛ بدأ الإنسان موحداً ثم ابتلي بالوثنية والشرك بعد ذلك، والرجل واهمٌ مخرفٌ كذلك حين زعم هذه الحالات الثلاثة وافتراها، بينما هي كذب وتخريف وضلال. وليت تخريف الرجل وقف عند هذا الحد؛ لكن الطامة الكبرى في فلسفة الرجل ما جاء به مما أسماه دين الإنسانية.

**خامساً:** دين الإنسانية: أشرنا فيما سبق إلى أن كونت رأى الأديان خرافة ووهماً، وأنها لا حقيقة لها، وأنها من أوهام البشرية الذاتية، وأنها من اختراع المجتمعات البشرية، لكنه لاحظ - في الوقت نفسه - أن الدين أيُّ دينٍ يمثل ضرورة اجتماعية، لا تستغني عنها الجماعة، ولا يستغني عنها المجتمع؛ لذلك وقع الفيلسوف بين أمرين متعارضين:

## نقد الفلسفة الغربية

**الأمر الأول:** أن الدين بكل صورته المعروفة لدى الناس ، وبخاصة النصرانية التي كان يدين بها قبل ذلك ، هذه الأديان كلها وهم من أوهام الذات وخرافة ، ومن ثم يجب القضاء عليها وتنقية المجتمع البشري منها ، هذا على حسب زعمه.

**الأمر الثاني:** أن الدين وإن كان وهمًا وخرافة إلا أنه نافع للإنسانية ، وعامل من أهم العوامل في استقرار المجتمع أفرادًا وجماعات ؛ حيث يحد من أنانية الأفراد ، وانحلال السلوك ، ويعمل على توازن الأفراد وتماسك الجماعة. ومن ثم فإن القضاء على الدين قضاء على كل هذه المنافع في المجتمع ، وربما انهيار المجتمع كله بسبب القضاء على الدين...

وهنا يأتي السؤال : ماذا يفعل الرجل الملحد الكافر ذي الأديان ، هل يقضي على الدين فيقضي على منافعه للمجتمعات البشرية ، أم يبقى على الدين وهو يعتقد أنه خرافة ووهم وزيف؟!.

لقد توصل الرجل الملحد إلى حل يحقق به الأمرين جميعًا :

**الأمر الأول:** يبطل الأديان الوهمية الكاذبة ويصرف الناس عنها ، أو قل ينقذ الناس منها.

**الأمر الثاني:** يضمن في نفس الوقت الأمان للمجتمعات ، ويوفر لها جميع المنافع التي كان الدين يوفرها لها ، وزيادة...أما كيف ذلك؟

إن الرجل يبحث في إلغاء الأديان التي يدين الناس بها بكافة أشكالها ، وبخاصة النصرانية ؛ لأنها أديان خرافية وهمية من جانب ، ولأنها تقوم على الإيمان بالغيب ، والغيب في نظر الرجل هو أخطر خرافات الدين التي تزيف الواقع ، وتفسد العقل الإنساني ، وتضلله ، ثم بعد أن يُلغي الرجل الأديان التي يدين بها

الناس يقيم بديلاً منها ديناً جديداً من اختراعه هو، وأهم ما يميز هذا الدين أنه لا يقوم على الغيب، ولا يحتوي شيئاً منه، ذلك أن الإله المعبود في هذا الدين الذي سوف يخترعه الرجل إله مشاهد محسوس. ذلك هو ما أسماه كونت دين الإنسانية، فما هذا الدين؟

رأى كونت أن التدين خصيصة النوع الإنساني، وأن جميع أفراد المجتمع تتوحد حوله، وتجتمع عليه، وترى نفسها فيه، وحينما فكر الرجل في اختراع دين جديد أخذ يبحث عن الإله الذي يضعه لدينه، فهداه تفكيره إلى الإنسانية، ولماذا الإنسانية؟!

لقد رأى الرجل أن الإنسانية هي أعظم شيء في الوجود يستحق التقدير والإعجاب والإكبار، كذلك؛ فالإنسانية كما يراها الرجل حقيقة ممتدة من الماضي البعيد إلى الحاضر، ثم هي تنتقل عبر الحاضر إلى المستقبل، ووجود الإنسانية وجود مادي حسي مشاهد، ليس هذا فحسب، بل كل فرد من أفراد الإنسانية يشارك في صنعها، وفي وجودها وتحققها حتى الفيلسوف ومعاصروه.

من هنا اخترع الرجل ما أسماه دين الإنسانية، ودين الإنسانية عند الرجل يقوم على عبادة ما أسماه الرجل الإنسانية؛ فالمعبود في هذا الدين أو الرب في هذا الدين والإله إنما هو الإنسانية، لكن الرجل لاحظ أن الإنسانية لا تعيش في فراغ، بل هي تعيش على الأرض، وتسبح في الهواء، وتظللها السماء؛ من ذلك صاغ الرجل المجنون المعبود في دينه الجديد من هؤلاء الثلاثة: الإنسانية، والأرض، ثم السماء والهواء، وقد وضع لكل من الثلاثة اسماً خاصاً به، أي: مصطلحاً، فصار معبوده هو الموجود الأعظم، ويقصد به الإنسانية، ثم الفتش الأعظم، ويقصد به الأرض؛ ثم الوسط الأعظم، ويقصد به السماء والهواء.

أنواع العبادة: لقد قسّم "كونت" العبادة إلى نوعين:

**النوع الأول:** عبادة فردية، وفيها يتوجه الفرد بالعبادة والتقديس إلى ما يخصه هو شخصياً، دون نظر إلى المجتمع ومن فيه، فما يتصل بشخصه ممن لهم فضل عليه مثل أبيه وأمه، أو أحد أساتذته ممن لهم فضل خاص عليه، أو زعيمه السياسي، أو يتجه إلى قريته وأسرته، فيتوجه إلى هؤلاء أو بعضهم بالعبادة؛ تكريماً للإنسانية الموجود الأعظم، المتمثلة في أشخاص هؤلاء، وهذا النوع من العبادة سماه عبادة فردية؛ لأنه يتصل بكل شخص على حدة.

**النوع الثاني:** العبادة المشتركة، وفيها يتوجه المجتمع كله بشكل جماهيري جماعي، وفي أيام معينة يطلق عليها الرجل اسم أعياد تذكارية يتوجه الناس جميعاً بشكل جماهيري جماعي، وفي أيام معينة يُطلق عليها الرجل اسم أعياداً تذكارية، يتوجهون فيها بالعبادة إلى هؤلاء الأفراد الذين قدموا خدمات للإنسانية كلها، وامتازوا بالجد والاجتهاد في تقدم الإنسانية في كافة المجالات العلمية، والاقتصادية، والفنية، وغيرها، وفي هذه الأعياد يعبد هؤلاء الأشخاص ويقدمون تكريماً للإنسانية التي يمثلونها.

ننتقل إلى الهيئة الإكليريكية أو رجال الدين، الرجل كون رجال دين لدينه الجديد، ولأن الدين -أي دين- لا بد له من رجال دين، فقد كون الرجل رجال دين لدينه الجديد، من هؤلاء الفلاسفة والشعراء والأطباء.

نلاحظ أن الرجل كون دينه قائماً على معبود من ثلاثة: الإنسانية، ثم الأرض التي تعيشها عليها، ثم السماء والهواء، ثم حينما كون رجال دين كونهم أيضاً من ثلاث، وهم الفلاسفة، والشعراء، والأطباء...



## هل كفر "كونت" بالنصرانية؟

إن الرجل - وهو يكون دينه الجديد- بعد أن زعم أنه كفر بالنصرانية التي تقوم على ثلاثة ؛ حركت الرجل فجعل معبوده ثلاثة ، ثم جعل رجال الدين ثلاثة.

ونحن بعد ذلك ليس لنا من تعليق على دين الرجل الجديد ، وليس لنا من نقد إلا أننا نقول : إن كل هذا الغشاء الذي جاء به الرجل أحقر من أن يُنقد ؛ لأن نقد شيء ما يتطلب بالضرورة أن يكون هذا الشيء قد حصل الحد الأدنى من الفكر المعبر ، والفهم المتزن ، والمعالجة المقبولة لدى عامة العقلاء ، وإلا فإنه لا يكون أهلاً للنقد ، ولا مستحقاً لبذل الوقت وإضاعة الجهد ، وهذا الذي كتبه الرجل كونت حول ما أسماه ديناً أو دين الإنسانية هو غشاء يعلو عليه الغشاء وعبث وتفاهة يسمو عليه العبث ، وتكبر عنه التفاهة ، أعني : أن كثيراً مما يطلق عليه غشاء وعبث وتفاهة أعلى وأكثر احتراماً واعتباراً من فكر هذا الرجل ، ومن ثمّ كان فكر هذا الرجل لا يستحق أن ينقد ؛ لأنه ليس فيه ما ينقد.

ثم إن النقض في ذاته عمل عقلي وجهد فكري ، وفكر الرجل ومشروعه الذي طرحه عن دين ازدراء بالعقل ، وإهانة للفكر ، وإزراء لأدنى مستويات المنطق السليم ، لذلك آثرنا أن نجعل نقدنا لهذا الفكر ليس نقداً وإنما هو تعليق.

## تعليقات على فلسفة "كونت" :

**أولاً:** أول الأخطاء التي ارتكبتها الرجل حول دينه الذي اخترعه ، أن هذا الدين الذي اخترعه الرجل إنما هو من بنات أفكاره ، أو من مقترحاته ، والأديان لا تُقترح ولا تُطرح على الناس كما تطرح فكرة أو رأي أو مشروع.

## نقد الفلسفة الغربية

**ثانياً:** ثاني الأخطاء التي ارتكبتها الرجل يتمثل في طرحه ديناً خالياً من الغيب، ليس فيه غيب، أو أمور غيبية، وقد غفل الرجل جهلاً منه وحمقاً عن أن الدين من حيث هو دين لا يمكن أن يكون إلا على الغيب، حتى الأديان التي تعتمد عبادة الأشخاص، أو الأوثان المادية المحسوسة، لا تستقيم عبادتها إلا على اعتقاد معتنقيها قوى غيبية تحل في هؤلاء الأشخاص أو الأديان.

**ثالثاً:** زعم الرجل بأنه كفر بالنصرانية ديناً، وأنه يعارضها ويرفضها، ويريد تخليص الناس منها، هذا الزعم كيف نصدقه، وقد بان لنا من النظام الذي أقام عليه دينه أنه اختار جميع ما فيه من الأصول على غرار النصرانية، حتى إن دينه الجديد كأنه صورة من النصرانية مع نوع من التحريف؟!.

## الفلسفة الوجودية لدى الغربيين

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : التعريف بالفلسفة الوجودية، والعوامل التي أدت إلى نشأتها ٢٥٩
- العنصر الثاني : أشهر فلاسفة الوجودية في العصر الحديث ٢٦٤
- العنصر الثالث : مبادئ الوجودية وأسسها ٢٦٦



## التعريف بالفلسفة الوجودية، والعوامل التي أدت إلى نشأتها

فنتناول مذهباً فلسفياً هو من أشد الاتجاهات الفلسفية الغربية عداءً للدين، ومقتاً للمتدينين، وتدميراً للأخلاق، وإفساداً للسنة، وهدماً للقيم، ومناقداً للفطرة، وإهداراً لكرامة الإنسان ومكانته بين الموجودات التي خلقها الله تعالى.

حديثنا الاتجاه الوجودي، أو الفلسفة الوجودية لدى الغربيين: وأذكركم دائماً بأننا اتفقنا على أن عبارة "اتجاه فلسفي" تعني: فلسفة قال بها عدد كبير من الفلاسفة، وإن اشتهر بها واحد من بينهم، إلا أن شهرته لا تُلغى واقع أن الآخرين يقولون بما يقول به هو، فالفلسفة الوجودية تُمثل اتجاهاً قال به ويقول به كثير من الفلاسفة.

وسوف نتناول الفلسفة الوجودية أو الاتجاه الوجودي في الفلسفة الغربية من خلال النقاط الآتية:

## أولاً: التعريف بالفلسفة الوجودية:

الفلسفة الوجودية مذهب فلسفي مادي حسي شهوي إلحادي، يركز على الوجود المادي الفردي الفرزي الحسي للإنسان، رافضاً كل القيم والضوابط التي تنظم إشباع دوافع الإنسان وشهواته، فهو من أشد الاتجاهات الفلسفية إغراقاً في الإلحاد، وإصراراً على الكفر والزندقة، وعداءً للدين بكافة صورته، يُركز تركيزاً شديداً على الوجود الشهوي المادي المسف لدى الإنسان، وهذه الفلسفة يزعم أصحابها: أن الإنسان هو الكائن الوحيد العاقل في هذا الوجود كله، فلا يوجد كائن عاقل سواه، لا ملائكة ولا جن ولا شياطين؛ لأن هؤلاء جميعاً - أعني:

الملائكة والجن والشياطين - غيب من الغيوب، والوجوديون أشد الخلق عداءً وإنكاراً للغيب، ولا يوجد دين، فالدين كله وما يتصل به وينبني عليه إنما هو عند هؤلاء وهُم من الأوهام الذاتية لدى الناس يجب القضاء عليه وتخليص الناس منه.

وحيث إن الإنسان هو الكائن الوحيد العاقل في هذا الوجود كله، فينبغي أن نركز عليه، ثم إن الوجود المادي الحسي للإنسان هو الحقيقة الوحيدة المتيقنة في هذا العالم، من ثمَّ ينبغي ألا نشتت جهودنا وأبحاثنا حول أمور خرافية متوهمة لا وجود لها في الواقع كالأديان والقيم والعادات والأعراف والاهتمام بالآخر، بل ينبغي أن نركز على الشيء الوحيد في هذا الكون، وما يتيقن من أحواله، فالكائن الوحيد العاقل هو الإنسان، والشيء المتيقن منه أو الحقيقة المؤكدة من الإنسان هي وجوده المادي الحسي الشهوي.

لذلك ينبغي حصر اهتماماتنا حول هذا الأمر المؤكد المتيقن، وكل مجهود في غير هذا عبث وخرافة ووهم وبلاء.

وقد رتب فلاسفة الوجودية بناءً على زعمهم أن الإنسان وحده هو الكائن العاقل في هذا الوجود، وأنه لا يوجد إله ولا ملك ولا جن ولا شيطان، ورتبوا على ذلك أن الإنسان وحده هو مقياس كل شيء في هذا الوجود، وأنه هو الذي ينبغي أن يشرع لنفسه، وأن شهواته ونزواته وغرائزه هي الميزان الذي يوزن به كل شيء في هذه الحياة. ثم إن الإنسان حرٌّ حرية مطلقة يفعل فيها ما يشاء بلا حدود أو قيود، ويرون أن ذلك أمر طبيعي وموضوعي؛ لأنه إذا كان الإنسان هو الوحيد في هذا الكون ولا يوجد معه ولا قبله ولا بعده كائن عاقل غيره، فمن ذا الذي يضع القيود ويحد له الحدود؟ ومن ذا الذي يبين له ما يجوز وما لا يجوز؟

إن الإنسان بناءً على ذلك عند الوجوديين حر في أن يفعل ما يشاء كما يشاء في الوقت الذي يشاء وعلى الهيئة التي يشاء دون سلطان لأحد عليه، وهو قادر على خلق أعماله، وهو كذلك قادر على تدبير وتصريف شئونه في كل مناحي الحياة دون حاجة إلى خالق ولا رب ولا إله. هكذا زعموا - قبحهم الله.

### ثانياً: العوامل التي أدت إلى نشأت الوجودية:

إن المرء حين يقرأ عن الوجودية أو عن الفلسفة الوجودية يشعر شعوراً محمضاً، ويدرك بوضوح أن هذا الفكر انتكاسة للطبيعة البشرية، وردة فكرية حضارية، وخروجٌ على فطرة الله التي فطر الناس عليها، وحين يصل الإنسان إلى هذه المرحلة فإنه لا بد أن يُسائل نفسه عن الأسباب التي جعلت بعض المفكرين ينحدرون إلى هذا المستوى المسف المتدني من الفكر، وحين نبحث عن أسباب نشأة الفكر الوجودي نجد أسباباً كثيرة؛ أهمها ما يلي:

**السبب الأول:** تحكّم الكنيسة في شئون الناس العقديّة والكونيّة - أعني: الشعوب الغربية - وفرضها آراءً وعقائد تصادم العقل والواقع، وتناقض الفطرة والجبلية من أمثال هذه العقائد التثليث والتوحيد، والصلب والفداء، والخطيّة الجديّة، وصلب الإله وموته، ثم قيامته من الأموات وصعوده إلى السموات... إلى آخر هذه العقائد التي تورث الهم واليأس. وقد عبّر فيلسوف الوجودية الذي يعتبر من أكبر المؤسسين للفكر الوجودي أعني به "صور كيرك جارد" عبّر عن مأساته مع عقائد النصرانية، فقال: إن الصليب هو الصورة الوحيدة والانفعال الوحيد اللذان كانا عندي عن المنقذ - يقصد المسيح الإله - ورغم طفولتي كنت كأني رجل مسن يائس، وقد رافقتني هذه الصورة طوال حياتي، ومنذ طفولتي

الأولى نفذ سهم الحزن والهم في قلبي ، وما دام فيه فسأظل ساخرًا ولو انتزعته لمتُّ. هذا كلام "صور كيرك جار".

**السبب الثاني:** من العوامل أو من الأسباب التي أدت إلى نشأة الفكر الوجودي: خلو المجتمعات الغربية النصرانية من الوازع الديني نتيجة فقدانها الإيمان بما يشيع في دينها النصراني من عقائد، ثم انعدام الثقة في رجال الدين لديهم، وبسبب ذلك بدأت المجتمعات الغربية في الانحطاط والتردي في مهاوي الشك والحيرة، ثم اعتناق الأفكار والفلسفات الشاذة الضالة.

وقد ساعد على ذلك عوامل ثلاثة:

**أولاً:** مبادئ وعقائد النصرانية التي تخالف الفطرة وتصادم طبيعة الإنسان - كما بينا قبلاً.

**ثانياً:** انحراف رجال الدين النصارى الذين تاجروا بالدين، واستغلوه في إشباع غرائزهم الدنيا، وبخاصة عقيدة الاعتراف، وإصدارهم ما سمي "صكوك الغفران"، وبذلك وصل الفساد الخلقى والانحلال السلوكي إلى قمة الهرم الديني عند النصارى، فلم ينجوا منه حتى الكرادلة الذين يتكون منهم ما يسمونه "المجمع المقدس" و"الباباوات" كذلك، بل كانوا هم الذين يقودون مسيرة الفساد والانحلال.

**ثالثاً:** الظلم الفادح الذي كان يزاوله أمراء الاقطاع والملوك في الغرب ضد الشعوب المستذلة، يعاونهم في ذلك رجال الكنيسة الذين وضعوا أيديهم في أيدي الإقطاعيين، وطحنوا الشعوب كما يطحن الحَب بين فلقتي الرحى، كل ذلك أصاب الناس باليأس والقنوط، وفقدان الثقة في الدين النصراني الذي يعتبر - أي: الدين - آخر الحصون التي يتترس به الناس ضد الظالمين، فإذا أتى الظلم من



الدين ورجاله فانتظر كل غريب وشاذ من الأفكار والفلسفات، وحين ضاق الناس بالملوك ورجال الدين معاً، أطلقوا شعارهم المشهور: "اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس".

**السبب الثالث:** من العوامل التي تسببت في نشأة الفكر الوجودي: الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، تلك الحروب التي أورثت الشعوب البؤس والتشرد والجوع والحرمان، إلى الحد الذي جعل الأحياء يغبطون الذين قتلهم الحرب على مصيرهم الذي أراحهم فيه الموت من ويلات الحياة وشقائها، فانظروا -يرعاكم الله- ذلك الشقاء الذي يجعل الأحياء يحسدون الموتى، ويتمنون أن لو كانوا أمثالهم.

ولقد شاهد فلاسفة الوجودية مشاهد الفقر والبؤس وصور الظلم الاجتماعي في روسيا القيصرية، وفي فرنسا اللويسية نسبةً إلى "لويس" ثم كانت المآسي التي صاحبت تطبيق الشيوعية على أيدي "لينين" وتلميذه "استالين" وأشياعهم -أخزاهم الله جميعاً، هؤلاء الذين كانت تحكمهم وهم يطبقون الشيوعية بالحديد والنار، كانت تحكمهم تلك المقولة التي قالها "لينين" حين عاتبوه على قتله الشعب الروسي بلا حساب، فماذا قال "لينين"؟ قال: أنا لا يهمني أن أقتل ثلاثة أرباع العالم ما دام الربع الباقي سيكون شيوعياً!!

لقد خلفت الحرب العالمية الأولى والثانية وما صاحب فكر الشيوعيين في روسيا بين الحربين من المآسي واليأس والقنوط لدى من شاهدها، ما ذرع الشك والحيرة في قلوبهم، ثم تبع ذلك إنكار القيم والمبادئ والأخلاق، مما جعل أحد الزعماء يوجه نداءه إلى المشردين في كل بلاد الغرب الذين لا مأوى لهم ولا سبيل للعيش أمامهم، طالباً منهم أن يهدموا مجتمعاتهم على رؤوس حكوماتهم، واصفاً هؤلاء المشردين بالجرزان، قائلاً في نداءه: أيها الجرزان، التي تعيش تحت الأنقاض، وتختبئ في الخنادق، هبوا من نومكم، وأفيقوا من سكرتكم، وأعيدوا

أيامكم التي فقدتموها، واطرحوا وراءكم كل ما يربطكم بالدين، وتخلوا عن مبادئ الأخلاق، ودوسوا على قواعد العادات والأعراف.

**السبب الرابع:** تُعقب الحروب دائماً هزات اجتماعية، وأمراضاً نفسية، ومآسي اقتصادية، تنتج عن الحرب وتصاحبها، وأخطر من ذلك ما يعقبها حين تنتهي الحرب وتهدأ الأمور، ويبدأ كل إنسان يراجع مكسبه وخسارته، هنالك نجد شيوع الفقر والجوع، وانتشار المشردين كباراً وصغاراً، ونجد الأطفال الأيتام الذين لا عائد لهم، والأولاد الذين لا يعرفون لهم آباء أو أمهاتٍ أو أسراً أو هويةً، وطبعيُّ أنه على أيدي هؤلاء المشردين الذين لا أسر لهم ولا هوية ولا ولاء ولا انتماء، تنتشر الأفكار الشاذة، والآراء الضالة، والسلوكيات المسفة، فهؤلاء بطبعهم وظروفهم يكونون رافضين للدين والأخلاق، والأعراف والتقاليد، وفي المقابل يكونون متقبلين كل فكر ضال متطرف، وعلى أيدي هؤلاء وُلدت الأفكار الوجودية، وذاعت وانتشرت مبادئها وخزاياها.

### أشهر فلاسفة الوجودية في العصر الحديث

**ثالثاً: أشهر فلاسفة الوجودية في العصر الحديث:**

يحلو للكثيرين من مؤرخي الفلسفة الغربية أن يرجعوا هذه الفلسفة إلى فلاسفة قدماء يونانيين، فيرجعها بعضهم إلى "سقراط" وبعدهم يرجعها إلى ما قبل "سقراط" فيسندوها إلى "السوفسطائيين" ويرجعها بعضهم إلى "الأيقوريين". لكن إذا نظرنا إلى تعريفها ثم إلى مبادئها، لا نجد أنها تصدق على فئة من هؤلاء، بل هي بمبادئها المعروفة لا تصدق على هؤلاء الفلاسفة الوجوديين المحدثين، وإذا نظرنا إلى فلاسفة الوجودية المحدثين نجد أن أشهرهم ثلاثة:

**الأول:** "بليز باسكال" ١٩٢٣ - ١٩٦٣ ميلادية، فيلسوف فرنسي، كان خارق الذكاء، لكنه عاش يعبر عن الشك والحيرة، ويتغنى بالبؤس والتشاؤم، كان يقول عن البرهنة والاستدلال على وجود الله: فإننا عاجزون عن البرهنة عجزاً لا يقوى عليه المذهب الاعتقادي، ولدينا فكرة عن الحقيقة لا يقوى عليها مذهب الشك، أي: أنه واقف في الوسط لا يستطيع أن يركن إلى هذا، ولا يستطيع أن يركن إلى ذلك، ويقول: ويوجد التناقض في أفعال الإنسان ومحدثاته، نعتقد بوجود سياسة العدالة في الدول، وبقوانين طبيعية يجب أن تحتذيها القوانين المدنية، لكن العدالة تختلف باختلاف الدول، نحرم في الواحدة ما نبيحه في الأخرى.

هذه النصوص توضح مدى الشك والحيرة والاضطراب في فكر الرجل.

**الثاني:** "سور كرك جارد" ١٨١٣-١٨٥٥ ميلادية، من الفلاسفة البارزين في الوجودية المعاصرة، فيلسوف دينماركي، ترجمت كتبه وانتشرت في القرن التاسع عشر والقرن العشرين، كان تأثيره مقصوراً على ألمانيا واسكندنافيا، كان مشهوراً في ألمانيا واسكندنافيا، ثم اشتهر وزاع على يد الوجوديين الفرنسيين، كان قسماً بروتستانياً، ثم هاله وأثر فيه نفسياً ما وجدته في بيئته النصرانية من رياء وتناقض بين دعاوى رجال الدين النصارى، حيث يقولون ما لا يفعلون، ويدعون النصرانية بينما يفعلون خلاف ذلك، يدرك جيداً تناقض عقائد النصرانية ومعارضتها للعقل، ولكنه يدعو إلى اعتناقها مهما كانت معارضة للعقل، ثم في نهاية حياته انفصل عنها نهائياً.

**الثالث:** هو فيلسوف الوجودية بلا منازع، وهو "جان بول سارتر" هو فيلسوف معاصر، هلك منذ بضع سنين، وهو فرنسي ركب موجة الانحلال والتفسيخ

## نقد الفلسفة الغربية

الأخلاقي التي شاعت في فرنسا، ثم أخذ يدعو إلى إعلان الحرب على الأديان، ويسخر من القول بوجود الله، وله مقولة شهيرة كان يرددتها دائماً في وجوه المتدينين، كان يقول معترضاً على القول بوجود الله الذي خلق الوجود كله: "إذا كان الله قد خلق العالم فقولوا لنا: مَنْ خلق الله؟!!"

وكان يظن أنه بذلك حسم القضية لصالح الكفر والإلحاد، وقد تفرد هذا الفيلسوف الوجودي الفاجر بأنه أكثر الفلاسفة الوجوديين كفرةً وإلحاداً، وأحطهم أخلاقاً، وأسفهم سلوكاً، وأشدهم ثورةً وضجيجاً، وهو غزير الإنتاج قصصاً ورواياتٍ ومسرحياتٍ ومقالاتٍ ومحاضراتٍ، ذو نشاط واسع، وقد ترك نشاطه هذا في التأليف رواجاً للوجودية في كثير من البلدان، وقد كان من أكثر تلامذة "سارتر" الوجوديين بمصر الدكتور/ عبد الرحمن بدوي، الذي كان وجودياً ملحداً حتى النخاع، ثم من الله تعالى عليه بالهداية في أواخر حياته. نسأل الله تعالى له القبول والرحمة.

## مبادئ الوجودية وأسسها

## رابعاً: مبادئ الوجودية وأسسها:

للوجودية - كما لكل مذهب - فلسفي مبادئ وأسس تقوم عليها، وأهم هذه المبادئ والأسس ما يلي:

**المبدأ الأول:** الإلحاد والكفر بجميع الأديان، ولقد كان من بين مؤسسي الفلسفة الوجودية مَنْ كان مؤمناً بالنصرانية، ثم انقلب عليها مثل "سور كرك جارد" - كما ذكرنا آنفاً - وقد ضللت هذه الواقعة - واقعة نصرانية "كرك جار" - كثيرين

من مؤرخي الوجودية، حيث قسموا الوجودية إلى نوعين وجودية مؤمنة مثل وجودية "كرك جارد" ووجودية ملحدة مثل وجودية "سارتر"، لكن الواقع أنه لا توجد وجودية مؤمنة إطلاقاً ولو بديانة باطلة كالنصرانية؛ لأن الإلحاد مأخوذ ومعتبر في تعريف الوجودية - كما مر بنا عند تعريفنا الوجودية، فالوجودية إذن مذهب فلسفي ملحد يعادي الدين، ويمقت المتدينين، وهذا هو المبدأ الأول من مبادئ الوجودية.

**المبدأ الثاني:** أن وجود الإنسان المادي سابق على الماهية، أو الوجود الفردي والشخصي سابق على الماهية، وذلك على عكس الواقع الذي نؤمن به ويؤمن به جميع المتدينين حتى بالأديان الباطلة، ودون الدخول في تفاصيل قد تكون صعبة أحياناً، نقول: إن الوجوديين -أخزاهم الله- قصدوا من هذا القول إلى أمرين:

**الأمر الأول:** إنكار وجود الله ﷻ وإنكار تقديره الأزلي في الخلق، فنحن نؤمن بأن كل فرد من البشر له وجود في علم الله وقدره السابق، وذلك قبل وجوده الفعلي على هذه الأرض، وإنما يوجد الإنسان على هذه الأرض بمقتضى قدر الله السابق فيه، فالإنسان موجود في كتاب الله قبل وجوده في هذه الدنيا، وقد سبق في علم الله ﷻ كل ما يتعلق بالإنسان من أجل ورزق وعمل وخاتمة، فذلك كله سابق على وجود الإنسان المادي، وإنما يوجد الإنسان تحقيقاً لقدر الله السابق، لكن الوجوديين ينكرون وجود الإنسان كماهيةً وحقيقةً في علم الله سابقة على وجوده المادي؛ لأنهم لا يؤمنون بوجود الله سبحانه، ومن ثم ينكرون قدر الله السابق في الإنسان ووجوده في علم الله قبل وجوده على الأرض.

**الأمر الثاني:** الذي أراد الوجوديون تحقيقه من قولهم: "بأن الوجود المادي للإنسان سابق على الماهية": إنكار النوع الإنساني الذي يمثل كرامة الإنسان، وتميزه عن جميع الموجودات الأرضية، فالوجوديون -قبحهم الله- ينكرون الوجود النوعي، ويركزون على الوجود الفردي المشخص، ذلكم أن النوع الإنساني تتمثل فيه القيم والمبادئ، والأخلاق والفضائل، والعادات والأعراف، ومن قبل ذلك ومن بعده الدين، هذه كلها لا تكون إلا من خلال النوع الإنساني، أما هؤلاء فلا يهتمهم إلا الفرد وما يتصل به من شهوات وغرائز، ونزوات ونزغات، لا يمكن أن تتحقق إلا في الأفراد.

**المبدأ الثالث:** الحرية وهذا الأساس أو المبدأ الثالث يركز عليه الوجوديون تركيزاً شديداً، وهم يصفون الناس بأنهم عبيد وليسوا أحراراً، فالعبودية لدى الناس يتصورها الوجوديون في اتباع الناس أوامر الدين، والتزامهم الأعراف والتقاليد، وما يجوز وما لا يجوز، وهم -أخزاهم الله- يصفون الناس بأنهم عبيد للدين والقيم والأعراف، ويريدون من كلمة حرية أن ينطلق الناس على وجوههم كالحوانات يشبعون غرائزهم بلا مراعاة لدين، أو قانون، أو عرف، أو حياة، وهذا هو معنى الحرية عندهم.

بينما الحرية في حقيقة أمرها هي أن يتصرف الإنسان وفق الدين والأخلاق دون أن يضر بنفسه أو بالآخرين، وتحقيقاً لمبدأ الحرية عندهم يوجهون إلى الإنسان الوجودية أمراً مباشراً لكي يحقق وجوديته، فيقولون له -للإنسان الوجودي-: كن نفسك، بمعنى: لا تتبع عادات أو أعرافاً أو ديناً من سبقوك؛ لأن الإنسان إذا فعل ما كان يفعله الآخرون فإنما لا يعبر عن نفسه، وإنما يعبر عن الآخرين، وهو امتداد للآخرين، وهو يمشي وراء الآخرين وقد أغمض عينيه، لذلك هم

يزعمون ذلك، لذلك هم يقولون للإنسان: كن نفسك لا تتبع أحداً قبلك، ولا تقلد أحداً سبقك، وإنما اخترع كلما تريده ابتداءً، ولا تخشى شيئاً، فإنك في هذه الحالة لن تكون نفسك، بل أنت تجعل من نفسك صورة منهم، فأنت عبد تابع، لكن لكي تكون نفسك لا بد أن تبتدع لنفسك أفعالاً تخالف بها الأعراف والتقاليد والقيم، ثم تخالف من قبل ذلك كله ومن بعده الدين في كل ما يأمر به أو ينهى عنه.

**المبدأ الرابع:** التفرقة بين الكائن والموت، فالأشياء كلها كائنة؛ الجماد والنبات والحشرات والحيوان والإنسان، كلها توصف بأنها كائنة، فالكينونة هنا لا يتعدى معناها الوجود الخارجي، الكينونة الخارجية، لكن الكائن يتحول من مجرد كائن إلى موجود إذا سعى إلى تحقيق ذاته، وزاول وجوده الفعلي والإيجابي، فالكينونة هي الوجود السلبي، وأما الوجود فهو الوجود الإيجابي، أي: الفاعل في هذه الحياة.

فالكائن إذاً هو الذي يعيش في سلبية، أي: يعيش هادئاً مطمئناً ملتزماً دينه، مرتبطاً بأعراف الجماعة وتقاليدها، يعبد الله ويتعد عن المحرمات من السكر والزنا والعريضة، هنا يكون عند الوجوديين مجرد كائن؛ لأنه لم يحقق ذاته، ولم يفعل ما تدفعه إليه شهواته؛ ولأنه كبت شهواته وقاوم غرائزه.

### إذا السؤال: متى يكون الإنسان موجوداً؟

يكون الإنسان موجوداً عندهم ويرتفع من مرتبة الكائن إلى منزلة الموجود، حين يثور على القيم والأخلاق والدين، وكل شيء موروث، وحين يطلق العنان لشهواته ونزواته وغرائزه، يُشبعها بلا حدود أو قيود، هنا يكون الإنسان قد ارتفع من عدوة الكائن إلى عدوة الموجود الفاعل المؤثر المتجرد.

**المبدأ الخامس:** تقوم عليها الوجودية لدى الوجوديين قولهم: الآخرون هم الجهلة، وهم يعنون بذلك بالآخرين غير الوجوديين، وبعض المؤرخين للوجودية يرى أن الآخر هو مَنْ كان غيرك حتى لو كان وجودياً، المهم هنا أن هذا المبدأ يحدد العلاقة بين الوجودي وغيره، فالوجودي إذاً يعيش في عزلة عن المجتمع الذي يعيش فيه، والآخرون الأسوياء ينظر إليهم نظرة ملؤها الحقد والمقت والكرهية، وذلك أمر طبيعي؛ لأنه ما من إنسان سوي يمكن أن يقبل الوجودية بأخلاقه وسلوكياته.

**المبدأ السادس:** القلق، من الأسس التي تقوم عليها الوجودية القلق، أو ما يسمونه القلق والحيرة والتردد والاضطراب، وهذا المبدأ مرتبط بالحرية عندهم، والقلق والهم واليأس والحزن آليات طبيعية، ومشاعر عادية لدى الوجوديين، وأسباب القلق والهم واليأس كثيرة عند الوجوديين منها:

فقدانهم الإيمان والقيم العليا في الحياة التي تدفع الإنسان إلى التضحية حتى بنفسه أحياناً، فيجود بها وهو سعيد راضٍ، لكن الوجوديين كفروا بالله عَلَيْهِ وَعَلَيْهِ وحصروا همهم في هذه الحياة الدنيا المادية.

من أسباب القلق أيضاً عند الوجوديين تركيزهم الشديد على المتع الحسية، واللذات الجسدية، وذلك طبيعي؛ لأنه ناتج عن فقدهم الإيمان بما فوق هذه الحياة المادية الدنيوية، ولذلك نراهم في هم وقلق حين تفوتهم إحدى اللذات الحسية حين يكونون مشغولين بإحدى اللذات الأخرى.

ولنضرب لذلك مثلاً يورده كُتَّابهم، وهو مثال عجيب وغريب، فيقولون: لو فرض أن إنساناً عرض عليه أن يختار وسيلةً من وسائل المتع الأربعة الآتية، فعليه أن يختار واحدةً منها على سبيل المثال، عُرض عليه أن يذهب إلى المسرح،



وعرض عليه أن يقضي نزهة خلوية، وعرض عليه أن يجلس مجلس شراب، وعرض عليه أن يكون مع امرأة بغي، هنا تأتي مشكلة الحرية، ثم القلق؛ لأن حريته هنا تساوي الربع؛ لأنه عرض عليه أربعة أمور عليه أن يختار واحدة منها، فماذا يفعل بالثلاثة الباقية وهو يريد أن يقتنص لذة كل واحدة منها، لا يريد أن يضحي بشيء، يريد أن يقتنصها كلها؟ هنا يأتيه القلق، القلق من ماذا؟ من أنه لن يستطيع أن يأخذها كلها دفعة واحدة، وعليه أن يختار واحدة منها، فهو حزين متألم، يعيش قلقاً وحيرة؛ لأنه لا يستطيع إلا أن يفعل واحدة منها.

وتأتي مشكلة الهم والقلق عندما يحدد رغبته، ويثبت إرادته على واحدة من الأربعة، فإن القلق والهم يثقلان صدره بسبب الأسف على ضياع اللذات الأخرى التي فقدتها حين اختار لذة بعينها، مضحياً في ذات الوقت بلذات قد تكون أكثر إشباعاً وإمتاعاً له. وسبب ذلك أيضاً كما يعبر عنه أحد دارسي الوجودية، أو أحد الوجوديين، هو يقول: إنني أحس بالهم من جراء طمعي في أن أحصل على أقصى ما يمكن أن تهبني الحياة من متع حسية، ونتيجة لشهوتي أو حرصي في أن أحتلب كل ثانية تمر بي، وأن أعتصر كل لحظة تمضي عليّ وأنا حي أرزق قبل أن تنزل بي حادثة الموت، وأفارق الحياة إلى العدم حيث لا شيء على الإطلاق.

الوجوديون وعلى رأسهم "جان بول سارتر" يزعمون أنهم قلقون على مصير البشرية، وأنهم تعساء أشقياء بسبب الظلم الاجتماعي الذي تعانيه بعض المجتمعات الإنسانية.

نقول: ليس ذلك صحيحاً، وليس ذلك هو سبب القلق الذي يعانيه الوجوديون، والذي هو سمة مميزة لهم، السبب في شعورهم بالقلق ليس هذا،

وإنما السبب في شعورهم بالقلق والشقاء والتعاسة أنهم لا يؤمنون بالله رب العالمين، ولا يدينون دين الحق، ولا تستند حياتهم إلى مثل عليا، أو أهداف سامية يسعون إلى تحقيقها، تجعل لحياتهم قيمة، لذلك فقدوا الطمأنينة والسلام والسعادة التي يستشعرها المؤمن بالله رب العالمين، فقدوا كل ذلك لَمَّا فقدوا الإيمان بالدين والقيم السامية الباقية التي يضحي الإنسان من أجلها، بل ويدفع حياته - كما قلنا قبلاً - أحياناً وهو سعيد؛ دفاعاً عنه.

لكن هؤلاء ربطوا حياتهم بالشهوات والغرائز، وعاشوا لا يفيقون من سكر الخمر وغول المخدرات، فأسلمهم كل ذلك إلى القلق واليأس والبؤس والشقاء، حتى إنهم ليقضون على حياتهم بأيديهم؛ فراراً من مستنقع التعاسة والشقاء الذي غرقوا فيه، والذي جعلوه غايةً وهدفَ حياتهم.

### خلاصة الحديث عن الوجودية:

**أولاً:** أن الوجودية مذهب فلسفي اجتماعي إلحادي، ينكر وجود الله سبحانه، ويهزأ بالأديان، ويجعل من أهدافه القضاء على الموروثات الإنسانية، ويعنون بذلك الدين والقيم والأخلاق، ويعتبرون كل ذلك عوائق لتقدم الإنسانية.

**ثانياً:** يرون أن الحقيقة المتينة في الوجود هي وجود الإنسان المادي، وعلى الإنسان أن يحقق ذاته ووجوده عن طريق إشباع غرائزه ونزواته، كما ينكرون الماهية الإنسانية أو النوع الإنساني بما يمثله من قيم وأخلاق وحضارة، ويرفضون كل ذلك؛ لأنه يمثل قيوداً على حريتهم في إشباع غرائزهم وفعل ما يريدون.

**ثالثاً:** الوجود الحقيقي عندهم هو الذي يلبي شهواتهم ويشبع غرائزهم، ويفعل ما يريد بحرية كاملة دون قيود أو حدود.

**رابعاً:** تمثل الوجودية والوجوديون سلاحاً قوياً في أيدي الصهيونية اليهودية العالمية، بما تؤديه من هدم للقيم والأخلاق والأديان، وهم يساندون إسرائيل مادياً ومعنوياً.

هناك خاتمة يسيرة لهذا الموضوع؛ لأن الموضوع عند الوجوديين يرفعون أصواتهم ويزعقون بعقائهم، يقولون: إنهم ينادون بالحرية لجميع الناس، والحرية عندهم حرية مطلقة، لا أريد فقط أن أعطي مثلاً لما يسمى بالحرية، وهو مثال يقر به الغربيون والشرقيون جميعاً، المثال حول رجل - يمثلون يعني: برجل - كان يتربض في متنزه جرى كثيراً، ثم تعب، وبعد أن تعب جاء فجلس على أريكة بجواره رجل كان يجلس قبله، ثم لما جلس ذلك الرجل الذي كان يتربض وقد تعب من الرياضة، أخذ يتمطى، فمد يديه أو ذراعيه على آخرهما، فاصطدمت يده بأنف الجالس الذي بجواره، ولما عاتبه الآخر وقال له: اصطدمت يدك بأنفي، قال له: أنا حر، فقال له الرجل الآخر: ليس الأمر كذلك في الحرية، فحرية يدك تنتهي حيث تبدأ حرية أنفي. أرجو أن تكونوا قد استنتجتم الغاية من وراء سرد المثال؟

أن الحرية ليس أن يتصرف الإنسان في الحياة كما يشاء كأنه يعيش فيها منفرداً، وإنما الحرية أن يتصرف الإنسان بقدر ما يستطيع في إطار الدين والأخلاق والأعراف، وألا يضر نفسه ولا بالآخرين.

هذا معنى الحرية التي يتشدد بها دائماً الوجوديون - عليهم لعائن الله -.



## أشهر فلاسفة التشاؤم الغربيين في الفلسفة الحديثة

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : الفيلسوف آرثر شوبنهاور " ٢٧٧
- العنصر الثاني : فلسفة "شوبنهاور" والأسس التي قامت عليها ٢٨٣
- العنصر الثالث : نقد آراء "شوبنهاور" ٢٩٠



### الفيلسوف آرثر شوبنهاور

نتحدث عن اتجاه فلسفي غربي، اتسمت به الفلسفة الغربية من خلال كثيرين من فلاسفتها، الذين نصب معين الإيمان في قلوبهم، وفاض معين الكفر والجحود بين جوانحهم، فاسودت الدنيا أمام عيونهم، وملاً اليأس والقنوط نفوسهم، وعاشوا في الحياة لا ترى عيونهم إلا الآلام والأشجان، ولا تسمع آذانهم إلا نعيب البوم ونعيق الغربان، من ثم أقاموا فلسفاتهم على أن الحياة شر كلها، وأن الوجود آلام وضر وشر، وأسسوا في الفلسفة الغربية اتجاهاً اشتهر بأنه فلسفة التشاؤم.

وقد اخترنا تعبيراً عن هذا الاتجاه أشهر فلاسفة التشاؤم الغربيين في الفلسفة الحديثة.

### الفيلسوف "آرثر شوبنهاور":

ولد "آرثر شوبنهاور" في الثاني والعشرين من شهر فبراير لسنة ثمان وثمانين وسبعمائة وألف، درس الفلسفة بجامعة "جوتنجن" ثم انتقل إلى جامعة "برلين" حيث ختم دراسته بحصوله على الدكتوراة عن رسالته التي دونها تحت عنوان (الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافي) وهي رسالة في العقل، وصلته بالعالم الخارجي، وكان الرجل ذكياً جداً إلى حد أنه حصل على الدكتوراة ولم يكمل الرابعة والعشرين من عمره.

مات أبوه منتحراً وهو في السابعة عشرة، عاش عبد ذلك حياة شقية تعسفة بسبب خلافه مع أمه، وذلك بسبب حياة التحرر من كل قيود الفضيلة التي عاشتها أمه

## نقد الفلسفة الغربية

بعد موت أبيه، وقد انتهى الخلاف بينه وبين أمه إلى قطيعة كاملة حتى ماتت ولم يرها، وقد سبب سلوك أمه شعوراً عنده بالمرقة الشدرد للنساء لازمه طوال حياهه، فلم يرتبط بامرأة حتى مات، والمراد بالارتباط هنا الزواج، أما العشق والفجور فقد زاوله مع كثرات من النساء.

قام بالتدريس بجامعة "برلين" ولم يكن موفقاً ولا مقبولاً من الطلاب، وقد عزاً ذلك هو إلى غيرة الأساتذة الآخرين منه وتآمرهم ضده، ولم تكن كتبه تلقى رواجاً، مما سبب له إحساساً مضاعفاً بالشقاء والتعاسة والتشاؤم، لكن في أخريات حياهه بدأت كتبه تروج، وبدأ الإقبال عليها يتزايد، فشعر بالسعادة والرضى. كان له بعض المال الذي ورثه عن أبيه، مكنه استغلاله لهذا المال من الحصول على غرفتين بأحد الفنادق المتواضعة، عاش فيهما طوال الثلاثين عاماً الأخيرة من حياهه، عاش هذه السنين في هاتين الحجرتين وحيداً بلا أم، ولا زوج، ولا ولد، ولا أسرة، ولا وطن، ولا صديق، لم يكن له صديق سوى كلبه الذي أطلق عليه اسم "أتاما" وهو اسم يطلق في الفلسفة الهندية وفي الديانة الهندوسية على روح العالم، أو الروح الكلي لدى البراهمة. ولكن سكان الفندق والمقربين من "شوبنهاور" كانوا يسمون الكلب "شوبنهاور" الصغير.

أما مؤلفاته فقد كتب "شوبنهاور" رسالته التي نال بها درجة الدكتوراة، وكان الكتاب عن (الأصول الأربعة لمبدأ السبب الكافي) وهو يقصد بالسبب الكافي علاقتنا بالعالم الخارجي وفهمنا إياه.

ويرى أن السبب الكافي الذي يتحدث عنه يقوم على أصول أربعة، هي: علاقة بين مبدأ ونتيجة، ثم علاقة بين علة ومعلول، ثم علاقة بين زمان ومكان، ثم علاقة بين داع وفعل.



والصور الثلاثة الأول - كما هو واضح - تخص التصور النظري، أما الصورة الرابعة فهي التي تخص العمل، وهذه الأربعة هي التي ينشأ عنها عند الفيلسوف تصورنا للعالم الخارجي، وانفعالنا معه، ثم أخرج كتابه الثاني وهو (العالم إرادة وتصور أو العالم إرادة وفكرة) وقد فتن بكتابه هذا، حتى ظن أنه قد وضع فيه التصور النهائي للوجود والفكر، ولكن كتابه هذا لم يلقَ قبولاً، حتى إنه بعدما يزيد على العشرة أعوام أبلغ "شوبنهاور" أن جزءاً من نسخ كتابه هذا قد بيع ورقاً فاسداً تُلفُّ به البضائع، فازداد تشاؤماً، وأرجع ذلك إلى مؤامرة تُحاك ضده من جميع المفكرين والفلاسفة في زمانه، وأنهم لا يفهمون فلسفته؛ لأنه يكتب للأجيال القادمة. ثم قال مقولته الشهيرة: "إن كتابي هذا مثل المرآة، فإذا نظر فيها حمار فلا ينتظر أن يرى فيها وجه ملاك".

ثم نشر كتاباً آخر تحت عنوان (الإرادة في الطبيعة) جمع في هذا الكتاب من الأمثلة والشواهد الطبيعية ما ظنه أدلة على نظريته في الإدارة الكلية التي تحدث عنها في كتابه السابق. وفي سنة إحدى وأربعين وثمانمائة وألف، أصدر كتاباً آخر بعنوان (المشكلتان الأساسيتان في فلسفة الأخلاق) ثم ختم كتبه كلها بكتاب عن النتائج والفضلات، وقد بذل في هذه الكتب قصارى جهده وعصارة فكره، لكنه تلقى عشر نسخ منها؛ تعويضاً له عن مجهوده في تأليفهما، فلم تكن مؤلفاته قد لقيت قبولاً بعد، وإن كانت فلسفته قد بدأت في أواخر حياته تلفت الأنظار إليها. وفي أخريات حياته بدأت فلسفته التشاؤمية تلقى اهتماماً لدى الأوساط الفلسفية، مما جعله يشعر ببعض الرضى بدءاً من عام أربعة وخمسين وثمانمائة وألف، وفي الحادي والعشرين من شهر سبتمبر من عام ستين وثمانمائة وألف، جلس في الفندق المتواضع الذي قضى فيه الثلاثين عاماً الأخيرة من عمره، وكان

## نقد الفلسفة الغربية

يتناول إفطاره، وبعد ساعة وجدته صاحبة الفندق ما يزال جالساً كما هو، فاقتربت تتفحصه، فوجدت الحياة قد نبذته؛ لتستريح الحياة والأحياء من واحد من أكبر الفلاسفة إلحاداً وتشاؤماً وإشاعةً للفكر الفاسد.

مفتاح شخصية الفيلسوف: نقصد تلك العوامل والأسباب التي أثرت في الفيلسوف حتى أنتج هذه الفلسفة الفاسدة:

## أولاً: العوامل التي تتصل بالوراثة الأسرية:

ولد الرجل لأسرة انتشرت فيها الأمراض النفسية والعقلية، فقد كان أفرادها يصابون بتلك الأمراض لأجيال متتابة، وقد كانت تلك الأمراض في أسرته من جهتي أمه وأبيه، وهي أمراض للوراثة فيها نصيب لا يُنكر، وقد مات أبوه منتحراً وماتت جدته مصابة بالجنون، وقد ظهرت آثار تلك الأمراض النفسية على "شوينهاور" وانعكست آثارها على سلوكه وتصرفاته طوال مراحل حياته، كذلك كان لعلاقته بأمه بعد وفاة أبيه أثر كبير في شخصيته المريضة وآرائه المنحرفة الضالة. كان السلوك الخلقى السيئ لأمه بعد وفاة أبيه له أثر شديد عليه جعله يسيء الظن بالناس جميعاً، وبخاصة عندما وجد أستاذه "جويتا" الذي كان يحله ويحترمه وجده يقاسم أمه تلك الحياة الدنسة، قد أثر ذلك في نفسه، وطوى قلبه على حقد وكرهية للحياة والأحياء؛ بسبب الآلام الشديدة التي سببتها له تلك الأحداث.

## ثانياً: الظروف العالمية:

حيث ولد "شوينهاور" في عصر دمرت الحروب فيه أوروبا تدميراً شديداً، وشردت عشرات الآلاف من الأسر، ونشرت الفقر والبؤس بين الناس على مستوى دول أوروبا كلها، وقد كانت الحرب قائمة بين "نابليون" الذي كان "شوينهاور" وكافة

المثقفين في أوروبا ينظرون إليه على أنه روح الثورة الفرنسية التي حررت الفكر، وحررت الناس، ولكن دول أوروبا تحالفت ضد "نابليون" وهزمتته شر هزيمة، وقذفت به إلى جزيرة "سانت هيلانا" ليقضي نحبه فوق تلك الصخرة النائية في جوف المحيط، وكانت تلك قمة الآلام عند "شوبنهاور" حيث قضت الإرادة المتجبرة - كما يسمي الحياة الدنيا - يقول: قضت الحياة المتجبرة على الأحياء، وعلى مكاسب الثورة الفرنسية، وعادت أسرة "البوربون" إلى حكم فرنسا مرة ثانية، وعاد الإقطاعيون يطالبون بأملآكهم، وضحكت إرادة الحياة الشريرة ملاً فيها من الناس الذين كانوا يأملون في الخلاص من الآلام والأحزان، فأعادتهم إليها مرة ثانية.

### ثالثاً: المرض النفسي والعقلي:

تأثر "شوبنهاور" بالظروف التي أشرنا إليها، ونتج عن ذلك أن أصيب بأمراض نفسية وعقلية لازمتها طوال حياته، كان من آثارها أن غداً كثيباً ساخراً مرتباً متشائماً، شديد الخوف والقلق، تستبد به الهواجس والمخاوف، يسيء الظن بالناس، ويخشى على نفسه من شرورهم وغدرهم، وقد كان من آثار ذلك أن يغلق على نفسه الأبواب بعناية شديدة، وقد بلغ به الخوف وسوء الظن أنه لم يسلم ذقنه ورقبته لموس الحلاق أبداً طوال حياته؛ خوفاً من أن يتآمر الحلاق مع الآخرين على ذبحه، وظل طيلة حياته لا ينام إلا وسلاحه تحت رأسه محشواً بالرصاص في انتظار من تحدته نفسه من اللصوص بالسطو عليه، أو من أعدائه المتوهمين بالاعتداء عليه وقتله.

كذلك أنه كان مريضاً بالعظمة، وكان يرى نفسه هدفاً لتآمر الناس، وأنهم جميعاً يحقدون عليه، ويحاولون إيذائه والتخلص منه، وهذا الإحساس ظل

## نقد الفلسفة الغربية

يلازمه طوال حياته مما جعله يعيش وحيداً بلا أم ولا زوجة ولا ولد ولا أسرة ولا وطن، ولم يصادق أحداً طوال حياته، سوى كلبه -الذي ذكرنا سابقاً.

إن رجلاً كهذا ما كان ليصدر عنه فكر سوي، ولا رأي سليم، ولا فلسفة حكيمة، وما ينتظر أن يصدر عنه شيء من ذلك.

**رابعاً:** قراءاته ودراساته:

إن المزاج الفاسد لـ"شوبنهاور" ونزعة الحقد والكراهية التي تملأ نفسه، ثم الود المفقود والعداء الموجود بينه وبين كل عناصر الحياة والأحياء، دفع به إلى اختيار نوعية معينة من الكتب، وكان اختياره منصباً على دراسة "بوذا" ثم كتب الديانة الهندية، وكان من آثار ذلك أن ازداد شعوره بالكراهية للعالم، وتعمق لديه الإحساس بأن الحياة شر، وأن الأحياء أشرار، فالفلسفة البوذية معلوم أنها قائمة على أن الحياة ليس فيها إلا الآلام والأمراض، والشيخوخة والموت، والديانة الهندية تقوم كذلك على أن الحياة قائمة على أنواع من الشرور الطبيعية والخلقية.

كل هذه الأمور -التي أشرنا إليها- كانت هي أهم العوامل التي أثرت في شخصية الفيلسوف المتشائم الملحد "شوبنهاور"، وطبعت فكره بهذا الطابع الذي سوف نراه من خلال دراستنا لما يهمننا من أفكاره وآرائه.

غير أننا نرى من المفيد في هذا المجال أن نذكر بأن "شوبنهاور" في آرائه التي ذهب إليها لم يكن بدعاً في عصره وبلده، فالزمان والمكان كانا مليئين بمن سبقه ومن لحقه من الملاحدة المتشائمين، غير أنه يبقى لـ"شوبنهاور" في ذلك مستوى من الإلحاد والتشاؤم لم يصل إليه أحد على ما سنرى عند بسطنا فلسفته فيما يلي بحول الله تعالى.

### فلسفة شوبنهاور والأسس التي قامت عليها

#### فلسفة "شوبنهاور":

لقد لاحظ هذا الفيلسوف "شوبنهاور" أن الوجود يقوم على أساس من الحكمة والإتقان، والإبداع والغائية، والعناية الزائدة الواضحة، ولاحظ كذلك أن كل شيء في الوجود دليل صادق على إرادة الفاعل، وقدرته وحكمته، وخبرته وإتقانه، وعنايته بهذا الخلق، كما لاحظ أن الوجود كله يمشي على نظام حكيم متقن بديع، وأن لكل شيء فيه غاية يسعى إليها، وأن لهذه الغاية وسائل، وأن الغاية ووسائلها تنطق بحكمة الفاعل، وتحدث بإتقانه وإبداعه، لاحظ الرجل كل ذلك في الجمادات، وفي النباتات، وفي الحشرات، والحيوانات، كما لاحظها في الإنسان بصورة أوضح وأظهر، وكيف يسعى كل من هؤلاء للحصول على غذائه للإبقاء على نفسه ونوعه، كما لاحظ ذلك في الإنسان وما أتاه الله تعالى من قوة عاقلة وقوة جسمية غريزية؛ للإبقاء على نفسه من غذاء، وعلى نوعه بالتزاوج والتناسل، وعلى تميزه عن كل ما حوله بإعمال عقله، ونتاج العقل من فكر وثقافة وحضارة وعلوم ومعارف، ورأس هذه المعارف معرفته ربه سبحانه، واعتصامه بمجبله، والسير على هدى طاعته، والسعي في تحصيل مرضاته.

لاحظ الفيلسوف كل ذلك؛ لكن لأنه من الذين ختم الله على قلوبهم، وعلى سمعهم، وجعل على أبصارهم غشاوةً تعميهم عن الحق وتضلهم عن الصواب، فقد اختار الإلحاد والكفر بالخالق العظيم والصانع البديع، وقد وجد الرجل نفسه بين أمرين:

## نقد الفلسفة الغربية

**الأمر الأول:** أن ينكر ما لاحظته في الوجود من حكمة وقدرة وإرادة وإتقان، ثم ينكر وجود الله سبحانه، وبذلك يحقق مبتغاه من إنكار وجود رب لهذا الكون، لكن كيف ينكر الحكمة والإرادة والإتقان مع أن كل شيء في الوجود ناطق به دالٌ عليه. هذا جانب.

**الأمر الثاني:** إما أن يقر الرجل بالإرادة والحكمة والإتقان والإبداع، ثم يقر بالخالق العليم، وهذا ما لا يريده ولا يستقيم مع ما اختار لنفسه من كفر وإلحاد.

إن الفيلسوف الملحد وجد ضالته في أن يقر بالإرادة والقدرة والإبداع والإتقان في هذا الوجود، لكن لا يُرجع ذلك كله إلى الله الحق سبحانه، بل يرجع ذلك ويسنده إلى الطبيعة الجامدة والمادة الميتة التي لا تملك من أمر نفسها قليلاً ولا كثيراً. وهكذا كان الفيلسوف الذي رفض الإيمان بوجود رب خالق حكيم قد أسند صفات الله سبحانه إلى الطبيعة، أو إلى المادة، وبذلك لم يصنع شيئاً سوى أن استبدل الإيمان بالمادة بالإيمان بالله تعالى، وجعل من المادة ربه وإلهه، فكان من الذين قال الله -تباركت أسماؤهم- فيهم: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ وَأَصْلَهُ اللَّهَ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشًّا فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٣، ٢٤].

## الأسس التي قامت عليها فلسفة "شوبنهاور":

ذكرنا أن الرجل رأى ما في الوجود من حكمة وإتقان تدل على أن لهذا العالم موجد، وأن وراء ما يجري لهذا العالم إرادة عاقلة مفكرة، متقنة مبدعة، صانعة خالقة، لكن "شوبنهاور" رغم ما رأى ذلك أنكر وجود الله سبحانه، ورفض

الإيمان به، ورجع بكل ذلك إلى المادة أو الطبيعة، فما تلك الفلسفة التي أقام عليها الرجل مذهبه؟

**أولاً:** ذهب الرجل إلى أن الوجود عبارة عن المادة المطلقة، فليس في الوجود سوى المادة، وأن القول بوجود مفارق -أي: بوجود موجود مفارق للمادة غير مادي فاعل فيها يقصد وجود الله ﷻ هو قول خطأ، وفكرة فاسدة، ترجع إلى تصورات الذات وأوهام النفس التي لا حقيقة لها في الخارج، وإن رجع الأمور إلى قوة خارجة عن المادة الطبيعية هو من أوهام الذات، وفي ذلك يقول "شوبنهاور": "إن الإحساس حالة ذاتية، ولكن الفهم والتصور الذاتي يضيفه فوراً إلى علة خارجية تتصورها فاعلة في الزمان مستقلة عنا في المكان" ويرى الفيلسوف الملحد أن العالم المادي كافٍ بنفسه لتفسير كل ألغازه وما يجري فيه، وليس هناك حاجة إلى وجود قوة خارجة عنه، وبذلك يقرر هذا الفيلسوف الملحد أن الوجود ليس بحاجة إلى إله.

**ثانياً:** تقوم فلسفة الرجل على أن العالم عبارة عن إرادة وفكرة -هذا من اختراع الرجل العالم- فالفكرة هي تصوراتنا الذاتية عن العالم الخارجي والتي تكون غالباً غير صحيحة وغير واقعية، أما الإرادة فهي جوهر الوجود الخارجي الحقيقي، إن العالم عبارة عن إرادة كلية شاملة، وهذه الإرادة لها غايات وأهداف تسعى إلى تحقيقها، وهي تحقق غاياتها بوسائل من خلقها وصنعها، وكل شيء في الوجود من الجماد إلى الإنسان مروراً بالنبات والحشرات والحيوان، كل ذلك خاضع لتلك الإرادة الكلية التي تملكها الطبيعة، وتسير كل شيء من خلالها.

الرجل إذاً اخترع شيئاً بفكره، قال: "إن الوجود ليس فيه إلا الطبيعة الجامدة" وأنكر وجود الله تعالى.

وإدًا كيف وُجد هذا الإتقان والإبداع؟!!

**ثالثًا:** اخترع الرجل شيئًا اسمه الإرادة الكلية الشريرة، قال: "هذا الوجود المادي توجد فيه إرادة كلية شريرة، هذه الإرادة هي موجودة في هذه المادة الطبيعية، الوجود المادي الطبيعي توجد فيه ما أسماه الرجل الإرادة الكلية الشريرة، يضيف وصفًا.

**رابعًا:** يقول: "الإرادة الكلية الشريرة العمياء" يريد أن يقول: إنها لا عقل ولا تدبير، وإنما إرادة كلية شريرة عمياء تنبث في هذا الوجود الطبيعي المادي.

وفيما يأتي من فلسفة الرجل يوضح هذا، يقول: الإرادة الكلية في الطبيعة عنايتها تنصب على الحفاظ على الحياة في الأنواع، ولذلك تهتم بالإبقاء على الأنواع في النبات والحشرات والحيوان والإنسان، وهي في اهتمامها بالأنواع لا تلقي بالاً إلى الأفراد الذين تطحنهم الآلام ويعذبهم الشقاء، ويغرقون في بحار المآسي والشورور. ثم رابعًا: يقول "شوبنهاور": "الموت هو عدو الإرادة الكلية، وهو الذي يحاول أن يقضي على الحياة والأحياء، ولكن الإرادة الكلية تهزمه عن طريق غريزة الجنس التي تدفع الأحياء إلى التزاوج والتناسل، وبذلك تعوض الإرادة عن طريق النسل ما يأخذه الموت، وتبقي الحياة والأحياء؛ تحقيقاً لرغبة الإرادة الكلية".

إدًا تبقي على الأنواع الحياة والأحياء في الموجودات كلها في النبات والحشرات والحيوان والإنسان، وهي حريصة على أن تبقى هذه الأنواع، الموت هو عدوها؛ لأنه يخطف الأنواع ويميتها، ولذلك تغلبت هي على الموت بإيجاد غريزة الجنس التي أغرت الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر، وبذلك تستمر الأنواع، وتستمر الأحياء والحياة وهكذا.



**خامساً:** الحياة كلها بل الوجود كله شرور وأحزان ومشقات وآلام، هذا صلب مذهب الرجل، الحياة كلها بل الوجود كله شرور وأحزان ومشقات وآلام، وليس في الوجود كله خير قط، ولا يعرف معنى السعادة، وأقصى ما يتصور من خير في هذا الوجود أن تقل شروره نوعاً ما، أو تخف آلامه هوناً ما، الشر والشقاء والتعاسة عند الفيلسوف هي جوهر الحياة، وحقيقة الوجود، وهذه الأشياء هي الجانب الإيجابي في الحياة، أما ما يسمى بالسعادة أو اللذة أو الخير أو غير ذلك فليست أموراً إيجابية، بل هي أمور سلبية، بمعنى: أن السعادة ليست إلا سلب الآلام واختفاء الشقاء أو التخفيف منه قليلاً، ومن ثم فلا وجود لشيء اسمه السعادة أو اللذة، ولكن هناك شقاء دائم وتعاسة وآلام قد تكون شديدة وقد تخف قليلاً أو كثيراً، فيسمي الناس هذه الحالة التي خفت فيها الآلام قليلاً يسمونها سعادة.

**سادساً:** وسيلة الإرادة الكلية الشريرة العمياء وسيلتها في تنفيذ غايتها من بقاء النوع في الإنسان أمران: العقل، والغريزة الجنسية:

**أما العقل:** فهو وسيلة من وسائل الإرادة الكلية العمياء التي تعمل على بقاء النوع ليشقى ويتألم، وقد كان حرباً بالإنسان أن يقتل نفسه منتحراً ليتخلص نهائياً من حياة كلها آلام وشقاء وتعاسة لا تنتهي، ولو فعل كل الناس ذلك لانتهدت الحياة وفشلت الإرادة الطبيعية الشريرة العمياء في تحقيق أغراضها من إشقاء الناس وإتعاسهم، وهنا يأتي دور العقل الذي هو من صنع الإرادة الشريرة؛ حيث يقوم العقل بفلسفة الأشياء، يخترع أفكاراً ومسوغات لا وجود لها، يهدف بذلك إلى إقناع الإنسان بتقبل الشقاء والآلام والبؤس الذي تشتمل عليه الحياة والرضى بذلك، بناء على أفكار وتصورات يخترعها العقل، لكنها

## نقد الفلسفة الغربية

غير حقيقية من مثل وجود إله اقتضت حكمته ذلك، وأن ذلك لحكمة لا نعرفها، ومن مثل القول بوجود بعث بعد الموت، ودار أخرى سوف ينال فيها الصابرون أجرهم بغير حساب، كل ذلك من الأعيب الإرادة الشريرة التي التي قد خلقتها في العقل، وجعلته يضحك على الناس، أو يفسد عليهم حياتهم بذلك.

**أما غريزة الجنس:** فقد بيننا أن دورها يقوم على إغراء الذكر بالأنثى والأنثى بالذكر، وقد جعلت الإرادة العمياء هذه الغريزة أقوى غريزة في الكائن الحي، بل هي الغريزة الوحيدة التي تتحكم في الكائن الحي من النبات والإنسان والحيوان، وما بينهما من حشرات، كل ذلك لكي تقاوم تلك الغريزة ما يفعله الموت بالأنواع الحية، فتظل الأنواع باقية ويظل الأفراد يصطلون شقاء الحياة وآلامها، وذلك ما يسعد الإرادة الشريرة العمياء.

**سابعاً:** عود إلى ما قرره فيلسوف التشاؤم من أن الوجود كله شر، يقول "شوبنهاور": "الوجود شر؛ لأن الألم والتعاسة والشقاء هي الأشياء الإيجابية في الحياة. أما ما نسميه سعادة ولذة فهو أمر سلبي لا وجود له في الحقيقة" ثم يقول: "والوجود شر؛ لأن غايات الكائن فيه لا تنتهي ما أن تتحقق غاية من غاياته حتى يتطلع إلى غيرها، ولا تنتهي رغبات الإنسان، ولا تقف غاياته عند حد، وبذلك يظل يعاني الآلام والأحزان ويكابد المشقات حتى تنتهي آلامه بالموت، والوجود شر؛ لأن ما نحسبه لذات وسعادة إنما هو مصدر للآلام والتعاسة، فإن الإنسان يظل يطلب لحظة اللذة والسعادة وقتاً طويلاً، فإذا ما تحققت وانقضت في وقت قصير فإنها تُصبح دافعاً له ليطلبها من جديد، وحين تنتهي يشعر بشقاء مضاعف؛ لأنها انتهت، وعليه أن يُكابد من جديد للحصول عليها مرة ثانية أو الثالثة".

والوجود شر لأن الإنسان يعيش بين حالتين: إما في شقاء طلباً للذة والسعادة، وإما في ملل وسأم إذا تحققت تلك اللذات وتوفرت لديه، وكلا الحالتين شقاء وألم وشر، والوجود شر، لكن شروره ليست على مستوى واحد لدى جميع لكائنات، بل تتفاوت تبعاً لتفاوت الإدراك لدى الكائن، فكلما تدنّى الإدراك ضعف الشعور بالألم، وكلما ترقى الإدراك قوي الشعور بالألم والشقاء، لذلك كان الإنسان أكثر الكائنات شعوراً بالألام والتعاسة والشقاء، إن النبات خالٍ من الإحساس ولذلك فهو لا يحس بالألم، ولذلك لا تعنى به الإرادة الشريرة العمياء، أما الحيوانات فتشعر بالألم على قدر مستواها من الإحساس والشعور، أما الإنسان فأكثرها شعوراً بالشقاء والألم والتعاسة، وإن زيادة المعرفة في الإنسان تؤدي إلى زيادة آلامه، كما أن ذاكرة الإنسان في الماضي وبعده نظره للمستقبل يزيدان من آلامه؛ لأن القدر الأكبر من آلامنا كائن في تأمل الماضي، وفي التفكير فيما يقع في المستقبل، ولذلك تعنى الإرادة الشريرة العمياء بالإنسان جداً؛ لأنه هو الذي يحقق لها الشعور بالسعادة حيث هو أكثر الموجودات شعوراً بالتعاسة والشقاء.

فإن الوجود شر؛ لأن الحياة ساحة قتال لا يحيا كائن فيها إلا على حساب الكائنات الأخرى، فالحيوانات المفترسة تفترس الإنسان، والإنسان يفترس العجماوات الأخرى كالأغنام والطيور، والجميع يفترس النبات، والنبات يفترس الهواء والماء وغيرها، فالحياة إذاً آلام، والوجود كله شر، إن الحياة شر؛ لأنها حرب، وأينما وليت وجهك لا تقع عينك إلا على صراع وتبادل انتحاري بين الحياة والأحياء، وكل نوع يقاتل للفوز بالمادة والأرض، والسيطرة عليها، وحتى الجنس البشري يكشف في نفسه عن أبشع أنواع الصراع والنزاع، والقاعدة: أنك إن لم تتدأب أكلتك الذئاب.

## نقد الفلسفة الغربية

**ثامناً:** لكل ما تقدم من أدلة على أن الحياة آلام، وأن الوجود كله شر فيما يزعم الفيلسوف الملحد، فإن الفيلسوف يدعو الناس إلى نبذ الحياة ويرغب في الانتحار؛ تخلصاً من شقاء الحياة وشروها، وقضاءً على الرغبة الشريرة للإرادة الكلية العمياء الشريرة، والفيلسوف وهو يرغب في الانتحار ويدعو إليه يبين أن الموت في ذاته لا يسبب للإنسان آلاماً، كيف ذلك؟ يقول الفيلسوف: إن الناس لا يتألمون من الموت وإنما يتألمون من فكرة الموت أكثر مما يتألمون من الموت نفسه؛ لأن الإنسان لا يلتقي بالموت أبداً، فكيف يتألم منه؟ إن الإنسان طالما هو حي لا يموت ولا يلتقي بالموت، فهو لا يرى الموت ولا يلتقي به، ومن ثم لا يتألم منه، فإذا ما انتحر الإنسان ومات فإن الموت حين يجيء يكون الإنسان قد ذهب، وعلى ذلك فالإنسان يخاف من فكرة الموت، لكن الموت حين يجيء ويقع يكون الإنسان قد استراح من شقاء الحياة وآلامها، وتخلص نهائياً من الإرادة الكلية العمياء الشريرة.

## نقد آراء "شوننهاور"

## نقد آراء "شوننهاور":

إن آراء هذا الفيلسوف والرد عليها ونقدها لا يتطلب منا إلا أن نخضع هذا الفيلسوف وأمثاله إلى فحص طبي لدى طبيب للأمراض النفسية والعقلية، ولو أننا فعلنا ذلك لجاءنا الجواب بوضوح شديد، وهو أن هذه الآراء لا تزيد على كونها أوهاماً وتخاريف وأضاليل لإنسان مجنون أو معتوه، وأن هذه الآراء ما كان ينبغي لها أن تسجل وتبقى، إلا لأن العصر الذي وجد فيه الرجل كان عصر

ضلال وانحراف، وقد كثر فيه أمثال الرجل، فضلت فيه الموازين، وضاعت فيه القيم، وانحرفت المبادئ، ولذلك نتج ذلك الفكر عن هؤلاء الناس في هذا العصر.

إن ضلال هذا الفكر أوضح من أن يوضح، ولكننا نبين على قدر الإمكان وبإيجاز شديد ما في ذلك الفكر من فساد وضلال:

**أولاً:** أن الرجل كفر بالله سبحانه، ونبذ الأديان كلها وتحديداً نبذ النصرانية التي نشأ عليها، ورفض الاعتراف بأن للوجود خالقاً عالماً حكيماً متقناً مبدعاً، ورغم ذلك فقد أثبت كل هذه الصفات لشيء من صنع خياله المريض وفكره المجنون، وهو ما أسماه الإرادة الكلية الشريرة العمياء، وأثبت لهذه الإرادة غايات تسعى لتحقيقها ووسائل تنفذ من خلالها إلى ما تشاء، وجعل الوجود كله مسخراً لهذه الإرادة، ومسيراً تبعاً لأهدافها، فأى شيء فعله هذا الأبله الملحد حين نبذ الدين ورفض الاعتراف بالله رب العالمين، ثم انقلب ليثبت له رباً من صنع خياله، ويخلع عليه كل صفات الرب سبحانه؟

لقد سبق وقررنا أن الرجل اختار الإلحاد والكفر، ولما وجد النظام والإتقان والغائية في كل ذرة من ذرات هذا الوجود، اضطر إلى الاعتراف بذلك، لكنه إصراراً منه على الإلحاد ألحق ما رآه بشيء من صنع أوهامه أسماه الإرادة الكلية، ثم زيادةً منه في الابتعاد عن عدوة الدين وحتى لا يظن أنه يتكلم عن الإله الحكيم المدبر وصف معبوده ذاك بأنه إرادة عمياء شريرة. إن علة الرجل الأساسية التي نتج عنها كل هذا الهراء إنما هي إلحاده وكفره بالله رب العالمين.

**ثانياً:** إن كفر الرجل وإلحاده أعمى قلبه ثم بصره عن أن يرى في الوجود سوى الشرور والآلام، ثم لم يَرَ في الوجود إلا هذه الحياة الدنيا، وهذا القصور عنده

## نقد الفلسفة الغربية

جعلله يصرخ بأعلى صوته من آلام الحياة وشروورها، ولو أنه رأى أن الحياة معبر إلى الآخرة، وأن ثمة حياة أخرى يسعى الناس إلى إعلاء رصيدهم فيها من الحسنات الباقيات الصالحات، وأن ما يكابدونه وهم في غاية من السعادة ونهاية من الرضى؛ لأنهم يدركون أن هذا رصيدهم الذي سيلقونه في الحياة الدائمة، لو أدرك الرجل ذلك لعرف أن الحياة فيها الخير كما فيها الشر، وأن الخير فيها يزكو على الشر، ويربو عليه.

ثم إن الحياة ليست شراً خالصاً بل فيها خير كثير، لكن إحد الرجل وكفره سبب له مزيداً من التشاؤم، إضافةً إلى ظروفه - التي أشرنا إليها - مما جعله يعمى عن كل خير، بل يرى الخير على أنه شر.

إن الحياة ليست ساحة قتال كما يدعي فيلسوف الشرور والتعاسة هذا، ولكن الحياة فيها من التعاون والتآزر بين الأحياء ما يزيد ويربو على ما فيها من نزاعات ومشاحنات وصراعات. إن التعاون بين الكائنات قائم وواضح على مستوى الأنواع كلها بعضها مع بعض، فالنبات يعيش على ثاني أكسيد الكربون الذي ينتجه الإنسان، والإنسان يعيش على الأوكسجين الذي ينتجه النبات، والنبات ينتج الرحيق الذي يعيش عليه النحل، والنحل ينقل في أرجله الملقحات من نبات إلى آخر، كذلك ينقل بذور النبات إلى أمكنة أخرى، فتنبت فصائل جديدة، والإنسان يعيش على النبات، وكذلك يعيش على الحيوان كالأغنام، لكن عيشه وتغذيه عليها ليس خطراً عليها، بل هو في صالحها، فإن الإنسان يحرق الأرض ويروئها، ويبدد البذر، وينتج النبات ويحافظ عليه، ويكثر من أصنافه وأنواعه، وذلك بسبب كونه غذاءً له، ولولا ذلك لما عني الإنسان بالنبات، ولما بقي النبات ونما، ولما وجدت منه فصائل جديدة، ولما وجد التربة المناسبة والتسميد الجيد.

على أن الإنسان إذا لم يأكل النبات حين يستوي، فأين سيذهب النبات؟ إنه سوف يموت من تلقاء نفسه ويجف وتذروه الرياح، فأبي الأمرين خير بالنسبة للنبات؟! كذلك الأمر بالنسبة للحيوان الذي يعيش عليه الإنسان، فإذا ما نظرنا في حال الأغنام أو الإبل أو غيرها، فإننا نجد الإنسان يسعى إلى العناية بها، وتحسين نسلها، والإكثار منها، وتوفير الغذاء لها، فهو يغيذها إن جاعت، ويسقيها إن عطشت، ويداويها إن مرضت، كل ذلك بسبب كونه يعيش عليها، بينما الحيوانات التي لا يعيش الإنسان عليها تموت في الغابات جوعاً وعطشاً بسبب الجفاف أو العوامل الأخرى.

ثم إن الإنسان إذا لم يأكل الشاة وتركها تعيش فهل ستخلد؟

إذاً فكون الإنسان يعيش على حيوان ما أو نبات ما، فإن ذلك في صالح النبات والحيوان وليس شراً ولا اعتداءً، ولا الحياة ساحة قتال كما ادّعى فيلسوف التشاؤم هذا.

إن حياة الرجل وسيرته تُكذبه في كل ما ادّعاه في فلسفته، وبخاصة في دعوته إلى الموت انتحاراً؛ تخلصاً من آلام الحياة وشقائها، إن حياة الرجل كانت أشد شقاءً وتعاسةً من حياة الكثيرين، وقد عاش مريضاً تنتابه الوساس والمخاوف، ويتنابه سوء الظن بمن حوله وما حوله، وقضى الثلاثين عاماً الآخيرة من حياته وحيداً كئيباً، فأبي الناس كان أحق بالانتحار منه تخلصاً من تلك الحياة التعيسة؟

لكن الرجل الذي مَجَّدَ الموت واعتبره المنقذ من شقاء الحياة، والذي تسبب في انتحار عدد من الذين اعتنقوا فلسفته، وتأثروا بفكره، هذا الرجل ظل محبباً للحياة، مستمسكاً بها، حتى وصلت سنه الثانية والسبعين وقد قضى حياته تلك لم ييخل على نفسه بشيء من متع الحياة التي زهد فيها الآخريين، وزعم أنها شر وتعاسة.





من اتجاهات الفلسفة الحديثة: فلسفة القوة

عناصر الدرس

٢٩٧	العنصر الأول : الفيلسوف "فريدريك نيتشه"
٣٠٢	العنصر الثاني : فلسفة "نيتشه"
٣٠٨	العنصر الثالث : نقد فلسفة "نيتشه"



## الفيلسوف "فريدريك نيتشه"

نتحدث عن اتجاه فلسفي غربي اشتهرت به الفلسفة الغربية ، وبخاصة الفلسفة الألمانية ، نعني بذلك فلسفة القوة ، اتجاه فلسفي غربي من اتجاهات الفلسفة الحديثة اسمه فلسفة القوة .

فالفلسفة الألمانية أنتجت فلاسفةً كانت دعوتهم الأساسية إلى القوة ، والقوة التي عنونها هي القوة العضلية وما يقوم مقامها من الحرب والقتل والصراع ، والقضاء على الضعفاء ؛ لتخلو الحياة كلها للأقوياء .

ولعلكم قد درستم تاريخ الحرب العالمية الثانية التي بدأها وحركها وأصل العالم نازيها ، وأهلك فيها عشرات الملايين من البشر ، رجل تتلمذ على فلسفة القوة الألمانية ، واقتنع بها ، ونفذها على أرض الواقع ، فكان نتيجة ذلك تلك الحرب العالمية الثانية التي قُتل فيها عشرات الملايين ، ذلكم الرجل هو "أودولف هتلر" .

وقد اخترنا ممثلاً لهذا الاتجاه - أعني : اتجاه القوة - أشهر فلاسفة القوة في العصر الحديث نعني به "فريدريك نيتشه" :

## أولاً: حياته :

"فريدريك نيتشه" فيلسوف ألماني ملحد حتى النخاع - وأنا أحب هذا الوصف : "حتى النخاع" - ليس فيه ذرة واحدة من خير .

وُلد هذا الفيلسوف وكان أبوه قساً بروتستانتيّاً وكذلك كان جده ، توفي والده وهو طفل فتولى تربيته نسوة العائلة ، فنشأ مدللاً رقيقاً حساساً مما جعله محل

## نقد الفلسفة الغربية

سخرية زملائه في الدراسة، مما دفعه للبحث عن وسيلة تجعله خشناً صلباً، وتخلصه من الطابع الأنثوي الذي نشأ به، وكان سبباً في كونه محطاً لسخرية الآخرين.

ولعل رد الفعل هذا له أثره في جنوحه فيما بعد إلى مذهب القوة والعنف والقسوة الذي كان طابع فلسفته، كان ابن قس وحفيد قس، وأراد في حادثته أن يكون قساً فنشأ على الالتزام بالنصرانية ديانة آباءه، وكان كثير القراءة في الإنجيل النصراني، وكان يقرؤه على زملائه بصورة مؤثرة تجعل الدموع تجري من مآقيهم حتى أطلق عليه الجميع في هذه الفترة اسم "القسيس الصغير".

لكن هذا القس الصغير لم يلبث وهو في سن الثامنة عشرة أن فقد إيمانه بالنصرانية وكفر بها وكفر بجميع الأديان على الإطلاق، ودخل في مرحلة من الشك والحيرة خرج منها كافراً بكل شيء، ناقماً على كل شيء، ولم يرجع إلى الدين ثانية بل اندفع في طريق الإلحاد حتى نهايته، فأعلن بأعلى صوته أن الآلهة قد ماتت إلى غير نهاية، ولن تعود إلى الحياة مرة أخرى، ثم اتخذ من السوبر مان -أي: الإنسان الأعلى، الإنسان المجاوز لحد الإنسانية- كما يسميه اتخذ منه إلهه ومعبوده، وأمضى بقية حياته يبشر به ويرسم الطريق للإنسانية كي تصل إليه.

درس بجامعة "بون" و"ليبنز" بألمانيا، حتى حصل على الدكتوراة، ثم عمل بجامعة "بال" بسويسرا أستاذاً لفقهِ اللغة، ثم مرض وزادت علته حتى اضطر إلى ترك التدريس والعيش على معاش تصرفه له الجامعة، وبعد ذلك بعشر سنين انتهى به المرض إلى الشلل الكلي والجنون المطبق، وتولى أخته رعايته، حتى لفظته الحياة كما يلفظ البحر جيفة عكرت بنتنها ماءها الصافي، لكنه خلف وراءه فكراً ضالاً، ركبه اليهود ليصلوا من خلاله إلى الكثير من أهدافهم الخبيثة، مما جعلهم يشيدون به وبأكفاره في بروتوكولاتهم ومجامعهم.

### ثانياً: مؤلفاته:

لـ"نيتشه" مؤلفات كثيرة أهمها ما يلي: (أصل المأساة) ألفه، وهو عن الملهاة أو المسرح الروماني، كان يقرأ القصص والدراما والتراجيديا فكتب في هذا الكتاب حياته ككاتب، ثم كتب بعد ذلك (إنساني مجاوز للحد) يتكلم عن ماذا؟ يتكلم في هذا الكتاب عما قلنا عنه "السوبر مان" وسوف يعود مرة أخرى للكلام عن "السوبر مان" أو الإنسان المجاوز للحد، ثم كتب (المسافر وظله) ثم كتب (المعرفة المرحة)، ثم كتب (فيما وراء الخير والشر)، ثم كتب (في أصل الأخلاق)، ثم كتب (إرادة القوة) وهو دعوته إلى القوة، ثم كتب أسوأ كتبه بإطلاق وهو ما أسماه (غروب الآلهة).

**ثالثاً: مفتاح شخصيته أي: العوامل والمؤثرات التي أثرت في الفيلسوف حتى أنتج ذلك الفكر أو هذه الفلسفة.**

يبدو أن شخصية هذا الفيلسوف لا تفهم إلا من خلال ردود الأفعال التي انتظمت فكره وسلوكه وشئونه الحياتية كلها، انتبهوا لعل هذا شيء جديد بالنسبة إليكم، ردود الأفعال أحياناً يكون الإنسان ضعيفاً جداً فيدعو إلى القوة، وأحياناً يكون فقيراً جداً فيمجد الأغنياء، وأحياناً يكون مريضاً جداً فيثني على الأصحاء، ردود الأفعال تكون غالباً تفسيراً لسلوك نوعين من الناس متضادين:

**النوع الأول:** إنسان ضعيف الشخصية، ضحل الإمكانيات الذهنية، قليل الثقة بنفسه، حين يجب أن يظهر نفسه ينتظر ليرى الناس يفعلون شيئاً، ثم يفعل هو نقيده أو ضده ليؤكد ذاته ويلفت الأنظار إليه، متخذاً من المثل القائل: "خالف تعرف" كثيرون من الضعفاء يفعلون ذلك، منهج حياتهم وقواعد سلوكهم أن يخالفوا الناس لكي يظهروا أمام الناس.

## نقد الفلسفة الغربية

**النوع الثاني:** من الذين يعيشون على ردود الأفعال فعلى النقيض من الأول: حاد الذهن، هذا النوع يكون الواحد منهم حاد الذهن، شديد الذكاء، قوي الثقة بنفسه، مفرط الكبر والغرور، يرفض التقليد والتبعية لأي شيء ولو كان الدين نفسه، حاقد على الآخرين، ماقت لكل شيء في الحياة، سعادته كلها في مخالفة الآخرين ورفض آرائهم وتسفيهاها. وقد كان "نيتشه" يمثل النوع الثاني شر تجميل.

فقد كان من أسرة متدينة على صلة وثيقة بالنصرانية والكنيسة، حيث كان أبوه قساً، وكذلك كان جده، وقد أعده أهله ليكون قساً وبخاصة لما لاحظوا فيه من ضعف صحته، ورقة إحساسه، وميله إلى العزلة، لكن الرجل اندفع إلى الاتجاه المخالف المضاد، هذا هو رد الفعل، فلم يكتفِ برفض الوظائف الدينية بل رفض النصرانية كلها وكفر بها، بل إنه لم يكتفِ في ردود أفعاله بهذا، وإنما جعل من أهداف حياته مهاجمة النصرانية ومحاربتها، وبيان أباطيلها، وكشف مفاسد رجالها، بل إنه حارب الدين كله، ولم يفرق بين حق وباطل.

كذلك كان الفيلسوف عليل الصحة ذا بنية جسمية ضعيفة، ثم مرض مرضاً شديداً فزاد ضعفاً على ضعف، ولقد خلف له المرض آلاماً حادة في الرأس وفي المعدة وفي العينين حتى تركه شبه أعمى، ولقد لازمته تلك الآثار المرضية طوال حياته.

ومرة ثانية نصطدم بردود الأفعال لدى "نيتشه" فبدلاً من أن يسير سيرة فكرية تناسب حالته تلك، فإنه اندفع إلى الاتجاه الضد -ردود الأفعال- فأخذ يعيب الضعف والضعفاء ويمجد القوة والأقوياء، بل إنه ليدعو المرضى والضعفاء إلى قتل أنفسهم انتحاراً؛ تطبيقاً لمبدئه الذي يقول فيه: "مت في الوقت المناسب".

ولكم أن تتخيلوا فيلسوف ينادي الناس: "موتوا في الوقت المناسب"، ما هو الوقت المناسب؟

أما في حالة عدم استجابة الضعفاء والمرضى لدعوته تلك وانتحارهم في الوقت المناسب كما يقول، فإنه يدعو الأقوياء إلى أن يقوموا بهذه المهمة نيابةً عن الضعفاء، فيقتلونهم حتى يخلو المجتمع مما يعيق تقدم الإنسانية إلى تحقيق الإنسان المجاوز للحد - أعني: "السوبر مان".

وقد كانت حياة الرجل بما فيها من مرض وضعف وآلام ليس أقلها إصابته بالشلل وضعف البصر الشديد وآلام الرأس والمعدة، كانت مثل تلك الحياة من شأنها أن تجعل صاحبها متشائمًا يائسًا قنطًا، وبخاصة لرجل مثله لا يؤمن بالله سبحانه ولا يؤمن بيوم آخر، يكافأ فيه على صبره واحتسابه من ربه، وكان ذلك هو المنتظر من ذلك الفيلسوف الذي جمع بين الحسنيين المرض والآلام، ثم الإلحاد.

لكن جاء رد الفعل عنده فرفض التشاؤم، ونعى على التشاؤم والمتشائمين، وهاجم بعنف النزعة التشاؤمية لـ"شوبنهاور" وعاش يدعو إلى التفاؤل وإلى العيش في الدنيا بروح مرحة، شيء عجيب!! ولقد كان من شأن رجل ضعيف مريض مثله فقد سلامة الصحة والبصر، أن ينحو منحى السلامة، ويدعو إلى التحوط والحذر من كل ما يوحى بالخطر.

ومرة رابعة نصطدم بردود الأفعال عند "نيتشه" لقد اندفع الرجل المريض الضعيف شبه الأعمى يمجذ الخطر، ويدعو الناس إلى أن يعيشوا حياة الخطر، وأن يبنوا مساكنهم على حافة بركان "فيزوف" وأن يركبوا زوارقهم؛ كي يكتشفوا البحر الذي لم يرتده أحد من قبلهم، وأن يتحدوا جميع المخاطر بروح لا تعرف الخوف.

على أن ثمة حدث له دلالة وآثاره على تلك النفس المريضة المنحرفة، ذلكم أن "نيتشه" وقع في حب إحدى النساء القريبات منه، ولكنها لم تبادله حباً بحب، وفضلت عليه رجلاً آخر، ولم تجد محاولات في إقناعها بحبه، وهنا برز رد الفعل عند "نيتشه" حيث اندفع هائماً على وجهه يرسل النقد تلو النقد للنساء جميعهن، واصفاً إياهن بأقبح الصفات، مدعيًا أنهن لسن أهلاً بحب أحد من الرجال، وبخاصة حب رجل عظيم مثله، وهذا الحدث ليس بدعاً من القاعدة التي ذكرناها، وإنما هو تطبيق لها، أعني: أنه من أوضح الأمثلة على أن الرجل يعيش على ردود الأفعال، وأن ردود الأفعال هي مفتاح شخصية الرجل.

### فلسفة نيتشه

#### رابعاً: فلسفة "نيتشه":

نتقل إلى الجانب الأهم من فلسفة "نيتشه" وهي الأسس التي بنى عليها فلسفته:

**أولاً:** التأكيد على الذاتية في مقابل الموضوعية بالنسبة للصلة بين الإنسان والعالم: فقد ذهب "نيتشه" كما ذهب "شوبنهاور" من قبله إلى أن أفكار الإنسان ومعارفه عن العالم الخارجي متأثرة بأوهام ذاتية ومعتقدات شخصية لا حقيقة لها في الخارج، وأن الحقائق الموضوعية للعالم تختلف عما يتصوره الإنسان ويعتقده عنها، لذلك كانت معارف الإنسان عن العالم إنما هي أوهام ذاتية وخرافات موروثية.

**ثانياً:** أن أخطر هذه الأوهام الذاتية وأكبر تلك الخرافات الموروثة التي تخالف الواقع وتصادم الموضوع، إنما هو الدين، وكل ما يتصل به، فالدين عند "نيتشه" هو أكبر



خرافة توارثتها الإنسانية جيلاً بعد جيل ، وليس من شك في أن الدين والأخلاق وما يتصل بذلك ، إنما هي مظاهر ضعف وانحطاط ، لكن هذه المظاهر يتعهدا رجال الدين القساوسة ويظهرونها على أنها فضائل لكي يحتفظوا بسيادتهم على جماهير الناس ، وتزداد مكانتهم ومكاسبهم المادية ، رغم وضوح الكذبة ، ورغم أن الدين وما يتصل به من أمور يرفضها العلم ، ويكفر بها العقل الذكي .

ثالثاً : ويعتبر أهم ما في فلسفته جانبان ؛ جانب سلبي ، وجانب إيجابي :

**أما الجانب السلبي :** فيتمثل في النقد العنيف والقاسي ، والملح للدين والقيم والأخلاق ، فهو لا يفتأ في كل مؤلفاته ينقدها ويحاربها على أمل أن يقضي عليها ، وقد استغرق هذا الجانب السلبي القدر الأكبر من مؤلفاته .

**أما الجانب الإيجابي :** فيقوم على تمجيد القوة ، والدعوة إليها ، وإلى القضاء على كل ما يعارض القوة ، ويعرقل مسيرتها ، ويعوق تقدم الإنسانية مما يسمى بالقيم والأخلاق ، من مثل الحب والعطف والرحمة والعدل والرفقة والمساعدة والمعونة ، إلى آخر ذلك . هذه الأمور كلها أو هذه التي نسميها قيماً ، يقول الرجل : هذه الأمور وأمثالها قد عاقت تقدم الإنسان إلى أن يتجاوز نفسه ، ويرتفع عن مستواه الحالي ؛ ليصل إلى الإنسان الأقوى ، أو ما سماه " نيتشه " "السوبر مان" ولن تصل الإنسانية إلى هذا الإنسان الأقوى إلا إذا أُلقت وراء ظهرها بما يسمى بالقيم ، ثم استعملت القوة في الصراع بين الضعفاء والأقوياء ، ومن ثم يُقضى على الضعفاء ولا يبقى إلى الأقوياء ، ثم يكون الصراع بين الأقوياء ، وهكذا حتى تصل البشرية إلى المستوى الأعلى دائماً .

من أجل ذلك دعي الرجل "فيلسوف القوة" ودعيت فلسفته "فلسفة القوة" وهي تسميات غير دقيقة ، وإطلاقات خاطئة ، والاسم الصحيح أو الوصف الدقيق

## نقد الفلسفة الغربية

لهذه الفلسفة وكل ما يماثلها أنها "فلسفة الحمقى والمجانين"، وليس ذلك إطلاقاً مجاوزاً للحقيقة، فقد صدقت الأحداث ذلك، وكان الرجل حين تسجيله أفكاره هذه وكتابته مذهبه شبه مجنون، ثم أصيب بالجنون فعلاً وظل الأحد عشر عاماً الأخيرة من حياته في جنونٍ شبه كاملٍ، ورغم ذلك كان يكتب ويحرر مذهبه ذلك.

**رابعاً:** فيما يتصل بالجانب الخلقى: فقد وضع الرجل مقياساً للأخلاق ربط فيه بين القوة والفضيلة، وبين الضعف والرذيلة، فالفضيلة عنده هي القوة، والرذيلة هي الضعف، فكل قوة فضيلة بصرف النظر عن مجالات استعمالها، فإن القوي عنده له مطلق الحرية في استعمال قوته في كافة المجالات، ولو كان سفك الدماء البريئة، بل إنه يخص الأقوياء بفضائل كثيرة لا يضعها ضمن إمكانات الضعفاء، بل إنه كذلك يحض الأقوياء على سفك دماء الضعفاء حتى لا يعوقوا مسيرة البشرية إلى الأعلى، كذلك كل ضعف هو رذيلة، بصرف النظر أيضاً عن أسباب الضعف، وسواء كانت بفعل الإنسان وإرادته كما يجهد نفسه فوق الطاقة، أو يتعاطى مطعومات أو مشروبات تضعف الصحة، أو كان ذلك خارجاً عن إرادته وإمكاناته، كالضعف بسبب المرض، أو بطبيعة بنية جسمه، وأيضاً ربط الرجل بين الخير والقوة والشر والضعف، فأضحى الميزان الخلقى عنده أن القوة هي الفضيلة وهي الخير، وأن الضعف هو الرذيلة وهو الشر.

**خامساً:** دعا "نيتشه" إلى شعار يقول: "كن نفسك ولا تكن غيرك" وهو يعني بهذا: أن يرفض الإنسان كل الأشياء التي ورثها، والتي تربطه بالآخرين، وأن يحطم القيم والعادات والأعراف والتقاليد، بل يجب عليه أن يحطم أخطر تلك القيود التي تمنعه عن الخلق والابتكار، وتحقيق ذاته، وهذه القيود الأخطر هي في نظره الدين والوطن والأمة، فهذه الثلاثة يمثل كل منها قيداً يمنع الإنسان من

الانطلاق نحو الخلق والابتكار، فالناس يؤمنون بهذه الأشياء، والإيمان يعوق الإنسان عن تحقيق ذاته؛ لأن الدين مأخوذ عن السابقين، فأنت لا تخلقه ولا تنشئه، بل تقلد السابقين، وكذلك الأمة والوطن، ومثل ذلك كل القيم، إنما هي موروثات عن الذين سبقوك، فأين أنت؟ أين ما قمت بخلقه واختراعه؟ لا شيء، ولذلك فأنت صورة مكررة ممن سبقوك، ولكي تبدع ولكي تكون نفسك ولكي تحقق ذاتك، لا بد أن ترمي بكل شيء موروث عن السابقين، وتخترع أنت القيم الخاصة بك، والتقاليد والأعراف والسلوك الخاصة بك أنت، والتي تناقض كل ما كان عليه الآخرون السابقون.

**سادساً:** يركز "نيتشه" في فلسفته على خلق الإنسان الأعلى، أي: الوصول بالإنسان إلى "السوبر مان" عن طريق الصراع والتطور الذاتي الصاعد، وهو يطبق هنا مذهب التطوريين، فيذهب إلى أن الكائنات بدأت من الخلية الواحدة "الأميبا" ثم تطورت إلى الأعلى، حتى وصلت في تطورها إلى الإنسان الذي هو الحلقة الأرقى في سلسلة الأحياء، لكن الإنسان بعد أن وصلت إليه جميع الموجودات في مسيرة التطور الحيوي، جاء الإنسان فوقف عند حد معين ولم يكمل مسيرة التطور والارتقاء ليصل إلى الأعلى منه، فكل الكائنات من أدناها إلى أعلاها قد أدت رسالتها في الترقى إلى الأعلى، حتى أوصلت المسيرة إلى الإنسان، وكان على الإنسان أن يفعل نفس الشيء، لكنه وقف في محله وقد عوقته أوهامه الذاتية عن الدين والأخلاق والقيم، والإبقاء على الضعفاء، وهذه أفقدت المسيرة أهدافها، وعلى الإنسان أن يبدأ المسيرة من جديد، ولن يتم ذلك إلا بالقضاء على الدين والقيم، وإحياء الصراع، وتطبيق قانون "البقاء للأقوى"؛ حتى يصل في النهاية إلى الإنسان "السوبر مان"!!

**سابعاً:** وللوصول إلى هذه الغاية يجب ألا تترك الأمور تسير تلقائياً، بل يجب أن تسير الأمور حسب منهج معين يلتزم به الجميع دون تهاون، والمنهج اللازم إنما يتم عن طريق أمرين؛ تحسين النسل، والتعليم. وتحسين النسل يأتي في المرتبة الأولى، وتحسين النسل عند الرجل إذا سألناه: كيف نحسن النسل؟ يقول الرجل: تحسين النسل، يتطلب ماذا؟ يتطلب رفض الزواج العشوائي الذي يقوم على ما يسمى بالحب، والذي يقع فيه عظماء الرجال ضحايا للخادومات وأمثالهن تحت ما يسمى بالحب، لكن ينبغي أن يختار الأرقى من الرجال لأمثالهم من النساء، فتتزوج النساء الراقيات الرجال الراقين، ويكون الزواج محكوماً بهذه المعايير، يقول "نيتشه" يقول "نيتشه": يجب ألا نسمح بزواج يقوم على الحب، وأن يتزوج خير الرجال من خير النساء، وأما الحب فلنتركه لختالة الناس، إذ ليس الغرض من الزواج مجرد النسل، بل يجب أن يكون الزواج وسيلة للتطور والترقي، لمثل هذا المنهج وهذه التربية يرتفع الإنسان فوق الخير والشر، ولا يتردد في اللجوء إلى العنف والقوة في سبيل الوصول إلى غايته.

والغاية التي يقصدها الرجل إنما هي الوصول إلى الإنسان الأعلى "السوبر مان".

**ثامناً:** وكما بذل "نيتشه" جهوداً ضخماً ومستمرّاً في الدعوة إلى حياة الصراع والقوة؛ للوصول إلى خلق وإيجاد "السوبر مان" كذلك بذل الفيلسوف جهوداً مضاعفاً ومستمرّاً في محاولة القضاء على الأديان التي تمثل عدوه الأول، وتتمركز حولها أحقاد وأمقته وكرهه الشديدة، لقد جعل "نيتشه" في بعض كتاباته بطله "زرادشت" الذي اخترعه ليكون شبيهاً بسميه الفارسي "زرادشت" وليكون معلماً كما كان "زرادشت" معلماً، لقد وضع "نيتشه" على لسان بطله "زرادشت" حديثاً طويلاً رمزياً، أراد به أن يبين أن الدين خرافة، وأن الآلهة قد ماتت بالفعل.

يقول "نيتشه" في كتابه: هكذا تكلم "زرادشت"، ينزل "زرادشت" وهو في الثلاثين من عمره من جبله الذي آوى إليه، ساجداً في تأملاته ليعظ الجماهير، ولكن الجماهير كانت مشغولة عنه بمشاهدة رجل يرقص على الحبل، ولكن الراقص على الحبل يسقط ويموت، فيحمله "زرادشت" على كتفه ويذهب به بعيداً؛ ليدفنه في قبره، ويغلقه عليه، ويضع على بابه حجراً ضخماً حتى لا يخرج مرة أخرى.

هذه قصة رمزية، أراد بها "نيتشه" أن يمثل نفسه بـ"زرادشت" وأراد أن يمثل الإله برجل يلعب على الحبل؛ ليضحك على الناس أو ليلهيهم عن وقائع الأمور، أو عن حقائق الأشياء - عياداً بالله -.

**تاسعاً:** رغم أن "نيتشه" قدم كل هذه الفلسفات الباطلة، فهو يزعم أن الوجود له غاية، وغاية الوجود هي الصيرورة أو الدور السرمدي، وهو يعني بهذا أن ينفي ما جاءت به الأديان من القول بالنعيم الدائم والعذاب المقيم، وأن هذه الدنيا ستنتهي بدار خالدة أبداً لا تفنى، وحتى يحارب هذه الحقيقة الدينية قال بنظرية الدور السرمدي، وهي نظرية معروفة في التراث الثقافي اليوناني - وقد مرت بنا قبل ذلك - هذه النظرية تقرر: أن الموجودات جميعها تمر في دورات متتاليات صاعدات، تبدأ بالخلية الأولى أو بالذرة الأولى، ثم تترقى وتتطور تصاعدياً حتى تصل إلى أعلى ما يمكن أن تصل إليه الموجودات من ترق صاعد، ثم يفنى كل شيء تماماً؛ لتعود دورة أخرى من جديد.

وعلى نفس النمط، وتتكرر نفس الظروف والأحوال والموجودات هكذا في دورات دائمة سرمدية لا تنتهي، قالوا: وهذه غاية الوجود، وهذه النظرية جمع فيها القائلون بها من اليونان بين أمرين ظنوهما حقيقتين مسلمتين:

## نقد الفلسفة الغربية

**أولهما:** إن العالم الطبيعي دائم أزلي أبدي لا بداية له ولا نهاية.

**ثانيتهما:** أن الوجود الشخصي متغير ولا يبقى على حال أبداً.

وقد اعتنق "نيتشه" هذه الفكرة الفاسدة التي تخلى عنها أصحابها، وظن أنه بذلك وضع النهاية للدين وكل ما جاء به -نعوذ بالله- زاد الرجل على الفكرة الإغريقية -التي شرحناها- فكرة أخرى أضافها هو من عنده، وهي أن الأشياء التي تعود في الدورة التالية هي نفسها التي كانت في الدورة السابقة دون أدنى تغيير، وبذلك يقول: إن كل شيء سوف يعود في الدورة التالية حتى "نيتشه" والشعب الألماني بصفاته وسماته دون أي تغيير.

## نقد فلسفة نيتشه

**أولاً:** ليس هناك فكر ولا فلسفة إلا وهي تخضع للنقد والتقويم ما دامت نتاجاً بشرياً، لكن فلسفة "فريدريك نيتشه" لا تنطبق عليها هذه القاعدة، فهي لا تحتاج إلى نقد أو تقويم، ليس لأنها تعلو على النقد والتقويم، أو لأنها خالية من المآخذ، بل لأنها أقل قيمةً وأوضح بطلاناً، وأظهر سقوطاً وإسفافاً، وأبين ضلالاً وفساداً من أن تؤخذ.

**ثانياً:** إن الفكر لكي يخضع للنقد لا بد أن يحتوي على حد أدنى من العقل والمنطق يجعله أهلاً لأن ينظر فيه العقلاء ويهتموا له، لكن فكر هذا الرجل قد فقد الحد الأدنى من العقل والمنطق، حتى أضحى خيلاً وأوهاماً، هي في الواقع أحط من الخيال وأسف من الأوهام، إنه لا يقدم للناس أفكاراً وحقائق يقيم الأدلة على صدقها، بل يكتفي بأن يسرد علينا أوهامه، ويتجشأ خيالاته التي تنضح

بالحقد والمقت لكل شيء في الوجود؛ الدين، والأخلاق، والقيم، والإنسان، والحق، والخير، والجمال، ولم يثبت شيئاً في الوجود من مقتته وكرهيته وحقده حتى نفسه التي بين جنبيه.

إن خيالاته وأوهامه التي يقدمها للناس على هيئة أفكار فلسفية، إنما هي خيالات وأوهام مريضة لإنسان فاسد مريض، وقد كانت خيالاته وأوهامه جديرة بأن تذهب سدًى، وأن ينبذها الفكر الإنساني كما نبذت الحياة صاحبها، لولا أن اليهود توسموا في هذا الفكر ما يفسد البشرية ويلوث كل ما فيها من حق وخير وجمال، فأمسكوا بهذا الفكر ونشروه، فكان منه هذا الكم الهائل من الغشاء، والذي أضحى معدوداً من المذاهب الفكرية التي على الناس أن يدرسوها، ويحللوها، حتى يظهروا ما فيها من زيف وفساد، فيجنبوا أنفسهم والآخرين ضررها ووباءها، وإلا فكم من المجانين قادرٌ على أن ينتج مثل هذا الهراء، بل ما هو أكثر فساداً منها.

**ثالثاً:** إن "نيتشه" - كما قلنا - لم يقدم فكراً منطقيًا يقوم الدليل على صدقه، بل يكتفي بسرد أفكاره وتجشئ أوهامه، إنه قدم خيالاً ووهماً، ومن ثم كانت جميع أفكاره من ألفها إلى يائها كمًّا من التخيلات التي لا دليل عليها ولا سند لها سوى أنها إفرارات تكشف عن صفتين أساسيتين لصاحبهما:

**الصفة الأولى:** التي توضحها الفلسفة لصاحبها: كم هائل من الحقد والكرهية والمقت لكل شيء في الوجود: الدين، والأخلاق، والقيم، والمجتمعات الإنسانية، إنه يمقت كل شيء حتى نفسه، ويصل مقتته نفسه إلى حد التحريض المستمر على قتلها والقضاء عليها، أليس قد ملأ فلسفته بتحريض الأقوياء على قتل الضعفاء والمرضى، ومن كان أشد ضعفاً منه ومرضاً، إن فكره يجعله أول

المستحقين للقتل والتدمير، وإخلاء المجتمع الإنساني منه، إننا نعتقت قتل الإنسان أخاه.

لكننا نقول: ليت قوباً من الأقوياء في زمانه سمع مقالته مرةً واحدةً ونفذها في شخص واحد، ليت أحد الأقوياء تبرع وناب عن الإنسانية كلها في قتل ذلك المجنون وتطهير المجتمع الإنساني منه ومن أفكاره.

**الصفة الثانية:** جرأة مرضية اتسمت بقدر هائل من التبجح والتوقح والعدوانية، جعله يتجشأ على الناس، ويقذف في وجوههم بأرائه المريضة وأفكاره المعتوه كأنها حقائق مسلمة، ويعتدي على أقدم المقدسات، ويناقض أوضح البدهيات والفقهيات دون أدنى قدر من الحرج، وهذه كلها شكلت أقوى الأدلة على جنون الرجل وانقلاب الموازين عنده.

**رابعاً:** أقام "نيتشه" فلسفته وأفكاره على أساس من التعارض بين الذاتية والموضوعية، فقرر أن معارف الناس عن العالم الخارجي إنما هي أوهام متناثرة ومغايرة للواقع، كذلك قرر أن الواقع مغاير لمعارف الناس، وإذا كان الفيلسوف قد وضع نفسه في كفة والعالمين في كفة، ثم أصدر حكمه متفرداً به على جميع الناس أنهم واهمون، وأن علومهم ذاتية لا صلة لها في الواقع، نقول: إذا كان هو قد سمح لنفسه أن يفعل هذا، أوليس من حق الناس أن يتخذوا منه نفس الموقف، ويحكموا عليه بمثل ما حكم هو به عليهم، ومن ثم فإن معاملة "نيتشه" بنفس منطق هذا، وتطبيق تلك القاعدة التي جاء بها، من شأنه أن يذري بفكره كله، وأن ينسف فلسفته بجملتها؛ لأن حسب قواعده مجرد أوهام ذاتية، لا صلة لها بالواقع، والواقع معارض لها ومغاير، وكل ما فيه مختلف عنه؟

فليس علينا كي نهدم فكره من جذوره إلا أن نعامله بفكره ونطبق عليه مبادئ فلسفته، بل إنه أولى بذلك من غيره؛ لأنه إذا كان قد اتهم الأسوياء من الناس



بأنهم واهمون ، وأن أفكارهم وعقائدهم إنما هي خيالات وأوهام ذاتية لا صلة لها بالواقع ، فماذا عنه هو الذي قضى حياته مريضاً ، مشلولاً ، شبه أعمى ، نصف مجنون ، ثم وقع به الجنون المطبق قرابة الأحد عشر عاماً الأخيرة من حياته التي قضاهما يتخبط في ظلام العمى والجنون؟ ليس من شك في أنه الأولى والأحق بصفة الواهم المتخيل الذي يعيش بعيداً عن الواقع ، والذي لا يمت للواقع بصلة .

**خامساً:** إن الفيلسوف الحاقد قد أقام فلسفته على أنقاض كل ما هو خير وحق وجميل في هذه الحياة ، إنه عاشق للشر والباطل ، وكل قبيح وفساد ، إنه ينفر ويحذر من كل ما هو خير وطيب وفاضل ، ويرغب في كل ما هو شر وخبيث ودنس ، إن أوضح الأدلة على فساد مذهبه أنه أخذ على عاتقه أن يقلب الحقائق ، وأن ينقض القيم ، وأن يحيل المجتمعات البشرية إلى ساحات للحرب يقضي فيها الأقوياء على الضعفاء ، ثم تستمر الحرب بين الأقوياء حتى تتحول المجتمعات البشرية إلى أنقذ وخرائب يرتفع فوقها نعيق الغربان والبوم .

إن الرجل المريض بعقله يخلط بين الوسيلة والغاية ، فالقوة التي ظل طوال حياته يتغنى بها ليست غاية في ذاتها ، وإنما هي وسيلة ، إن القوة تكون خيرة إذا ما استعملت في سبيل الخير ، وتكون شريرةً وقبيحةً إذا ما استعملت في تحصيل الشر . أما القوة في ذاتها فلا توصف بخير ولا بشر ولا بفضيلة ولا برذيلة ، وإنما يتوقف ذلك على الموضوع الذي تستعمل فيه .

ولعلنا نتذكر ما ورد في السنة الشريفة من ميزان تُوزن به القوة من حيث كونها خيراً أو شراً ، حين مر على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم - رجل شاب قوي جلد ، يسرع في طريقه ، فقال أصحاب رسول الله ﷺ : " لو كان هذا في سبيل الله - يقصدون قوة الفتى وشبابه ، وسرعته في السعي - فأخبرهم الرسول ﷺ

## نقد الفلسفة الغربية

بالميزان الصحيح للقوة، حيث قال: ((إن كان قد خرج يسعى على أبوين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان قد خرج يسعى على زوجه وأولاده فهو في سبيل الله، وإن كان قد خرج يسعى على نفسه ليعفها عن المسألة فهو في سبيل الله، وإن كان قد خرج بطراً ورياءً فهو في سبيل الشيطان)) أو كما قال ﷺ.

هذا هو الميزان الذي تُوزن به القوة، وقد اقتصر الرسول ﷺ في ذم القوة على أن يكون صاحبها قد خرج كبيراً ورياءً ومفاخرةً، فماذا لو عَلِمَ الرسول ﷺ أنه خرج كما يدعو "نيتشه" الأقوياء ليقتلوا الضعفاء، ويروي الأرض بدماء المرضى - عياداً بالله -.

**سادساً:** إن الرجل المريض أراد أن يحول المجتمعات الإنسانية إلى مختبرات، وأن يحول الناس رجالاً ونساءً إلى فئران للتجارب، وأن يلغي من حياة الناس العواطف والمشاعر، حيث يدعو إلى أن تقوم العلاقات بين الرجال والنساء حسب قواعد جامدة وبرامج باردة، يضعها القائمون على الأمر، فيأتون برجل معين ويفرضونه على امرأة معينة، وكأن الناس قطع من الأغنام قام عليها راع قاس القلب ميت الإحساس، وبذلك تتحول المجتمعات إلى بيئات لا أثر فيها لعاطفة أو شعور.

إن هذه وحدها كفيلة بأن تضرب المجتمع الإنساني في الصميم، وتُحيله إلى أخس من مجتمع الحيوان الأعجم.

## الفيلسوف الإنجليزي "ديفيد هيوم"

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : ديفيد هيوم: حياته، ومؤلفاته ٣١٥
- العنصر الثاني : الأسس التي تقوم عليها فلسفة "ديفيد هيوم" ٣١٦
- العنصر الثالث : موقف "ديفيد هيوم" من الدين ٣٢٢
- العنصر الرابع : نقد آراء "ديفيد هيوم"، ومناقشة فلسفته حول وجود الله تعالى ٣٢٨



### ديفيد هيوم: حياته، ومؤلفاته

نتحدث عن فيلسوف إنجليزي، اشتهر بأمر كثيرة في فلسفته، لكن أهم ما اشتهر به إنما هو عداؤه للدين، وكرهيته ومقتته المتدينين، هذا الفيلسوف هو "ديفيد هيوم"

#### أولاً: حياته:

ولد "ديفيد هيوم" لأسرة إسكتلندية برجوازية، يعني: متوسطة من الطبقة المتوسطة، لا هي من الطبقة الحاكمة ولا من الطبقة العمالية الفقيرة، وجهته أسرته إلى دراسة القانون لكنه كان شغوفاً بالفلسفة، فخرج على رغبة أسرته في دراسة القانون، واتجه إلى دراسة الفلسفة.

بعد أن تخرّج من جامعة "أدنبرة" اتجه إلى التجارة شأن الأسرة المتوسطة أو البرجوازية في ذلك الوقتن لكنه فشل في تجارته فتركها إلى الاشتغال بالكتابة. سافر إلى فرنسا وهو في سن الثالثة والعشرين، ومكث بها ثلاث سنين هو يكتب ويحرر بعض المقالات، ثم عاد إلى "إنجلترا" حيث عين كاتب السفارة البريطانية في باريس، ثم عاد إلى وطنه مرة أخرى ليواصل الاشتغال بالتأليف، ثم عُيّن وزيراً في الحكومة البريطانية، وبقي في منصبه عاماً واحداً، ثم ترك الوزارة وأقام بمدينة "أدنبرة" مسقط رأسه، واشتغل بتحرير فلسفته والتصنيف فيها، حتى مات سنة ست وسبعين وسبعمائة وألف للميلاد.

#### ثانياً: مؤلفاته:

سافر "هيوم" إلى فرنسا وهو في الثالثة والعشرين، وظل ثلاث سنين يحرر مقالاته وآرائه، فلما عاد إلى إنجلترا نشر أفكاره وآرائه تلك في مجلدين، ثم أتبعهما بمجلد

## نقد الفلسفة الغربية

ثالث، وكان من ذلك ما أسماه (رسالة في الطبيعة الإنسانية)، ثم وضع كتاباً آخر تحت عنوان (مقالات سياسية)، ثم نشر كتاباً تحت عنوان (تاريخ بريطانيا العظمى) الذي لقي قبولاً من الأوساط الأدبية، فخفف عنه فشله في كتابه الأول، ثم كتب مؤلفاً سماه (محاورات في الدين الطبيعي) هذا الكتاب كشف عن إحداه الشديدي، وكشف عن كفره، وكشف عن مقته الدين والمتدينين، لذلك لم يشأ أن ينشره في حياته؛ خوفاً من محتوى الكتاب الذي يهاجم فيه عقائد الناس ومقدساتهم، ثم وضع كتاباً في نفس الموضوع سماه (التاريخ الطبيعي للدين) أما كتابه (محاورات في الدين الطبيعي) فقد نُشرَ بعد موته بثلاث سنين، فاكتمل بذلك مذهبه الإلحادي، وأفكاره الضالة عن الدين، وكل ما يتصل به.

تميزت أفكاره وكتاباتة عن الدين بالسفسطة والمغالطة إلى ما فيها من هجوم عنيف، يدل على ما كان لدى الرجل من عدااء للدين بكافة صورته.

## الأسس التي تقوم عليها فلسفة "ديفيد هيوم"

## ثالثاً: الأسس التي تقوم عليها فلسفته:

تقوم فلسفة "ديفيد هيوم" الإلحادية على عدد من الأسس أهمها:

**أولاً:** تنطلق فلسفته وآراؤه جميعاً من الحس كمجال وحيد للمعرفة، ومنبع فريد للإدراك، فالمعارف عنده تقوم على أساسٍ حسيٍّ بحت، والمادة الجامدة عنده هي مصدر المعارف والإدراك والعلوم، وليس هنالك مصدر آخر يستقي الإنسان منه معارفه، وكلُّ ما يتحدث عنه المتدينون من مصادر للمعرفة غير الحس والمادة، فإنما هي عند الفيلسوف الضال أوهام لا حقيقة لها ولا وجود لها، إلا في مخيلة أصحابها.

**ثانياً:** أكد الرجل على الذاتية في مقابل الواقعية والموضوعية، والمراد بالذاتية الأحاسيس الداخلية الخاصة عند الإنسان، والتي لا موضوع لها في الخارج، وإنما هي تمثل أوهاماً وتخيلاً خاصةً بالنسبة للشخص ذاته، يؤكد الرجل على الذاتية في مقابل الواقعية والموضوعية، وذهب إلى أن معتقدات الإنسان وآراءه عن العالم الخارجي إنما هي من وحي خيال الإنسان، ومن خلق أوهامه، وأنها لا ترجع إلى العالم الخارجي وإنما ترجع في حقيقة الأمر إلى ما يتوهمه الإنسان عن العالم الخارجي؛ وذلك نتيجة لما لديه من معتقدات سابقة ومدركات ذهنية مخترنة، فهو يسقط كل ذلك على العالم الخارجي ويفسره بها، فتكون الحصيلة أن يعلن عن ذاته وعن مكنونات نفسه، ولا يعلن عن الحقائق الخارجية التي يزخر بها العالم الواقعي.

**ثالثاً:** استمرراً في تأكيده على الذاتية في مقابل الموضوعية، ونتيجة لذلك فقد جعل الرجل أفعال الإنسان وسلوكه إنما هي ردود أفعال لما يعتمد في نفسه من إحساس باللذة والألم، واستجابة لكل ما يشعر به تجاه الأشياء من سعادة أو شقاء، فأفعال الإنسان تحكمها الحواس الظاهرة من الإحساس باللذة والألم، ويتبع الحواس الظاهرة الحواس الباطنة، مثل المحبة والكراهية، أو الرجاء والخوف. والفرق بين الحواس الظاهرة والحواس الباطنة: أن الأولى مباشرة، فاللذة والألم يحس بهما الإنسان مباشرةً من مصادر كل منهما، ثم يأتي رد الفعل بعد ذلك على هيئة إحساس باطني أو انفعال وجداني، فنحب النوع الأول، ونحرص عليه، ونرجو تحقيقه، بينما نكره النوع الثاني الذي هو الألم ونتجنبه ونفر منه.

**رابعاً:** تأكيداً على ما تقدم، وتأسيساً عليه يذهب "هيوم": إلى أن الفرق بين ما هو خير وما هو شر إنما يكمن فيما ينتج عن كل من لذة أو ألم، فالفيلسوف

"هيوم" يربط بين اللذة والخير والألم والشر، فكل ما سبب للإنسان من لذة أو سعادة فهو خير، وكل ما سبب له ألماً أو تعاسةً فهو شر، وبالتالي فإن الفضيلة والرذيلة تخضعان لنفس المقياس والمعيار والميزان، مقياس اللذة والألم عند الرجل هما الخير والشر والفضيلة والرذيلة، فكل ما يحقق للإنسان لذة فهو خير وهو فضيلة، وكل ما يسبب له ألماً فهو شر ورذيلة.

ويأتي هنا سؤال هام وخطير: أين محل إرادة الإنسان من كل هذا؟ ثم ما أثرها؟ أي: ما أثر الإرادة الإنسانية في توجيه الإنسان ما دامت أفعاله إنما هي ردود أفعال فقط؟

والجواب الواضح والحتمي بناءً على المبادئ التي يعتنقها "هيوم": أن إرادة الإنسان الحرة المختارة لا وجود لها، إن الإنسان عند الفيلسوف الضال يتحرك كآلة تحركها مشاعر الألم واللذة، وتتحكم فيها أوهامه وخيالاته عن العالم الخارجي الذي لا يتعامل معه إلا من خلال ردود الأفعال.

وهكذا قضى الرجل على الأخلاق على مرحلتين:

**المرحلة الأولى:** حينما ربط بين الخير واللذة، والشر والألم، ثم ربط الفضيلة إلى اللذات، والرذيلة إلى الآلام، فجعل الأخلاق في أساسها تقوم على أصول حسية مادية بحتة تتبع اللذات والآلام.

**المرحلة الثانية:** حين جرد الإنسان من مسؤوليته عن أفعاله بأن جعل كل أفعال الإنسان إنما هي ردود أفعال، وقيد إرادته الحرة التي تقوم عليها المسؤولية الفردية والخلقية بما يحس به من لذة، وما يحس به من ألم، فإنه يندفع إلى الأولى بلا وعي، وينفر من الثانية كذلك بلا وعي.



رابعاً: مفتاح شخصية الفيلسوف "ديفيد هيوم":

العوامل والمؤثرات التي أثرت في فلسفة الرجل أو في شخص الرجل ، فجعلته ينتج مثل هذا السفه الذي يسمى فلسفةً:

طبَّقَ الفيلسوف مبدأه في ذاتية المعارف في مقابل موضوعية العالم الخارجي على قانون "السببية والعلية". فقد أنكر الرجل أن يكون هناك قانون للسببية أو العلية ، بل إنه أنكر ما يسمى بالأسباب والعلل ، مدعيًا أن ما يزعمه الناس من قوانين للأسباب والمسببات أو العلل والمعلولات ، إنما هو من أوهام النفس ، وخداع الذات ، وأن الواقع أنه لا يوجد ما يسمى بالأسباب أو العلل ، ولا يوجد ما يسمى بقانون "السببية أو العلية".

تفسير ديفيد هيوم لدعواه:

فإن الرجل يدعي أن ما يسمى سبباً وما يسمى مسبباً كل منهما ظاهرة منفصلة تماماً عن الأخرى ، وأنه لا توجد أية علاقة حقيقة بين الظاهرتين ، كل ما هنالك أن الناس لاحظوا أن الظاهرة الأولى التي هي السبب والظاهرة الثانية التي هي المسبب ، تأتي عقب الظاهرة الأولى التي هي السبب ، فربطوا بينهما بسبب اقترانهما في الوجود زماناً ومكاناً ، وهذا الربط إنما هو عند الرجل افتراض ذهني ذاتي قائم على تداع المعاني ، لكنه في الواقع لا حقيقة له .

ويضرب الرجل مثلاً ، يقول : الإنسان يشعل النار ، وهذه ظاهرة قائمة بذاتها ، ثم يشعر بالحرارة والدفء بعد إشعال النار ، وهذه ظاهرة أخرى جاءت عقب الظاهرة الأولى التي هي إشعال النار ، ولا يوجد دليل في العقل أو الواقع على

## نقد الفلسفة الغربية

ضرورة وجود الظاهرة الثانية - التي هي الشعور بالحرارة والدفء - دائماً عقب وجود الظاهرة الأولى التي هي إشعال النار، كما لا يوجد دليل على علاقة بين الظاهرتين، أي: بين إشعال النار والإحساس بالدفء والحرارة.

ثم يضرب مثلاً آخر بكرات البلياردو - وكلمة "البلياردو" لعبة من الأشياء التي اشتهرت عند الإنجليز - التي يضرب اللاعب بإحدى الكرات لتصطدم بالكرات الأخرى، وتحركها إلى حيث يريد اللاعب، فيقول الفيلسوف العجيب الغريب: إنني أرى كرة البلياردو تتحرك، فتصادم كرة أخرى، فتتحرك الأخرى، وليس في حركة الأولى دليل على ضرورة تحرك الثانية حين تصطدم بها. فالرجل يريد أن يقول: "إن تحرك الكرة الأولى ظاهرة وتحرك الكرة الثانية الذي نتج عن اصطدام الأولى بها ظاهرة ثانية". ثم يقول: "لا يوجد علاقة بين حركة الكرة الأولى وحركة الثانية، ولا يوجد أبداً دليل على أن اصطدام الأولى بالثانية يؤدي إلى تحرك الثانية".

أرأيتم هذه السفسطة والمغالطة التي لا يقول بها أضعف الناس ذكاءً في إحدى مستشفيات المجانين.

يضرب الرجل مثلاً ثالثاً على تحرك أعضاء الجسم تبعاً لإرادة الإنسان، فيقول: نرى الإنسان يريد أن يأكل تفاحة ووضعت أمامه، فتتحرك يده لتلتقط التفاحة وترفعها إلى فمه، ويبدأ في قطعها مرة بعد مرة، ثم يقول: لا توجد علاقة أبداً بين رغبة الإنسان في أكل التفاحة وامتداد يده إليها ورفعها إلى فمه. فالرجل يدعي إداً أنه لا علاقة بين إرادة الإنسان وحركة يده نحو التفاحة وحملها إلى فمه، ويرفض بإصرار أن تكون إرادة الإنسان هي السبب أو العلة في حركة اليد. ويقول: أنا لا أدري كيف يمكن لفعل ذهني - يقصد إرادة الإنسان - أن يحرك

عضوًا ماديًا - يقصد يد الإنسان - إنني لا أدرك علاقة بين إرادة الإنسان وحركة يده ، ومحال أن أعترف بذلك أو أقر به .

إن الرجل يرجع قانون "العلية والسببية" إلى ما سماه "قوانين التشابه والتقارن في الزمان والمكان" وهو يقصد بالاقتران في الزمان والمكان أن ظاهرة السبب وظاهرة المسبب قد أُلِفَ الناس اقترانهما في الوجود معاً متعاقبتين في نفس الزمان والمكان ، وقد أُلِفَ الناس أن اصطدام العصا باليد في حالة الضرب بالعصا تحدث شعورًا بالألم ، وأن هناك اقترانًا بين الأمرين أو الظاهرتين في الزمان والمكان ، فبسبب هذا الاقتران توهموا - عند الفيلسوف طبعاً - علاقة بين الظاهرتين سموها "علاقة السببية" بين ظاهرة الضرب والإحساس بالألم . والفيلسوف لا يرى أية علاقة بين الأمرين ، فينكر السبب وينكر المسبب ، وقد تحقق نفس الألم عقب الاصطدام بين العصا واليد في كل مرة يحدث ذلك ، فهناك تشابه في كل الحالات ، وهذا ما سماه الرجل "قانون التشابه" . فهو يزعم أن القول بالسببية والعلية ناشئ عن الاقتران والتشابه ويسمى ذلك "قوانين التشابه الاقتران في الزمان والمكان" ، ويسمى كذلك "قوانين تداع المعاني" .

ويفسر قانون "تداع المعاني" بقوله : "إن ما يسمى بالعلة شيء كثر بعده تكرر شيء آخر ، حتى إن حضور الشيء الأول يجعلنا عن طريق تداع المعاني دائماً نفكر في وجود الشيء الثاني ثم يضرب مثلاً بإشعال النار والإحساس بالحرارة ، يقول : بإننا أُلِفنا أن الظاهرة الثانية التي هي الإحساس بالدفء تأتي دائماً بعد الظاهرة الأولى ، وهي إشعال النار ، فإننا دائماً كلما أشعلنا النار انتظرنا وجود الدفء بعدها ، وذلك مجرد تداعٍ للمعاني ليس أكثر ، لكن لا يوجد سبب ولا يوجد مسبب ، فلا النار سبب في الحرارة ولا الحرارة مسببة عن وجود النار .

## موقف "ديفيد هيوم" من الدين

## موقف "هيوم" من الدين:

"هيوم" فيلسوف ملحد، لا يؤمن إلا بالمادة وحدها، ولا يرى وسيلة للمعرفة إلا الحس الذي يستقي منه معارفه، ويستمد علومه من المادة، وهو يرفض الإيمان بأي شيء خارج عن نطاق العالم الطبيعي المحسوس، من ثم فقد أعلن "هيوم" الحرب على الدين، وسخر فلسفته في جانبها الأكبر والأهم لمحاربة الدين، وإقامة أوهامه التي اعتبرها أدلة على بطلان الدين، وإثبات أن الدين ما هو إلا خرافة وما هو إلا وهم من الأوهام التي تعود إلى ذاتية الإنسان، ولكن لا حقيقة لها في الخارج، ولا حقيقة لها في الواقع أو الموضوع.

ليس هذا فحسب، بل إن المبادئ الأساسية التي تقوم عليها فلسفة هذا الملحد إنما وضعها وأكد عليها؛ ليصل من خلالها إلى إثبات أن الدين باطل، وأنه من أوهام النفس وخيالات الذات. واضح أن الرجل بدأ ملحدًا، ثم رسم لنفسه من بدايات اشتغاله بالفكر والتفلسف، أن يسخر فكره وفلسفته لهدف واحد هو حرب الدين، أو إعلان الحرب على الدين، ومحاولة القضاء عليه في نفوس المتدينين.

ولذلك فنحن نستطيع أن نحدد نقطة الانطلاق في فكر الرجل وفلسفته، ونبين الركيزة الأساسية التي يركز عليها مذهبه، ونبين ذلك، فنقرر أن الانطلاقة الأولى أو محور فلسفة الرجل إنما هو الإلحاد، هو محور فكر وفلسفة "هيوم" وهو المحور الذي يدور عليه فكره، وهذا يتضح من المجهود الذي بذله "هيوم" طوال حياته من خلال مؤلفاته، وإن نظرةً إلى مؤلفات الرجل يتضح منها أنه لم يكتب

شيئاً في الفلسفة، وأن الفكر الذي خلفه لم يكن فيه شيء إلا الإلحاد ومحاربة الدين.

فنحن إذا استثنينا مؤلفه (مقالات سياسية) ثم مؤلفه الآخر (تاريخ بريطانيا العظمى) وهما كتابان في شئون بعيدة عن الفلسفة، أو أن صلتها بالفلسفة صلة محدودة، فإن مؤلفاته الأخرى جميعها تدور حول الإلحاد وتأكيده، وبيان افتراءاته على الدين والمتدينين. ونحن لا نهتم كثيراً بكفر الرجل بالنصرانية البروتستانتية التي يدين بها قومه - أقصد الإنجليز - وإن كان النصراني أفضل من الملحد، رغم أن النصرانية دين كفر، إلا أن التدين بالنصرانية أفضل من الإلحاد الكامل، لكن الذي يهمنا أن الرجل لم يقف حربه على النصرانية، ولكنه حارب الدين بكل صورته، وأخذ يركز حربه كله وافتراءاته جميعها على وجود الله - سبحانه وتعالى عما يصفون - ومن ثم فلم يعد الأمر إذاً وقفاً على نصرانيته، بل أصبح الأمر عامّاً شاملاً لكل دين.

وقد وضع "هيوم" مبادئ فلسفته لهذا الهدف الخبيث، فهو حين أنكر علاقة الفكر الإنساني بالواقع، وأكد على الذاتية في مقابلة الأمور الخارجية والحقائق الموضوعية، واتهم الإنسان بأن كل ما يدعيه من معارف إنما هي ناشئة عن أوهامه الذاتية، إن الرجل حين وضع هذا الرجل أو روج لهذه الفكرة، إنما أراد أن يقر أن المتدينين وكل من يعبد ربه وكل من يخضع لإلهه، أيّاً كان ذلك الدين، فإن هؤلاء جميعاً واهمون، وأن الدين وكل ما يتصل به من عقائد وعبادات إنما هي من أوهام الذات، التي لا صلة لها بالواقع.

ثم حين أنكر الرجل "قانون السببية والعلية" فإنه فعل ذلك ليصل إلى إبطال الأدلة التي يقيمها المتدينون على وجود الله ﷻ. إن أشهر الأدلة وأقواها على وجود الله

سبحانه وأكثرها شيوعاً بين عامة المتدينين، إنما هو الدليل القائم على الانتقال من الخلق إلى الخالق، أو من الصنعة إلى الصانع إن، الفطرة وبديهة العقل ومسلمات الفكر وأوليائه، تجعل لكل فعل فاعلاً، وتجعل من الفعل دليلاً على وجود فاعله، ومن قديم والناس يستدلون على الخالق سبحانه من خلال خلقه، كما يستدلون بوجود صنعة ما على وجود صانعها.

بل إنهم ليستدلون على صفات الصانع من خلال ما يرون في الصنعة من حكمة وإبداع وإتقان، فيقولون: صانعٌ بديعٌ حكيمٌ.

وإن الناس قد يرون في الصنعة خلاف ذلك أو عكسه، فيصفون الصانع بما يناسب ما رأوا، هكذا كان الناس، وهكذا هي فطرهم التي فطرهم الله تعالى عليها، لا غرر، قد لفت الله ﷻ الناس إلى خلقه، ودعاهم إلى أن ينظروا إلى ما في ذلك الخلق من إتقان وعناية وحكمة وإبداع، ثم إلى الإيمان بالخالق الذي خلق وأتقن وأبدع، فإن الخلق آية وعلامة على الخالق سبحانه، يقول الله ﷻ: ﴿وَأَيُّهُ لَمُّ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ ليس: ٣٣ : ٣٦.

هذه الأدلة وغيرها قائمة على أساس من قوانين السببية والعلوية، بمعنى: أن انتقال الإنسان من الخلق إلى الخالق أو من الصنعة إلى الصانع، هو من باب انتقاله من المسبب إلى سببه ومن المعلول إلى علته.

وقد ذكرنا قبل ذلك أن "ديفيد هيوم" ملحد، وقد نذر نفسه للانتقاد على الدين والمتدينين، وسد الطريق أمام الناس الذي يصلون من خلاله إلى الاستدلال على وجود الله ﷻ فماذا هو فاعل؟

إن ذلك الشيطان فكر وقدر، قتل كيف قدر، ثم وجد أن أيسر الطرق إلى القضاء على الدين وتجفيف منابع التدين في نفوس المتدينين، إنما هو القضاء على قانون "السببية" وإبطال كل علاقة بين السبب والمسبب؛ حتى لا يقيم الناس من المسببات - التي هي المخلوقات - طريقاً أو قنطرةً أو جسراً يصلون من خلالها إلى المسبب أو الخالق - جل الله وعز.

إذاً فكل هذه الثورة من الفيلسوف الملحد على قانون "السببية" وهو قانون فطري بدهي، عبر عنه البدوي قديماً بقوله: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العليم الخبير، والذي ذكره العربي البدوي القديم هو فطرة الله - تبارك وتعالى - في كل الخلق، وهو ليس قصراً على العربي؛ لأنه لا يرجع إلى عروبتة التي تخص جنسه، بل يرجع إلى إنسانيته أو فطرته كإنسان، وتلك تجمع الخلق كلهم، فما أحس به العربي وأشار إليه من الانتقال من الفعل إلى الفاعل أو من المسبب إلى السبب، هو فطرة الله في الخلق أجمعين.

ولذلك حينما فكر فيلسوف الإلحاد هذا دله شيطانه أن يتوجه بالطعن إلى الأسباب والمسببات، فيبطل العلاقة بينهما، ثم تكون النتيجة إبطال الانتقال من المسبب إلى سببه، وهكذا يقضي ذلك الشيطان على شجرة المعرفة وأصلها، فهو يحمل معوله؛ ليضرب به في أصل الشجرة ليقطع جذعها وليس غصناً من أغصانها، والرجل الملحد لم ينكر ذلك بل صرّح به في كتبه كلها التي وضعها لهذا الهدف، فهو يردد في كل ما كتب: إن الصنعة لا يمكن أن تدل على صانع لها إلا إذا رأينا الصنعة في يدي الصانع يقوم بتشكيلها، ورأيناها تخرج من بين يديه، إننا - هذا نص الرجل - إننا حكمنا بأن الساعة لها صانع؛ لأننا رأينا الصانع

## نقد الفلسفة الغربية

يقوم بصنعها، لكننا لا نستطيع أن نطبق ذلك على الكون كله؛ لأننا لم نرَ الكون داخل مصنع والصانع يجتهد في صنعه، فكيف نرجع ذلك إلى صانع ونحن ما رأينا ذلك بأعيننا؟!

ويقول: لماذا نبحث بالمادة عن صانع مفارق عنها؟ ولماذا لا نمد المادة إلى لا نهاية، ثم نجعلها هي الله، فيكون الإله أمامنا ومن بيننا؟

يقول "هيوم": لماذا لا نؤله المادة، نؤله العالم، نجعل العالم الذي نعيش فيه الطبيعة التي نعيش عليها، لماذا لا نجعلها هي الإله، ومن ثم فلا يكون الإله غيباً، ولا يكون الإله بعيداً، ولا مفارقاً عنا، وإنما يكون من بيننا؟ هكذا يقول الرجل الضال.

وأخيراً يقول: إذا كنا سوف نتمسك بقانون "السببية" وأن كل موجود له سبب، فسوف نجد أنفسنا مطالبين بالسير في القانون إلى نهايته، فكما بحثنا عن سبب لوجود العالم، فتمشي في القانون إلى نهايته، فنبحث عن سبب لوجود الله نفسه، وإذا قلنا: إن الله هو الذي أوجد العالم فلا بد أن يأتي السؤال الثاني، فنقول: ومن أوجد الله؟

هكذا يدعي أو يتكلم هذا الفيلسوف الضال.

لا يسع القارئ عن موقف "هيوم" من قانون "السببية والعلية" إلا أن يتذكر أبا حامد الغزالي - رحمه الله - وموقفه من السببية كذلك، وهو موقف يمتد كثيراً حتى يشمل الأشاعرة، أبو حامد الغزالي أنكر قانون "السببية" وقد يكون الفيلسوف الملحد "هيوم" قد قرأ عن موقف أبي حامد من السببية، فنحى نحوه وانتهج طريقه، ولكن ينبغي أن نعرف أن ثمة فارقاً شاسعاً بين الاثنين، بين أبي حامد الإنسان المسلم الدين الملتزم الداعية، وبين ذلك الملحد الضال الفاجر



الكافر، فلا نجمع بينهما في حزمة واحد لمجرد أن جمعهما طريق إنكار السببية، فإن الطريق الواحد قد يسلكه اثنان؛ طيب ليحيي نفس مريضة، وسفاح ليقتل نفساً صحيحةً، وكلاهما يسلكان نفس الطريق، وإن السكين والحدّة لتقع في يد اثنين، أحدهما ليسفح بها دم بهيمة أحل الله سبحانه ذبحها، والثاني ليسفح بها دم نفس حرم الله تعالى قتلها.

فسلوك الطريق الواحد الذي سلكه أبو حامد وسلكه ذلك الملحد، لا يدل على تقارب بينهما ولا تماثل ولو من بعيد، فأبو حامد الغزالي أنكر السببية، وكذلك فعل "هيوم" لكن هناك فروقاً بين الرجلين، وأهم هذه الفروق والاختلافات بينهما يتصل بالمنطلق ويتصل بالنتيجة، هنالك فارق من حيث المنطلق ومن حيث النتيجة، ونعني بالمنطلق السبب الذي حدّا بكل منهما إلى إنكار قانون السببية، ونعني بالنتيجة المحصلة النهائية التي وصل إليها كل منهما من خلال مذهبه في إنكار السببية.

أما من حيث المنطلق فقد أنكر أبو حامد السببية كرد فعل لما كان عليه الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، حيث ذهبوا إلى أن العلاقة بين السبب والمسبب علاقة حتمية ضرورية، وأن نقد هذه العلاقة من المحالات، بل ذهبوا إلى أن الأسباب تفعل في مسبباتها بذواتها، ومن هنا قد أنكروا خرق العادات، وشغبوا على المعجزات للأنبياء والكرامات للأولياء؛ لأنهم جعلوا السبب مؤدٍ إلى مسببه بالضرورة وبالذات، وأنه لا يقدر، ليست هنالك قدرة تمنع وجود المسبب إذا وجد السبب، أنكروا ذلك. جاء أبو حامد فرد عليهم، واندفع في رد الفعل إلى نهايته، فأنكر السبب والمسببات، وقال: إن كل شيء يقع في هذا الوجود إنما هو بإرادة الله ﷻ وأبو حامد قال: إنني إذا كنت عطشاً وشربت الماء، فشعوري

## نقد الفلسفة الغربية

بالري بعد الشرب، هذا ليس ناتجاً عن شرب الماء وإنما ناتج عن فعل الله ﷻ وإرادته، وقال: إذا قطعنا عنقاً فمات صاحبه، هذا العنق الذي قطعناه، قال: الموت هنا ليس مسبباً عن قطع العنق، وإنما هو مسبب عن إرادة الله لهذا الذي مات أن يموت. هكذا ذهب أبو حامد.

لكن "هيوم" عرفنا أن منطلقه في إنكار الأسباب والمسببات، إنما كان لقطع الطريق على الإيمان بالله ﷻ كما ذكرنا قبل ذلك. الفيلسوف الملحد -لعنه الله- التزم الهدف الذي سعى إليه، وأكد على النتيجة التي ظن أنه قد حققها من خلال أوهامه وأضاليه في إنكار السببية، وإبطال الأدلة على وجود الله ﷻ وقد هلك الرجل "هيوم" وهو يظن أنه قد حقق ما أراد، ولكنه لم يهلك حتى رأى ثورة الكثيرين ووقوفهم ضد أفكاره الإلحادية، مما دفع به إلى أن يمسك عن نشر أحد كتبه التي يهاجم بها الدين بعنف، وهو (محاورات في الدين الطبيعي).

## نقد آراء ديفيد هيوم، ومناقشة فلسفته حول وجود الله تعالى

## نقد آراء "ديفيد هيوم":

إن الذي يتعرض لنقد الآراء الباطلة كأراء "ديفيد هيوم" والفلسفات الفاسدة يجد نفسه أمام نوعين منها:

**النوع الأول:** نوع خفي البطلان مستور الفساد، يحتاج من الناقد ذكاءً في الذهن، ودقة في النظر، وعمقاً في التحليل، وصبراً على التنقيب بين ثنايا تلك الفلسفات، وخبايا هذه الآراء؛ حتى يستطيع أن يظهر ما كان منها خفياً ويكشف ما كان منها مستوراً، ويبين للناس فسادها وبطلانها، ولكن بعد جد وجهد ومثابرة.

**النوع الثاني:** من تلك الآراء والفلسفات على عكس النوع الأول، هنالك فلسفات تتعرض للنقد، لكنها ظاهرة الفساد واضحة البطلان بينة الزيف، لا يحتاج نقدها من الناقد جهداً، ولا يكلفه مشقة، بل إن بعض الفلسفات الفاسدة والآراء الزائفة لتكون من وضوح البطلان وظهور الفساد إلى الحد الذي لا يجد الناقد ما يقوله فيها، حيث يكون فسادها أوضح من أن يوضح، وبطلانها أظهر من أن يحتاج إلى إظهار.

وآراء الفيلسوف الذي معنا هي من النوع الثاني، إذ هي بينة الفساد واضحة البطلان، لكننا نزيد ذلك بياناً ووضوحاً، فنتناول أفكارها الأساسية التي قامت عليها تلك الفلسفة بالنقد في نقاط محددة:

**أولاً:** أن الرجل الملحد يصدر آراءه وفلسفاته على صورة تقريرية بجته دون أن يكون لديه دليل على أي منها، فهي آراء وأفكار لا وجود لها إلا في ذهنه المريض، وإذا ما طلبناه بدليل على شيء مما يقول لم نجد لديه سوى ادعاءاته وافتراضاته.

وسوف يتضح لنا ذلك من مناقشة آراءه فيما يلي.

**ثانياً:** ادعاؤه بأن الناس يعيشون داخل ذواتهم، وأن صلاتهم بالعالم الخارجي مقطوعة، وأن كل ما يعرفه الإنسان عن العالم الخارجي إنما هو أوهم من صنعه نفسه، ولا صلة لها بالواقع. هذا الادعاء أوضح في البطلان من أن يوضح، فإن العالم الذي نعيشه حقيقة واقعة، ونحن نتعامل مع قوانينه ومعطياته في كل لحظة من لحظات حياتنا، وليس هناك ما يختلف حوله الناس من تلك القوانين والمعطيات، فهو يختلف -الرجل- حول ما يعقله.

## نقد الفلسفة الغربية

أما نحن فهل نختلف على أن النار محرقة؟ هذه حقيقة من الحقائق الخارجية، لكن الرجل يدعي أنها وهم من الأوهام، إن الناس يأكلون ليشبعوا من جوع، ويشربون ليرووا من ظمأ، ويتداون ليبءوا من مرض، ويبيعون ويشترون، فهل كل هذه أوهام ذاتية أم أنها حقائق خارجية؟

إن الفيلسوف الملحد عندما كان يشعر بالجوع هل كان يسارع إلى الطعام ليحفظ على نفسه حياته؟ أم أنه كان يقول لنفسه ما يقول للناس في فلسفته: "إن شعوره بالجوع وهم من أوهام ذاته" ثم يجلس بلا طعام حتى يهلك؟ إنه لو فعل ذلك لأراح الناس من أباطيله، لكن سلوكه نفسه يدل بوضوح على بطلان ما يدعيه.

**ثالثاً:** مثل ما ذكرنا في النقد السابق نذكر هنا نقدنا موقف الرجل من قانون "السببية" فإن قانون "السببية" أمر واقع، والجدال حوله أو التشكيك فيه تحت أية مبررات إنما يعتبر صداماً مع الواقع، وجحداً للحقائق الموضوعية التي يزاولها الناس منذ خُلِقوا. إن حياة الفيلسوف الملحد نفسها وسلوكه في كافة شئونه، لتدل دلالة واضحة على كذبه وفساد آرائه، إنه كان يأكل ويشرب ويتداوى، فهل كان يفعل ذلك إلا لأن هذه أسباب تؤدي إلى مسيبتها من الشيع والري ومن الشفاء؟ إن هذا الذي يطعن في السببية وينكرها عاش حياته ملتزماً بقوانين الأسباب والمسببات، والعلل والمعلولات، إنه لم يزد في فلسفته تلك على أن أعلن نفاقه وكذبه في دعواه الباطلة، إذ يطلع على الناس بأفكار وآراء هو أول من يكذبها ويرفض التعامل معها.

نأتي إلى آخر رحلتنا مع الملحد؛ لنناقش فكره وفلسفته حول وجود الله سبحانه:

ونحن لن نناقشه في إحداه، فالملاحظة كثر في كل زمان ومكان، لكن يهمننا هنا أن نناقش دعواه التي يقول فيها: "إن البحث عن علة للوجود المادي يدفع بنا إلى أن نبحث عن علة لوجود الله نفسه" سبحانه الله وتعالى عما يصفون.

إن الخطأ الذي وقع فيه الرجل ويقع فيه كل من على شاكلته أنهم لا يفرقون بين الأسباب الناقصة والأسباب التامة، أو بين الأسباب الوسيطة والأسباب النهائية، إنهم يخلطون بين هذه وتلك، وعلتهم ليست في خفاء هذه الحقيقة البسيطة، ولكن علتهم في قلوبهم المريضة؛ لأن هذه الحقيقة بدهية لا تخفى على أقل الناس فهماً، وأدناهم ذكاءً.

إن الأسباب التي نزاول حياتنا من خلالها في هذا الوجود، إنما هي أسباب وسائط، وهي مسخرة لغيرها، ولهذا نحن نرى أن كل مسبب مسخر، وأن المسببات التي تنشأ عن هذه الأسباب إنما ترجع إلى هذه الأسباب مباشرة من قريب، لكنها في نفس الوقت ترجع في حقيقة الأمر إلى مسبب لها تام، فنحن نأخذ الدواء، والدواء سبب في شفاء المرض، والشفاء يرجع إلى سببه المباشر وهو الدواء، لكن الدواء سبب ناقص، وهو في نفسه مسبب عن السبب التام أو الفاعل التام الذي بيده الشفاء الذي هو الله سبحانه.

نحن نستطيع أن نقرب القضية بمثال: فإن الدواء سبب في الشفاء، لكن الدواء نفسه مسبب عن سبب آخر هو الصيدلي الذي أعدّه في صيدليته، والصيدلي نفسه الذي هو سبب في إعداد الدواء هو مسبب عن سبب آخر، هو الطبيب الذي كتّب له الدواء الذي يعطيه للمريض، ثم إن الطبيب نفسه وهو السبب في كتابة الدواء مدينٌ بعلمه ذلك لمن علمه، فهو السبب في أن الطبيب عرف المرض ووصف الدواء.

وهكذا تمشي سلسلة الأسباب والمسببات، وكلها تترقى من مستوى إلى مستوى، لكنها جميعها مشتركة في أنها أسباب وسيطة، أو أسباب ناقصة، بمعنى: أنها في حاجة إلى مَنْ يقف وراءها مثل الدواء، فإنه سبب محتاج إلى الصيدلي، والصيدلي سبب محتاج إلى الطبيب، والطبيب سبب محتاج إلى معلمه، وهكذا تمشي تلك السلسلة ولا نجد من بينها سبباً كافياً قائماً بذاته، بل كلها معلولات لما قبلها، وذلك هو معنى كونها أسباباً ناقصةً. أو أسباب وسائط، وهذا النقص يصل بنا في نهاية المشوار في نهاية الطريق إلى السبب التام الفاعل الكامل الذي هو وراء كل شيء يجري في هذا الوجود، خالق الكل، ومدير الكل، ومقدر الكل، والذي بيده كل شيء، يحتاج إليه الكل وهو غني عن الكل، سبحانه وتعالى عما يصفون.

## مذهب العقلانية

### عناصر الدرس

- العنصر الأول : التعريف بمذهب العقلانية، ومستقر العقل في  
عُرف الفرقاء ٣٣٥
- العنصر الثاني : مظاهر انحراف المذهب العقلاني ٣٤٠
- العنصر الثالث : العقلانية في ميزان الإسلام، ونظرة الإسلام للعقل ٣٤٧





#### التعريف بمذهب العقلانية، ومستقر العقل في عرف الفرقاء

نتحدث عن موضوع من الموضوعات التي تشغل كثيراً من الناس، والتي واجهوا بها أحياناً كثيرة الدعوة إلى الله ﷻ نحن نتكلم عن موضوع العقلانية، مذهب من المذاهب الحديثة في الفلسفة الحديثة.

وحيثما يكلمني واحد من الناس، ويقول: أنا أتكلم بالعقلانية أو في العقلانية، كأنه يلقمني حجراً، ثم بعد ذلك يبدأ في تجشؤ ضلالاته وأكاذيبه ومفترياته على الدين والمتدينين.

#### أولاً: التعريف بمذهب العقلانية:

لاحظوا أننا من خلال تعريفنا للمذهب في البدايات الأولى ندرك مباشرة ماهيته وحقيقته وهويته.

العقلانية: مذهب فلسفي، يعتمد العقل الإنساني ميزاناً لكل شيء في الوجود، وحكماً على كل ما في هذا الكون، بعيداً عن الدين وبعيداً عما يتصل بالدين من وحي وغيب، فالعقل الإنساني المستقل عن الدين هو أداة المعرفة، وميزان الأشياء، وهو الحكم الوحيد لكل شيء في هذا الكون؛ إثباتاً أو نفيًا قبولاً أو رفضاً. هذا تعريف العقلانية.

يتضح من هذا: أن الاتجاه العقلاني أو مذهب العقلانية مذهب إلهادي مادي في مجمله، معادٍ بل مناقد لدين الله الحق بخاصة، وللأديان جميعها بعامه. وقد قلنا: "في مجمله"؛ لأن ثمة محاولات لفريق من أتباع هذا المذهب الذي هو الاتجاه العقلاني أنشئوا من خلالها أدياناً خاصة بهم سموها أدياناً وما هي بأديان من أي

نوع ؛ لأنها تفتقر إلى أخص ما تمتاز به الأديان من الإيمان بالغيب والاعتماد على الوحي ، ومن قبل ذلك كله ومن بعده الإيمان بقوة عليا غيبية ، تحكم هذا الوجود وتدبر أمره ، وتفصل كل صغيرة وكبيرة فيه على مقتضى قدر الله وقضائه .

يتضح من اسم المذهب أنه مشتق من العقل ، أو منسوب إليه ، وهذه النسبة من الأمور الخادعة المضللة ، فإن العقل هو ميزة الإنسان عن بقية المخلوقات الأرضية ، ميزه الله تعالى به بالعقل وكرمه وفضله ، وقد عرف الناس ميزة العقل ومكانة العقلاء ، ومن ثم فإن الناس قد ألفوا احترام العقل ، واحترام كل ما ينسب إليه ، كما ألفوا كذلك تحقير ما ليس بعقل وازدراء ما لا يكون للعقل فيه نصيب .

ومن ثم ، فإن المذهب الذي ينسب إلى العقل قد يخدع الناس فيظنون به الهدى والرشاد ، ويضعون عليه شيئاً من الاحترام والتقدير ؛ انطلاقاً من هذه النسبة - أي : انطلاقاً من نسبة المذهب إلى العقل - بينما الأمر في حقيقته على نقيض ذلك ، فإن المذهب الذي يُنسب إلى العقل ويتسمى باسمه - وهو ما نحن بصدد دراسته الآن - هو أدخل المذاهب في الازدراء بالعقل السوي ، والخروج على مسلمات وبدهيات العقل السليم - كما سيتضح لنا .

**ثانياً :** معرفة المراد بالعقل ومستقر العقل ، ولذلك تأتي هذه الفقرة العقل في عرف الفرقاء ، يعني : عند الفرقاء ، أو عند أصحاب الفرق المختلفة :

من المسلم به ابتداءً أن الله سبحانه قد أمدَّ الإنسان بنوعين من القوى المدركة :

- النوع الأول : قوة مدركة ظاهرة واضحة واعية .

- النوع الثاني : قوة مدركة باطنة مبهمة خفية .

ونعني بالقوة الأولى ما نسميه العقل، فالعقل قوة مدركة، ظاهرة تُدرك بها الأمور الحياتية الخارجة عن باطن الإنسان، وهي قوة ظاهرة واعية، بمعنى: أن أحكامها - أحكام العقل - على الأشياء أحكام لها مسوغاتها وأدلتها الواضحة.

أما القوة المدركة الثانية فنعني بها قوة الإدراك الشعورية الوجدانية الباطنة التي ندرك بها الأمور، الباطنة: كالألم والجوع والعطش والفرح والحزن، وندرك بها كذلك الرضى والقبول والارتياح لشيء ما، أو النفور والرفض لشيء آخر، هذا الإدراك يسمى الإدراك الباطني، لكنه إدراك مبهم نقبل به الشيء أو نرفضه وجدانياً وشعورياً. وقد لا يكون لدينا مسوغ واضح لهذا القبول أو الرفض سوى مجرد الشعور بالارتياح لهذا الشيء، أو الاستياء منه.

أما القوة الباطنة فإدراكها ومقرها في باطن الإنسان لا خلاف حول ذلك، ولكن الخلاف حول القوة المدركة الظاهرة - أعني بذلك: العقل - الخلاف حول هذه القوة حول مكانها ومستقرها في جسم الإنسان يدور حول عدد من الأمور ابتداءً بمحلها وكنهها، وانتهاءً بصلتها بالدين والوحي، مروراً بمجال عملها، وعوامل إصابتها وخطئها، ومجالات انحرافها، ثم عوامل هدايتها ورشادها.

اختلاف الفرقاء اختلاف الطوائف والفرق حول مقر هذه القوة العاقلة - أقصد العقل - وبصورة أوضح: أين محل هذه القوة من الإنسان؟ أنا أعقل والحمد لله ولدي عقل أين محله؟ أين مقر هذه القوة؟:

لقد اختلف الناس حول هذا الأمر على فريقين:

**الفريق الأول:** يقول: إن محل العقل أو القوى العاقلة إنما هو جوف الدماغ، أي: المخ، تلك المادة الهلامية التي تكمن داخل الرأس، وأقاموا علاقة طردية بين العقل وتلايف هذه المادة الهلامية، قالوا: إن هذه التلايف في مادة المخ

كلما زادت وتشعبت وتعمقت كان ذلك دليلاً على الذكاء وقوة الإدراك، والعكس صحيح.

وهذا الفريق له على رأيه أدلة كثيرة هذه الأدلة تُستمد من الصلة بين المادة المخية وحركات الجسم وأطرافه، فكلما كانت المادة المخية سليمة كان الجسم سليماً غالباً، وأما إذا أصاب المخ صائب، انعكس ذلك بوضوح على جسم الإنسان وأطرافه ووظائفه. وقضية الجلطات المخية - هذا عنده جلطة مخية أو كذا - أشهر من أن تذكر، فجلطة دموية في مركز من مراكز الأعصاب بالمخ تعطل ما يقابلها من الجسم ومن وظائفه، والمهم هنا والشاهد أن الإدراك لدى الإنسان يتأثر بهذه الإصابات المخية تأثيراً واضحاً وملحوظاً، مما يجعل العلاقة بين العقل - أي: القوة العاقلة الذي هو أداة الإدراك - والمخ - الذي هو في جوف الرأس - علاقة واضحة قد لا تحتاج إلى دليل. هكذا يرى أصحاب الرأي الأول.

**الفريق الثاني:** يرى أن محل القوة العاقلة - أي: محل العقل - إنما هو القلب، تلك العضلة التي في الصدر، فالإنسان عند هذا الفريق يعقل بقلبه وليس بمخه، ومحل القوة العاقلة عند هذا الفريق هو القلب وليس تلافيف المخ.

وأدلة هؤلاء أدلة شرعية علمية موضوعية دينية، ونبدأ بأدلتهم الشرعية المستمدة من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة:

أما القرآن المجيد: فقد ذكر القلب في معرض العقل والإدراك، ذكره في معرض الفهم والفق، ذكره في معرض الهداية والرشاد، ذكره كذلك في معرض الضلالة والغبي. فمن الآيات الصريحة في أن العقل إنما هو في القلوب، وإنما هو بالقلوب، قول الله تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦] وإذا سألنا عن تلك القلوب التي بها العقل، وهل يمكن تأويلها بشيء آخر؟

جاءت الآية الكريمة تحدد أنها تلك القلوب التي في صدور الناس، والتي بها يبصر الإنسان الحق أو يعمى عنه، يقول الله ﷻ: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

ومن الآيات التي ترجع الفقه والفهم إلى القلوب كما ترجع إليها عدم الفقه والجهل والضلال، قول الله سبحانه: ﴿هُم قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] وقول الله - تبارك وتعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِنْ مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥].

أما السنة النبوية المطهرة: فقد بينت أن القلب هو الأصل الذي يرجع إليه هداية الإنسان أو ضلاله، ويعود إليه صلاح الجسد كله أو فساده، يقول الرسول الكريم: ((ألا وإن في الجسد مضغةً، إن صلحت صلح الجسد، وإن فسدت فسد الجسد، ألا وهي القلب))، لذلك جعل الرسول ﷺ النية التي هي عمل من أعمال القلب هي مناط صلاح العمل أو فساده، قبوله أو رفضه، قال - عليه الصلاة والسلام: ((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى)).

أما عن الأدلة الموضوعية والعملية - وقد يقال: العلمية: فإن المعلوم المشاهد أن فساد القلب وخُبث الطوية مؤدَّب بالضرورة إلى فساد في الفهم، وانحراف في الإدراك، وخلل في فقه الأشياء، وفهم العلاقات بينها، وإذا كان أصحاب الرأي الأول يستدلون على أن العقل محل المخ الذي في جوف الرأس، بأن العلاقة بين صحة المخ وصحة وظائف الجسد وثيقة من حيث إن مراكز هذه الوظائف محلها المخ، فإن القلب وسلامته أدخل في ذلك الباب وأوضح، من حيث أن أي خلل في القلب لا يؤثر على بعض وظائف الجسم فقط، بل إن الخلل في القلب يؤثر

على الجسم كله، بل ويؤثر على المخ نفسه؛ لأنه هو الذي يمد المخ بالدم الذي يحمل إليه الأوكسجين والطاقة التي يعمل بها.

وإذا ما وازنا بين المخ والقلب من حيث العلاقة بينهما تأثيراً وتأثيراً، فإننا واجدون أن الخلل في المخ لا يؤثر في عمل القلب، أما الخلل في القلب فيؤثر في المخ إلى حد القضاء عليه، وعلى صاحبه - أعني: إلى حد الوفاة.

### والخلاصة:

أن العقل عندنا هو غريزة فطرية، يُولد الإنسان مزوداً بها، تنمو معه شيئاً فشيئاً، ومحل هذه الغريزة الفطرية إنما هو القلب.

### مظاهر انحراف المذهب العقلاني

نتنقل إلى مظاهر انحراف المذهب العقلاني للعقلانية ضلالات وانحرافات لا تكاد تُحصى، نشير إلى أهمها فيما يلي:

١. أول انحراف في العقلانية، بل أساس ضلالاتها والأصل في مفسادها، إنما يتمثل في إقحام العقل في مجال لا يصلح للعمل فيه، وليس من طبيعته أن يحيط بكنهه وحقيقته، وليس العقل مؤهلاً للبحث فيه على سبيل الاستقلال، نعني بذلك مجال الدين وما يتصل بالدين من عالم الغيب، وعالم الوحي.

إن العقل مؤهل لأن يعمل في مجال العالم المحسوس الذي نعيش فيه، وسبيله إلى معرفة العالم المحسوس إنما هي الحواس الخمس، فالحواس الخمس هي المنافذ التي يطل من خلالها العقل على العالم المادي المحسوس، فهو يطل من نافذة البصر

فيرى المبصرات ويعرفها، ومن خلال السمع يتعرف على عالم المسموعات، ومن خلال حاسة الشم يعرف المسمومات، وكذلك من خلال حاسة اللمس وحاسة الذوق، فكل حاسة هي بمثابة نافذة للعقل يعرف منها العقل ما يتصل بتلك الحاسة من ذلك الجانب.

فإذا ما تعطلت حاسة من هذه الحواس، فماذا يحدث؟

إذا تعطلت حاسة فقد أُغلق عالمها كاملاً دون العقل، فلا يعرف العقل عنه شيئاً، وهكذا جميع الحواس التي هي المنافذ الوحيدة التي يطل منها العقل على العالم المادي المحسوس. ولو فرضَ وتعطلت حاسة البصر، وكان الإنسان أعمى، فقد أُغلق هذا المجال كاملاً عن العقل، وأصبح الإنسان جاهلاً وأصبح عقله لا يعي شيئاً من عالم المبصرات كاملاً، وباطل أن تحدثه عن الألوان وعن الأشكال وعن السماوات وزرقتها، وعن البحار كل هذا باطل؛ لأن هذا العالم أُغلق كاملاً عن العقل فلا يعرف فيه شيئاً، وذلك عن طريق إغلاق النافذة التي يطل منها العقل على هذا العالم.

فإذا ما بطلت وتعطلت حاسة السمع، ماذا يعرف العقل عن عالم المسموعات؟ لا يعرف شيئاً، أُغلق عنه أيضاً ذلك العالم بكامله، وباطل أن تحدثه عن زقزقة العصافير، أو عن الموسيقى، عن صوت المغني، أو عن صوت كذا، أو عن صوت الرعد، كل هذا باطل؛ لأن هذا العالم كله عالم المسموعات أُغلق، وأصبح العقل في ضلالة كاملة، في عمى كامل عن هذا العالم؛ لأن النافذة التي يطل العقل منها على هذا العالم ويدرك منها هذا العالم، قد أُغلقَت دونه.

وهكذا، إذا أغلق عالم المشمومات إذا بطلت أو تعطلت حاسة الشم، فلا تتحدث مع إنسان فقد حاسة الشم عن روائح الورود، أو عن روائح كذا، أو عن روائح العود، أو عن روائح المسك والبنفسج، كل هذا باطل.

السؤال هنا: ماذا لو تعطلت جميع الحواس في إنسان ما؟

أصبح ذلك الإنسان كالحجر الملقى بجانب الجدار، أو بجانب لا شيء؛ لأن جميع المنافذ التي يطلُّ العقل من خلالها على العالم قد أغلقت، والعقل هنا يطل من خلال القلب على هذه المنافذ الذي يطل بها.

نحن لدينا درجتان للعقل، العقل يعمل في مجال الحواس، وهو مثل أية حاسة منها لكنه أعمُّها جميعاً؛ لأنه يطل منها ويستفيد منها جميعها، ميزة العقل على الحواس لماذا؟

إن ميزة العقل هي تجريد الصور الحسية عن مادياتها، والاحتفاظ بها في الذاكرة في حالة مجردة لاستدعائها وقت الحاجة، كذلك فإن العقل يأخذ المحسوسات ليصوغ منها مقدمات يصل من خلالها إلى نتائج غير محسوسة، ذلك العربي الذي قال: "البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فيجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العليم الخبير؟" وصل بعقله إلى وجود العليم الخبير ﷺ من خلال ماذا؟ العليم الخبير غيب مطلق، بل هو غيب الغيوب ﷺ غيب مطلق، لكن العقل وصل إليه من خلال المحسوسات، جرد المحسوسات، ثم صنع منها مقدمات حسية أوصلته إلى نتيجة غير حسية، وما ذلك إلا لفطرة الله التي فطر الإنسان عليها.

العقل إذاً له تلك الميزة التي هي الوصول من الخلق إلى الخالق سبحانه، نعني: الانتقال من المحسوس إلى غير المحسوس، من المشاهد إلى الغائب.



هذه المرحلة تتوقف قدرة العقل عندها تمامًا، فلا قدرة له على تخطي هذا المستوى في الإدراك، لا قدرة لديه على إدراك عالم الغيب على شكل مفصل، فلا قدرة لديه على إدراك عالم الأمر، ولا ما يجب لله تعالى تفصيلاً من الأسماء والصفات... إلى غير ذلك من دين الله تعالى من عقائد وأحكام وتشريعات، كل هذا لا يصل إليه أبداً من خلال قدرة العقل، ولكن يصل إليه من خلال الوحي.

هذه أول وأظهر انحرافات العقلانية، فالعقلانية في مجال الدين تؤدي إلى أحد أمرين:

الأول: أن تنكر وجود الله سبحانه، وأن تنزع إلى الإلحاد المطلق، وترفض الدين والوحي، أنا لا أتكلم عن العقل ولا قوة الإدراك، وإنما أتكلم عن مذهب العقلانية، العقلانية تكفر بالغيب، وهذه قضية العقلانية الأكثر وضوحاً والأكثر شيوعاً لدى أصحاب هذه النزعة، أو أصحاب هذا المذهب، وهذا الأمر لم تقف عنده، ولم نهتم بالإشارة إليه؛ لأنه معلوم بدهشة عن النزعة العقلانية، ومن يسير في ركابها.

لكن هناك ما يصل إليه العقل بفطرته من إدراك لهذا الكون، وإدراك أن لهذا الكون خالقاً، والإقرار بوجوده، وأنه المتصرف المدبر، لكن العقل لدى أصحاب العقلانية لا يقف عند هذا الحد، ثم يأخذ عن رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - ما أوحى الله تعالى به إليهم، العقلانيون لا يفعلون ذلك رغم نسبتهم أو انتسابهم إلى العقل، بل هؤلاء الذين فُتنوا بعقولهم ينجرفون في تيارهم العقلاني، فيتركون ما جاء من قبل الله سبحانه، ويخترعون هم لأنفسهم ما يرضي غرورهم، وما يفرزه لهم هواهم، فينشئون بناءً دينياً هو من أوهام العقل وضلالاته.

مثال على ذلك: فعل ذلك فلاسفة اليونان وبخاصة "أرسطو" وتبعهم على دينهم الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام من أمثال الفارابي، وابن سينا، وابن رشد، وإن كان لفلاسفة اليونان شيء من العذر لخلو بيئتهم عن وحي الله سبحانه ورسوله، فيما يعتذر الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام وقد كانوا في عصر ازدهر فيه علم النبوة، وازدهرت فيه رسالة خاتم النبيين محمد - صلوات ربي وسلامه عليه؟ كانوا في عصر ازدهار الأئمة، وتابعي التابعين، وأئمة التفسير والحديث والفقه، لكن اتباعهم للمذهب العقلاني أضلهم، ونأى بهم عن الهدى إلى الضلال، وأخرجهم من النور إلى الظلمات، وهذا قضاء الله فيهم.

٢. فيما يتصل بنا نحن المسلمين المؤمنين، لا يشغلنا كثيراً أصحاب النزعة الإلحادية من أتباع العقلانية، فالملاحدة الذين ينكرون وجود الله سبحانه أصناف كثر، وأصحاب العقلانية صنف منهم، فهم ملاحدة كسائر الملاحدة، أما الذي يعيننا من هؤلاء فهم الذين يخترعون لأنفسهم أدياناً من إفرازات عقولهم، وبخاصة وأن فريقاً من هؤلاء، بل لعل أشهرهم هم الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، ومثلهم من سلك مسلكهم ورضي مذاهبهم، فهؤلاء وأولئك أنشئوا لأنفسهم ديناً أو أدياناً على اختلاف بينهم، هذا الدين أو هذه الأديان هي من إفرازات عقولهم المجردة عن هدى الإسلام، البعيدة عن نور الوحي، ولذلك أسمينا هذه الأديان أدياناً عقلية فلسفية إن صح هذا الإطلاق.

وهذا الاتجاه العقلاني في إنشاء الدين واختراعه بعيداً عن الوحي، يحول قضية الدين إلى نوع من الفلسفة التجريدية التي لا صلة لها بالواقع، ولكنها تدور حول حوار ذهني تجريدي خيالي وإي، يبدأ من العقل النظرية وينتهي إليه بعيداً عن الحق والواقع.

وهذا نهج ينتج عنه الأضاليل الناتجة عن الأديان التي اخترعها العقلانيون، ومنهم الفلاسفة المنتسبون إلى الإسلام، أهم هذه الأضاليل أن العقلانية تحول قضية الدين إلى مسألة ذهنية تجريدية لا صلة لها بالواقع، تبدأ من العقل النظرية وتنتهي إليه.

ينبني على ذلك أن الدين يتحول من حقيقة عامة لكافة الناس إلى قضية شخصية خاصة تخضع لمقاييس العقل عند كل شخص، وتتحول إلى وجهة نظر، وكل إنسان عقلاني يبتدع من الدين ما يحلو له ويتفق مع هواه.

وأن الدين الذي هذه حاله لا ينتج قيمًا، ولا يؤدي إلى فضائل، ولا يمسُّ مشاعر الناس، ولا يؤثر في أخلاقهم، ولا يسمو بسلوكهم، بل هو في وادٍ والأخلاق والسلوك والقيم والفضائل في وادٍ آخر.

وأن الدين العقلاني الذي ينشئه العقلانيون لا يمس من أصحابه إلا جوانب عقولهم فقط، ويهمل تمامًا جانب المشاعر والوجدان والعاطفة، على ما لهذه الجوانب من أهمية قصوى في حياة الإنسان، وبخاصة في قضايا الدين والعقيدة، وذلك على خلاف جذري وأساسي مع الدين الحق الذي يُخاطب الإنسان جميعه بعقله وعاطفته ومشاعره ووجدانه.

٣. إن الله سُبْحَانَهُ قد أنعم على الإنسان وشرفه بالدين الحق، بعث الله تعالى به رسله -صلوات الله عليهم- وقد شرف الله عَبْدَكَ الإنسان وكرمه بالعقل؛ ليكون العقل هو المؤهل للإنسان ليتلقى دين الله، فالعقل في الإنسان هو مناط التكليف، وقد زود الله -تبارك وتعالى- الإنسان به؛ ليكون أهلًا لتلقي الدين كاملاً، وحمل الأمانة مستوفاةً، فتلقي الدين الحق وحمل الأمانة محتاجٌ إلى القوة العاقلة، فالأصل في العقل أنه خادم للدين، ومؤهلله، وممهد لتلقيه، ومسوغ لفهمه والعمل به.

لكن مصيبة العقلانية وأكبر انحرافاتنا أنها قلبت الأوضاع، وعكست الأمور، وأحالت العقل في الإنسان إلى عدو لله ورسله ودينه الحق، وبدلاً من أن يؤدي العقل وظيفته الأصلية، ويقوم برسالته الحاقة، فيكون خادماً لدين الله الحق، متلقياً عن رسل الله - صلوات الله عليهم - مشتغلاً بمراد الله من عباده، حولته العقلانية وأتباعها إلى عدو لله، يناوئ الله سبحانه، ويكذب رسله، ويكفر بدينه، ويخون الأمانة التي حملها، وكان بهذه الخيانة ظلوماً جهولاً، كما قال الله ﷻ:

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب: ٧٢].

٤. على الرغم من الاتجاه الإلحادي للعقلانية فإننا نجد بعض الفرقاء يوصفون بأنهم من أتباع المذهب العقلاني، بينما هم من المسلمين أصحاب بعض المذاهب الكلامية، ونعني بذلك المعتزلة، فهؤلاء يوصفون أحياناً بأنهم من أتباع الاتجاه العقلاني أو العقلانية، وإن كان هذا الوصف بالنسبة إلى المعتزلة ليس دقيقاً على ما عرفنا من المذهب العقلاني، إلا أنه يبين عن منهج المعتزلة في تقديم العقل على الوحي، والاحتكام إلى العقل، إلى حد أنهم يؤولون نصوص الوحي؛ حتى تستقيم مع قواعدهم العقلية التي وضعوها هم من عند أنفسهم، ثم جعلوها ميزاناً يزنون به وحي الله ﷻ فما اتفق مع هذه القواعد قبلوه وما لم يتفق أولوه. ومن أوضح ذلك مسلكهم في صفات الله تعالى وأسمائه، حيث علطوا الله ﷻ عن صفاته، وأولوا أسماءه؛ انطلاقاً من اتجاههم ومنهجهم العقلاني.

لكن يبقى بعد ذلك أن نقرر أن جعل المعتزلة من أتباع العقلانية المنهجية التي نتكلم عنها فيه نوع واضح من التجوز أو التجني، فأصحاب العقلانية - كما ذكرنا - قوم ملحدون حتى النخاع.

٥. أن أتباعها يعتقدون أن مبادئ الأفكار وأسس العلوم والمعارف موجودة في العقل الإنساني ابتداءً قبل أن يعرفها الإنسان عن طريق التجربة الحياتية المباشرة، فهم يزعمون أن الإنسان يُولد مزوداً بالأفكار والمعارف المختلفة التي يحصلها في هذه الحياة، وأن إدراكه للمعارف والأفكار في هذه الحياة عن طريق التجارب الحياتية المباشرة، إنما هو نوع من تذكره تلك المعارف نفسها التي وُلِدَ بها وإحياءً لها، فالمعارف والعلوم مركوزة في الإنسان، موجودة في عقله على هيئة مجردة قبل أن يعرفها عن طريق التجارب الحسية المادية، وهذا المذهب معروف بمذهب "فطرية المعارف" ذهب إليه ابن سينا، حينما زعم أن النفس كانت تعرف كل شيء، فقال في قصيدته الشهيرة التي يقول في مطلعها:

هبطت إليك من الملل الأرفع ❖ ورقاء ذات تدلل وتمنع  
يزعم في هذا أن النفس تنزل من أعلى وهي تعلم كل شيء، ثم بعد ذلك تتذكره عندما تزاوله في الحياة الأرضية.

### العقلانية في ميزان الإسلام، ونظرة الإسلام للعقل

#### العقلانية في ميزان الإسلام:

لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد، ولا إعمال فكر؛ لنعرف موقف الإسلام من العقلانية، ذلكم أن العقلانية تعني الإلحاد إما مطلقاً، وهذا هو حال أغلب أتباعهم الذين ينكرون وجود الله، ولا يؤمنون إلا بالمادة خالقاً ومخلوقاً، وإما إلحاداً مقيداً كما هو الفلاسفة الذين يكفرون بدين الله ورسول الله، ويخترعون لأنفسهم أدياناً وآلهة هي والإلحاد المطلق سواء، أو وهم والملاحدة بإطلاق سواء.

أما الملاحظة بإطلاق فموقف الإسلام منهم معروف يستوي في ذلك جميع طوائفهم بأسمائهم التي يتسمون بها من دهرين، أو طبعيين، أو عقلايين، أو ماديين، أو وجوديين، أو شيوعيين، أو تطوريين، إلى غير ذلك من أسماء، تختلف وتكثر ومضمونها واحد، هو الإلحاد الكفر والإنكار لوجود الله ﷻ.

أما ملاحظة الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام ومن لف لفهم وافتن بهم، فهم أشد سوءاً وأدخل في باب الضلال والإضلال، حيث يلجئون إلى الكذب والتدليس والإيهام والتلبيس على الناس؛ حتى أوقعوا الكثيرين في حبالهم، إما اتباعاً لهم في ضلالتهم وإلحادهم، وإما إحسان ظن بهم، فهؤلاء وأولئك بهذا يتضح موقف الإسلام من العقلايين ومن أصحاب الاتجاه العقلاني.

### مجال عمل العقل في الإسلام:

اتضح لنا من خلال ما سبق موقف الإسلام من العقلانية، ومن أصحابها الملتائين بها، وحين نقول: إن الإسلام يرفض العقلانية والعقلانيين، قد يظن البعض أن الإسلام يقلل من شأن العقل ويضع من منزلته، أو لا يقيم له وزناً في شئون الإسلام والمسلمين، وهذا ظن خاطئ يدفع بنا إلى أن نبين بإجمال مجال عمل العقل في الإسلام، ولعله ينبغي أن نبين كذلك منزلته في الإسلام، ومدى تكريم الإسلام للعقل واهتمامه به، وتوظيفه في سبيل هداية صاحبه إلى معرفة الله سبحانه، والأخذ عنه ما يبلغه رسل الله - صلوات الله عليهم - والعمل بمقتضى ما أخذ عنهم.

فهذان إذاً أمران:

**الأول:** منزلة العقل في الإسلام، وهي منزلة عظيمة وجليلة وخطيرة، ويكفي أن نعرف أن الإسلام جعل العقل مناط التكليف، وأساس حمل الأمانة، والأصل

الذي تنبني عليه مسئولية الإنسان، ويقوم عليه حسابه يوم القيامة مثوبة أو عقوبة، ولذلك كان من شروط التكليف بالإسلام العقل، ثم البلوغ، وكان من أسباب اشتراط البلوغ أنه علامة على سلامة العقل، وبلوغه تمامه وكماله في صاحبه.

فالإسلام لا يهتم بالعقل فقط ولا يبني عليه التكليف إلا في حال تمامه وكماله.

ومن هنا كانت آيات الله في خلقه التي لفت القرآن النظر إليها موجهة إلى الذين يتفكرون، والذين يعقلون، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٤٢]، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

**الثاني: مجال عمل العقل في الإسلام:**

سهل علينا بعد أن عرفنا منزلة العقل في الإسلام، أن نتعرف على مجال عمل العقل في الإسلام. فالإسلام رسم للعقل مجاله الذي يعمل فيه، وحدد له رسالته، وبين له الإطار اللائق به بلا مغالاة ولا إسفاف، والعقل حين يعمل في الإطار الذي بينه الإسلام وحدده، فإنه يصيب بقدر الإمكان، وله على ذلك الأجر، ولا يخطئ إلا نادراً، وله كذلك على ذلك أجر.

وقد حدد الإسلام للعقل مجالات عمله التي أهمها:

١. تلقي وحي الله تعالى عن رسله، وأخذ الدين الذي يبلغه رسل الله - صلوات الله وسلامه عليهم - عن الله ﷻ.
٢. العمل في إطار دين الله الحق الإسلام، وفي إطار وحي الله ﷻ، والاهتداء في كل ما يأخذ وما يدع بما جاء من قبل الله - تبارك تعالى.
٣. بذل الطاقة في تدبر آيات الله سبحانه، وفهم مراد الله من آياته، والعمل بمقتضى ذلك الفهم.

- ٤ . تدبر آيات الله وَجَّكَ في الكون الفسيح ، والتفكر في خلق الله ، وبديع حكمته ، وعظيم عنايته ، وإتقانه في كل شيء خلقه .
- ٥ . فهم الثاني على ضوء الأول ، أي : فهم آيات الله في الكون الفسيح على ضوء آيات الله في كتابه الكريم ، ووحيه الشريف ، أو كما يقال : فهم الكون المنشور على ضوء الكتاب المسطور .
- ٦ . تدبر آيات الله تعالى المتضمنة الأوامر والنواهي ، والمشملة على الأحكام التشريعية ، ومحاولة استخلاص الأحكام منها ، والعمل بها فيما يُسمى الاجتهاد في استخراج الأحكام فيما يجوز فيه الاجتهاد ، وذلك بعد تحصيل شرائط الاجتهاد وأدواته .
- ٧ . بذل الجهد وإنفاذ الطاقة فيما يصلح حال الإسلام والمسلمين ؛ دعوة إلى دين الله ، ونصرة للإسلام ، ودفاعاً عنه وعن المسلمين ، فإن ذلك من أشرف المجالات التي يجب على كل مسلم أن يسخر عقله وفكره للعمل فيها ، وبخاصة في هذا العصر الذي تكالبت فيه أمم الكفر على أمة الإسلام ، وانتصر الكفار لكفرهم ، وتخاذل أهل الإسلام عن إسلامهم .
- ٨ . وبذلك كل مسلم عالم طاقة عقله وفكره ؛ للسيطرة على مجالات العلوم بأنواعها ، والإبداع فيها ، والاكتشاف والاختراع ؛ حتى يستعيد المسلمون زمام المبادرة والسبق كما كان الأوائل ، وينخلع من هذه الحياة التي يعيشون فيها عالية يتكفنون الأمم الكافرة في شتى شئون الحياة المختلفة .



### أهم النقاط حول نقد الفلسفة الغربية

#### عناصر الدرس

٣٥٣	العنصر الأول : نقد الفلسفة القديمة أو اليونانية
٣٥٨	العنصر الثاني : نقد الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى
٣٦٣	العنصر الثالث : نقد الفلسفة الحديثة



## نقد الفلسفة القديمة أو اليونانية

نذكر بأهم النقاط والموضوعات التي طرحناها في تلك المادة.

سبق وأن قسمنا أدوار الفلسفة الغربية إلى ثلاثة أدوار أو ثلاث مراحل :

**المرحلة الأولى:** الفلسفة اليونانية.

**المرحلة الثانية:** الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى.

**المرحلة الثالثة:** الفلسفة الحديثة.

وقد درسنا هذه الأدوار أو المراحل من خلال الحديث عن مذاهب واتجاهات أشهر الفلاسفة المعروفين في كل دور أو مرحلة، ودرسنا في الفلسفة اليونانية بعض المذاهب الطبيعية، كما درسنا السوفسطائيين وسقراط، ثم أفلاطون وأرسطو، ثم في الفلسفة الوسيطة درسنا عددًا من أهم المذاهب الفلسفية من مثل فلسفة "أوجاستين"، وفلسفة "يوحنا رجنس كوت"، ثم درسنا في الفلسفة الحديثة عددًا كبيرًا من أشهر مذاهبها الفلسفية، التي تمثل اتجاهات منتشرة عندهم مثل: الاتجاه الشكي عند "ديكارت"، ثم الاتجاه التشاؤمي عند "آرثر شوبنهاور"، ثم الاتجاه الوضعي عن "أوجست كونت"، واتجاه القوة عند "نيتشه"، والاتجاه الوجودي عند "سارتر"، والاتجاه العقلاني، وغير ذلك.

ولعلكم لاحظتم أننا كنا نعقب على كل اتجاه، أو مذهب من هذه المذاهب التي ندرسها، بالنقد الخاص بهذه المذاهب، أو هذه الاتجاهات، من ثم كانت هذه النقود نقود جزئية خاصة بكل مذهب، أو بالأفكار التي يتناولها المذهب، لكنها لم تكن نقدًا متكاملًا للفلسفة الغربية بأكملها، وإن كانت تمثل جانبًا من جوانب

## نقد الفلسفة الغربية

نقد هذه الفلسفة، ومن ثمَّ نجد أنفسنا بحاجة إلى أن نجمع هذه النقود المبعثرة في المذاهب والاتجاهات، التي درسناها وتكلمنا عنها، كذلك نحن بحاجة إلى أن نبلورها، ونوضحها، ثم نسقها في مجموعة متكاملة متضامة، تمثل نقداً واضحاً موضوعياً ومنصفاً ومحايداً للفلسفة الغربية، دون ظلم لها، أو تجنُّ عليها.

ولعل أهم الضمانات التي تؤكد أننا في نقودنا الفلسفة الغربية، لن نظلمها ولن نتجنى عليها، الذي يضمن ذلك هو أن الكثير، بل الجمهرة من النقود التي سنوجهها إلى الغربيين في فلسفتهم، والمؤاخذات التي نأخذها عليهم في أفكارهم، هم يرونها ميزات لهم، وأفضال تُذكر فتشكر. ومن ثم فنحن حريصون على ذكرها والتأكيد عليها على أنها نقد ومؤاخذة، ونقص لهم في فلسفاتهم تجعل فلسفاتهم فكراً ساقطاً، واتجاهات متدنية، ومذاهب وضعية، هذا من جهتنا، ومن وجهة أنظارنا.

لكن الغربيين أنفسهم يرون في فلسفاتهم، وفي نفس الموضوعات والأفكار والاتجاهات التي نأخذها عليهم، وننقدهم عليها يرون هذه ميزات لهم يفيدون بها، ويعظمون من شئونها، أو من شأنها، وكلما ذكرنا لهم جانب نقص وسفه في فلسفاتهم أشادوا هم به، وأعلو من شأنه، أو من شأن أنفسهم به.

وإذا أردنا أن نعطي مثالا لهذا الذي ذكرناه، فلدينا أهم مأخذ نأخذه على فلسفتهم الغربية، وهو الإلحاد الذي يضرب بجذوره في كل الاتجاهات عندهم، والذي لا تخلو منه فلسفة من فلسفاتهم حتى هذه التي يحسبونها معتدلة متزنة، نحن نرى ذلك مأخذاً خطيراً، بل قاتلاً بالنسبة لفلسفة أيًّا كانت، ويكفينا طعناً في فلسفة ما أن نقول: إنها فلسفة ملحدة، بينما هم يفاخرون بذلك، يفاخرون بماذا؟ يفاخرون بأن نصف فلسفاتهم بأنها فلسفة ملحدة، هم يفاخرون بذلك

رافعين لافتة كُتِبَ عليها حرية الفكر أو الحرية الفكرية، الحرية الدينية، وكذلك إذا طعنا في فلسفاتهم بأنها فلسفة علمانية كان ذلك تحديداً من أهم ما يفاخرون به، ويعظمون من شأنه.

فإذا ذكرت لهم مسالب الفلسفة الوجودية الساقطة الوضيعة، ذكروا لك من مميزاتا ومن تحقيق الوجوديين ذواتهم، ومزاوتهم حرياتهم ما تظن أنهم بهذه الفلسفة الوضيعة المسفة قد فتحوا فتحاً، أو أتوا بما لم يخترعه الأوائل، أقول: إن هذا الذي أشرنا إليه من كونهم لا يعتبرون نقودنا في جملتها مهينة لهم، أو مقللة من شأن مذهبهم الفلسفية الوضيعة، بل إنهم فوق ذلك يعتبرون نقودنا - كما ذكرنا - منازة تميز ومسوغات تكريم، وتقدير لفلسفاتهم.

من ثم نستعين الله سبحانه، فنبداً بذكر نقودنا الفلسفة الغربية عبر نقاط أو فقرات تخص كل فقرة دوراً من أدوار الفلسفة الغربية، فنتناول في الفقرة الأولى نقد الفلسفة القديمة أو اليونانية، ثم نتناول نقد الفلسفة الوسيطة، ثم يأتي دور الفلسفة الحديثة؛ حيث نركز عليها تركيزاً كبيراً نوعاً ما؛ حيث إن المستهدف من نقدنا الفلسفة الغربية إنما هي الفلسفة الحديثة تحديداً، وذلك لأمرين أي: أن الفلسفة الحديثة ونقدها يُهمنا لأمرين:

**الأمر الأول:** أن الفلسفة الحديثة هي التي تعيشها الدول الغربية الآن، وهي التي تصوغ حياة الغربيين، وتشكل سلوكياتهم، ومن ثمَّ فإذا أردنا أن ننقد الغربيين فكرياً، وفلسفةً، وأخلاقاً، وسلوكاً؛ فلا ينبغي أن ننظر إليهم من خلال أدوار الفلسفة الغربية اليونانية أو الوسيطة، بل من خلال فلسفتهم هم.

**الأمر الثاني:** أن الفلسفة الغربية الحديثة هي التي انتقلت إلينا في بلادنا، وهي التي ابتلينا بها، وطبقت لدينا في كثير من مذهبها، واتجاهاتها، فالعلمانية مثلاً جاءتنا من هناك، والشيعوية كذلك، والوجودية والوضعية، وغير هذه

## نقد الفلسفة الغربية

الاتجاهات، فابتلينا بها في مجتمعاتنا الشرقية، فالذي يؤثر فينا وتعامل معه، ويقفز إلينا، ويدخل علينا ألياتنا من الأبواب ومن النوافذ ومن أطباق القنوات الفضائية، هي هذه الفلسفات الحديثة، ومن ثم ينبغي أن نركز نقودنا على الفلسفة الغربية الحديثة، وإن كان هذا لا يعني أن نهمل الفلسفة اليونانية والوسيلة تماماً، بل نوجه إلى كل منهما شيئاً من النقد الكاشف عن فسادها، وضلالها بإيجاز وموضوعية، ثم يكون التركيز على الفلسفة الحديثة.

## أولاً: نقد الفلسفة اليونانية:

لقد رأينا أن الفلسفة اليونانية التي هي جذور الفلسفات الغربية، والتي يرى الغربيون أنها أساس الفكر الفلسفي عندهم، ليس هذا فحسب، بل إنها ترجمت إلى اللغة العربية، وتأثر بها فريق من الفلاسفة، أو تأثر بها فريق آخر، وألقى برحال فكره ودينه في رحابها، وأسلم إليها فكره، وأثلث لها قياده، فقادته إلى الكفر بالله رب العالمين، وإلى نبذ الكتاب والسنة والفسق عن الجماعة، ما شأن هذه الفلسفة اليونانية، وما أسس نقدها.

إن نقدها يقوم على أسس أهمها:

**أولاً:** أنها فلسفة وثنية، والوثنية فيها تضرب بجذورها حتى النخاع، وقد عرفنا أن الفكر اليوناني، والفلسفة الناتجة عنه فلسفة وثنية كافرة، وبذلك يبين لنا النقد الصائب والشديد بالنسبة لهذه الفلسفة، وكفى بذلك نقداً، وكفى بكفرها نقيصة، ولم تكن الوثنية في الفلسفة اليونانية أمراً عارضاً، بل كانت تضرب في أصول الفلسفة، حتى إن الوثنية صاحبت الفلسفة اليونانية من بدايتها حتى نهاية المرحلة التي مثلتها، ولم يكن غريباً أن نجد فلاسفة الكبار في الفلسفة اليونانية مثل سقراط وأفلاطون فلاسفة وثنيين...

**ثانياً:** قد يتوقف البعض بالنسبة لأفلاطون وأرسطو، ويزعم أن هؤلاء ليسوا وثنيين، بل هما موحدان، وذلك وهم باطل، فقد بينا عند كلامنا عن أفلاطون أن دارسيه قد اختلفوا حوله هل هو موحد، أم متعدد، وقد تردد كلامهم بين ما أسماه المثل الإلهية، وهذا تعديد ووثنية، وبين ما أسماه في بعض كتبه مثال المثل، وقد ظن البعض أنه بهذا يكون موحدًا؛ بينما الحق أنه قد قصد بمثال المثل كبير الآلهة، وهذا أمر بدهي بالنسبة لجميع الوثنيين، فما من جماعة وثنية تعبد عددًا من الآلهة إلا ولديها بالضرورة كبير لهذه الآلهة، وهذا الإله الكبير هو الذي يحكم هؤلاء الآلهة، وقد كان اليونان قبل أفلاطون وأرسطو، وبعدهما كذلك يعبدون آلهة كثيرين، كانوا يجعلون لكل مظهر من مظاهر الطبيعة، أو لكل ظاهرة من ظواهر الطبيعة إلهًا، فهناك إله للرعْد، وهناك إله للصيف، وهناك إله للزرع، حتى الجماد جعلوا له إله، حتى الجنس جعلوا له إله.

لكن هؤلاء الآلهة الكثيرة كان لهم إله هو أكبرهم وحاكمهم، وهذا الإله عند اليونان هو أبولو، يسمونه أبولو، وكان مسكن هؤلاء الآلهة تحت زعامة أبولو في قمة جبل الأوليمب، وتحكي الأساطير اليونانية أن أبولو كبير الآلهة كان يفصل بين النزاعات التي تقع بين الآلهة، أو يفصل في النزاعات التي تقع بين الآلهة، وكان يُنزل العقاب بمن يخطئ من الآلهة. فقول أفلاطون بمثال المثل، لا يعني أنه موحد، بل يعني أنه وثني يؤمن بعدد من الآلهة، ولها كبير من بينهم يحكمهم، كذلك كان أرسطو الذي قال بنظرية العقول المفارقة، والتي تدبر العالم، والعقل الفعال من بينها هو عنده الخالق، الرازق، المحيي، المميت، فأرسطو متعدد وثني.

**ثالثاً:** من النقود الموجهة إلى الفلسفة اليونانية أن الفلسفة اليونانية لم تقف في ضلالها وانحرافها وفسادها عند كونها فلسفة وثنية كافرة، وإن كان هذا وحده كافيًا في

## نقد الفلسفة الغربية

فسادها وضلالها، لكنها كذلك فاسدة ضالة ظالمة منحرفة اجتماعياً وسياسياً، فقد أنتجت تلك الفلسفة طائفة السوفسطائيين، التي كادت تؤدي بالمجتمع اليوناني إلى الانهيار، لولا أن قام بمعارضتهم بعض المصلحين، وعلى رأسهم سقراط.

**رابعاً:** لا ننس أن الفلسفة اليونانية هي في أصلها فلسفة عابسة فاسدة، لا فائدة فيها، ولا نفع وراءها، وقد عرفنا قبلاً أن مؤرخي الفلسفة الغربيين قد اشترطوا لكي يكون الفكر فلسفياً أن يكون فكراً خالياً عن أي هدف، وأن يكون المفكر أو الفيلسوف قد قصد من فكره وفلسفته اللذة الفكرية فقط، دون هدف أو غاية، وهذا ما يسمونه الفكر للفكر، أو الفكر للذة الفكرية وحدها دون هدف أو غاية.

وكفى بهذه وحدها حاكماً على هذه الفلسفة بالضلال والفساد، تلك الفلسفة التي أول شروطها أن يسخر الإنسان عقله وفكره الذي ميّزه الله تعالى به على جميع المخلوقات، أن يسخره الإنسان لتفكير عابس تافه، لا فائدة منه، ولا نفع من ورائه، ولعمري إن الحيوان الذي حُرم العقل لهو أفضل من إنسان بهذه الصفة: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

## نقد الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى

**ثانياً:** نقد الفلسفة الوسيطة أو فلسفة العصور الوسطى:

كما يصفها أو يُطلق عليها الغربيون في كثير من كتاباتهم. لقد رأينا هذه الفلسفة قد اصطبغت بالديانة النصرانية، كما اصطبغت الديانة النصرانية بها، فاختلط الفكر الفلسفي بالدين، والنصرانية اختلطت بالفلسفة، وحدث خلط بينهما، وقد كان ذلك لأن النصرانية كانت في بداية انتشارها، وكانت المشكلات المتعلقة



لعقائدها المناقضة للبيدييات، والمصادمة للفطرة، كانت تلك المشكلات في بداياتها، ولم يكن الناس قد ضربوا على إلغاء عقولهم في مواجهة عقائد النصرانية التي تقول: بأن الثلاثة واحد، والواحد ثلاثة، وأن مريم قد ولدت الإله، وأن الإله كان طفلاً يبول على نفسه، ثم يُصلب ويموت، ثم يقوم من الأموات إلى آخر هذه العقائد التي أزرت بالعقل، وناقضت الفطرة، وأثقلت الضمير، وحيرت الفكر، وجعلت الإنسان بين أمرين:

**الأمر الأول:** أن يُعمل عقله ويحترم إنسانيته، ويفكر في عقائد النصرانية من ثمَّ يكفر بها إلى آخر الدهر.

**الأمر الثاني:** أن يلغي عقله ويُهمل فكره فيؤمن بها، لكنه إيمان هو والكفر سواء. ولقد رأينا هذه الأمور كلها متمثلة في الفيلسوف أوجستين الذي كان أوضح مثال لهذا الذي قلناه، نظر في النصرانية ابتداءً، فكفر بها، ثم أعمل عقله فيها فازداد كفرةً، من ثم لم يجد بداً من رفض النصرانية، واعتناق البوذية، ثم لما التقى ببعض القساوسة الفلاسفة الذين استطاعوا أن يقنعوه بإلغاء عقله، بحجة أن عقائد النصرانية فوق مستوى العقل، وأنها لذلك يجب أن تُعتنق دون أن تقتنع، كما يقولون هي للاعتناق وليست للاقتناع، وأن عليك اعتناقها دون تعقل، عند ذلك استسلم "أوجستين" للقس المتفلسف، وألغى عقله، واعتنق النصرانية منذ ذلك الوقت، إن "أوجستين" وكذلك الفلاسفة الذين جاءوا بعده قد رأوا أن التفلسف أو الفلسفة عامل مؤثر، ونافع في إقناع الناس بقبول النصرانية.

من هنا عمل فلاسفة العصور الوسطى مثل ما عمل أوجستين، حيث أدركوا أن الفلسفة عامل مساعد على قبول النصرانية، لذا فقد خلطوا الفلسفة بالدين النصراني، وخلطوا الدين بالفلسفة إلى حدٍّ أنه أضحى التفرقة بين الفلسفة

## نقد الفلسفة الغربية

والنصرانية أمراً صعباً، وكانت هذه أولى خطوات الفلسفة في نشر النصرانية، وفي هذا الإطار يلاحظ النقول الآتية:

١. أن العصور الوسطى كانت عصور الديانة النصرانية والتعصب للدين النصراني، إلى حد أن الفلسفة قد أضحت في خدمة النصرانية، ومن ثم لم يُسمع لمذهب فلسفي في العصور الوسطى إلا من خلال خدمته للنصرانية، وارتباطه بها.
٢. كانت العصور الوسطى مليئة بالفلاسفة على اختلاف توجهاتهم، وكانت لهم مذاهبهم وأفكارهم لكن لم يكن يُسمح باشتهار فيلسوف، ولا يُسمع لفلسفة إلا إذا كانت نصرانية تخدم النصرانية، أو تخدم الديانة النصرانية، وتعمل على إقناع الناس بها، ولا يُشتهر فيلسوف إلا إذا كان نصرانياً متعصباً للنصرانية، وعاملاً على نشرها وإقناع الناس بعقائدهم.

لذلك لم يكن غريباً أنك لا ترى في العصر الوسيط إلا فلاسفة متعصبين للنصرانية، بل إن أكثر هؤلاء الفلاسفة الذين اشتهروا في العصور الوسطى، أكثرهم يسبق اسمه كلمة سان أي: قديس، وما عدا هؤلاء لا تكاد تجد فيلسوفاً رغم كثرتهم وجودة أفكارهم إلا أن الجو العام، والعصر كله كان مسخراً لنشر النصرانية. من ثمَّ كان فلاسفة العصر الوسيط نصفهم تقريباً قديسين أي: يسبق اسمهم كلمة قديس أو سان، والآخرون متعصبون للنصرانية، وكان ذلك العصر هو العصر الذهبي للنصرانية، ولرجال الدين النصاري الذين وضعوا أيديهم في أيدي الأمراء الإقطاعيين، وأضلوا الشعوب الغربية وأجاعوها، وأقاموا محاكم التفتيش وحاسبوا الناس على سرائرهم، وتحاكمهم على ضمائرهم، وتحرقهم أحياء تحت دعاوى كثيرة مثل: الهرطقة، وهي تعني: الكفر بالنصرانية، أو رفض بعض عقائدها.

والخلاصة : أن العصور الوسطى كانت عصور النصرانية بدأ انتشار النصرانية مع بداية تلك العصور، وقد اعتمدت النصرانية في انتشارها على الفلسفة والفلاسفة، وقد ظل الأمر كذلك حتى انقلبت الأوضاع إلى النقيض على ما سنرى إن شاء الله تعالى.

٣. كانت الفلسفة في العصور الوسطى في جملتها فلسفة موجهة، وذلك لخدمة النصرانية كما ذكرنا، ولذا كانت كل قضاياها متكلفة تدور حول العقائد النصرانية، وهذا قد دفع الفلاسفة إلى الجمود عند قضايا الدين النصراني، فسواء في فلسفاتهم ظلم رجال الدين، وتعسفهم ضد الشعوب النصرانية، كذلك سواء في فلسفاتهم قضية الوساطة بين الله والناس، وجعلوا رجال الدين هم الوسطاء الناطقين باسم الرب، فازداد بذلك طغيان رجال الدين. كذلك سوغوا دعوى رجال الدين الوصاية على الناس؛ بحيث لا يفهم الناس من كتابهم المقدس إلا ما يذكره لهم رجال الدين.

وهنا سؤال على قدر خطير، وهو لماذا يفعل الفلاسفة هذا؟! وما الذي يجعلهم في خدمة رجال الدين النصارى؟! أو في خدمة الدين النصراني، يسوغون لهم ما يريدون؟ والإجابة بسيطة، ذلكم أن الفلاسفة المشاهير في هذا الدور في العصور الوسطى المظلمة في ذلك الوقت كانوا رجال دين، الفلاسفة أنفسهم كانوا رجال دين، فقد اشتغل كثيرون من رجال الدين بالفلسفة، والعكس قد حدث، لكن الشق الأول هو الأكثر، وليس أدل على ذلك من أن الكثيرين من الفلاسفة كانوا قديسين أي: رجال دين، وصلوا من خلال اشتغالهم بالدين إلى حد أنصار قديسين، وقد ذكرنا قبلاً أن القديس هو من يظهر له المسيح الرب في حال صحوة فيراه ويكلمه بزعم رجال الدين النصارى في زعمهم الباطل. فالحاصل أن فلسفة

## نقد الفلسفة الغربية

العصور الوسطى كانت فلسفة دينية نصرانية متكلفة موجهة، وهذا جعلها فلسفة جامدة ميتة لا وزن لها في ميزان الفكر الصحيح.

٤. قد انتهت العصور الوسطى الفلسفية بأكبر فضيحة دينية خلقية إنسانية، تلكم هي ما يسميه التاريخ محاكم التفتيش التي كانت سمة وعلامة على الحجر الكتيب، والظلم الفادح للعقل، والفكر؛ حيث حجر رجال الدين النصارى على الفكر، وسجنوا العقل، وحرموا على الإنسان أن يقرأ الكتاب المقدس، أو يفهم منه إلا ما يريده له رجل الدين النصراني، وإن تعجبوا فعجب كيف يكون هناك فلسفة أو تفلسف وسط هذا الحجر على العقول والأفهام، وليت الحجر قد تمّ على قضايا الدين فقط؛ بل إن الحجر الكهنوتي قد تمّ كذلك على العلم والمكتشفات العلمية، وأصبحت جميع القضايا العلمية من رياضيات، وفلك، وكيمياء، وفيزياء، وهندسة إلى غير ذلك، وكل العلوم أصبحت تحت وصاية رجال حمقى جهلاء باسم الدين، وعشرات ومئات من هؤلاء العلماء قد أحرقوا أحياء؛ لأنهم جاءوا بنظريات علمية صحيحة، لكنها لم ترض رجال الدين النصارى.

وعجيب مرة أخرى أن هذه الجرائم كانت تُرتكب لتأييد، بل بتوجيه رجال الدين النصارى، بل إن بعضهم - بعض رجال الدين - كانوا فلاسفة يُسبق أسماءهم بكلمة قديس أو سان، بما يقطع يقيناً بأنه ليس رجل دين فقط، بل إنه قديس. بل إن هذا الذي حدث في محاكم التفتيش لهو أقوى الأدلة على فساد رجال دينهم، وكذبهم، وضلالهم، ودليل كذلك على أن كلمة قديس كانت توضع وصفاً لأجهل الجهلاء، وأحمق الحمقى.

## نقد الفلسفة الحديثة

## ثالثاً: نقد الفلسفة الحديثة:

وهذا هو الجانب الذي ذكرنا قبل ذلك أنه هو الجانب الأهم من نقد الفلسفة الغربية، ونعني بالجانب الأهم الفلسفة الحديثة ونقدها، وقد بينا آنفاً ان الفلسفة الحديثة هي الأهم بالنسبة إلى النقد، وبيان التقويم؛ لأنها هي التي يعايشها الغرب النصراني حالياً، ثم لأنها التي تنتقل إلينا عدواها وبلاياها من جانب آخر، لذلك كانت عنايتنا بنقد الفلسفة الحديثة عناية كبيرة، والنقود الموجهة الفلسفة الحديثة كثيرة أهمها ما يلي:

**أولاً:** أنها اتخذت من النصرانية موقفاً مناقضاً تماماً لما كانت عليه الفلسفة في العصور الوسطى، فقد بينا أن الفلسفة في العصور الوسطى كانت خادمة للدين، وكانت مسخرة لنشر النصرانية، والدفاع عنها ضد أعدائها إلى حد أن الاثنين الدين والفلسفة اختلطا معاً، وصارا كأنهما شيء واحد. أما في الفلسفة الحديثة فقد انقلب الوضع تماماً، تحولت الفلسفة والفلاسفة إلى العداء السافر للدين، إلى حد أن الفلاسفة كانوا يُعلنون كفرهم بالنصرانية بوضوح شديد، إلى الحد الذي كان يجعل المؤرخين يحددون التاريخ الذي أعلن فيه الفيلسوف كفره بالنصرانية، وبعضهم كان يُقيم احتفالاً يدعو فيه الأصدقاء بمناسبة انفكاكه من سجن النصرانية وكفره بها.

**ثانياً:** من النقود الموجهة إلى الفلسفة الحديثة من آثار العداء بين الدين والفلسفة في الفلسفة الحديثة، الفلسفة والدين في العصر الوسيط كانا شيئاً

## نقد الفلسفة الغربية

واحدًا مختلطان بعضهما مع بعض، وكان الدين يخدم الفلسفة، والفلسفة تُعلي من شأن الدين.

أما في الفلسفة الحديثة انقلب الوضع، أصبحت الفلسفة والفلاسفة أعداء للدين مائة بالمائة، كما نرى، وقد سبق وأن ذكرنا: إن الفلسفة الحديثة فلسفة ملحدة حتى النخاع.

من آثار العداء بين الدين والفلسفة نجد أن المذاهب الفلسفية الحديثة، بل كل القضايا التي تناولتها الفلسفة الحديثة إنما هي مذاهب وقضايا إلحادية كفربية؛ لذلك قلنا مرات عديدة: إن الفلسفة الحديثة فلسفة ملحدة يضرب الإلحاد في جذورها، وتنضح به فروعها وثمارها إلى الحد الذي جعل بعض الفلاسفة يخترع دينًا من عنده؛ ليقضي به على النصرانية بل على الأديان جميعها، ولعلكم تذكرون أوجاست كونت صاحب ما أسماه الدين الإنساني أخزاه الله. ولم يكن من بين الفلاسفة المحدثين من أعلن إيمانه، وتكلم في الدين مثل رينيه ديكارت. رينيه ديكارت الذي كفر ثم رجع إلى دينه مرة ثانية، لكنه ليس النصرانية؛ بل هو دين من بنات أفكاره لا صلة بينه وبين دين النصارى.

وكما كفر بعقله رجع إلى دين اخترعه أيضًا بعقله، من ثم كانت الفلسفة الحديثة في أهم سماتها، وأوضح صفاتها، وأشهر نقودها أنها فلسفة إلحادية كافرة، ومشكلة الإلحاد والكفر في الفلسفة الحديثة أن هذه الفلسفة لا تفرق في كفرها بالدين بين الدين الحق والأديان الباطلة، فهي تكفر بالنصرانية؛ لأنها تعرفها، لكن الفلاسفة المحدثين يحسبون جميع الأديان مثل النصرانية، فيكفرون بها جميعًا، ويهاجمونها جميعًا، وذلك خطأ جسيم، وضلال مبین، وأي شيء في حياة هؤلاء ليس خطأ جسيمًا، أو ضلالًا مبيّنًا.

**ثالثاً:** من آثار العداة بين الفلسفة الحديثة والدين نشأت العلمانية، فالدين خسر الحرب أمام الفلسفة، من ثمَّ تواری داخل جدران الكنيسة، وأعلنت الدول الغربية نظام العلمانية الذي بمقتضاه يصبح الدين النصراني منعزلاً تماماً عن شئون الحياة ليس فقط لا يتدخل في شئون الناس الحياتية، بل لا يُرى له أثر يدل عليه في حياة الناس العامة؛ بحيث لا يلبس أحد من الناس ما يدل على دينه الذي يدين به، وأصبح الدين النصراني محبوساً داخل الكنيسة، وأصبح باب الكنيسة يفصل بين عالمين من باب الكنيسة إلى الداخل دين، ومن باب الكنيسة إلى الخارج لا دين. وهذه العلمانية من أوضح آثار العداة القائم بين الفلسفة والدين. كذلك هو من أوضح الآثار على انتصار الفلسفة في معركتها ضد النصرانية، وانتحار الدين النصراني وهزيمته في معركته ضد الفلسفة.

**رابعاً:** حينما خسر الدين النصراني معركته ضد الفلسفة، انطلقت الفلسفة تُفسد وتُعربد، وظهر من المذاهب الفلسفية الضالة صور غريبة وعجيبة، وقد كانت الشعوب الغربية إبَّان العصور الوسطى سجيناً تحت سلطان الكنيسة، فلما نالت حريتها في العصر الحديث انطلقت على وجهها كأنها ذئاب طال حبسها، فلما انطلقت هامت على وجهها على غير هداية.

من ثمَّ جاء الغرب بنظريات فلسفية عجيبة وغريبة، من ذلك فلسفة القوة، وفلسفة التشاؤم، وفلسفة الشك، وفلسفة تقوم على إنكار الأسباب وقوانين المادة، والفلسفة الوجودية، والشيوعية الماركسية إلى غير ذلك من فلسفات عجيبة وغريبة، وشاذة، بل إن المذهب الفلسفي كلما كان غريباً وعجيباً؛ كان أدعى إلى اشتهاره وظهوره، وانتشاره، وكان أتباع المذهب يتكاثرون كلما كان شاذاً وعجيباً، هذه المذاهب في جملتها انتقلت إلينا في الشرق، وكان انتقالها إلينا عبر قناتين، أو على هيئتين.

## نقد الفلسفة الغربية

**الهيئة الأولى:** تأثر بها وربما تطبيق لها، أو لكثير من مظاهرها كالعلمانية، والداروينية أعني: مذهب التطور الحيوي إلى غير ذلك.

**الهيئة الثانية:** تنتقل إلينا بعض المذاهب على هيئة فقط العلم بها، وقراءة لمبادئها، وتصور لأفكارها، وينتهي شأنها أو شاننا بها من فضل الله عز وجل.

أسأل الله تعالى لي ولكم التيسير والنجاح والتوفيق والهداية، وأن ينفعكم الله وينفع بكم، ويهديكم سواء السبيل.

أستودعكم الله، وأستودع الله تعالى دينكم وأماناتكم وخواتيم أعمالكم. والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.



# قائمة المراجع العامة



## ١. (مدخل نقدي لدراسة الفلسفة)

محمد عبد الله الشرقاوي، القاهرة، مكتبة الزهراء، ١٩٨٨م

## ٢. (منهج إسلامي في تدريس الفلسفة الأوربية الحديثة والمعاصرة في الجامعة)

أبو الوفا التفتازاني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٣٩٧هـ

## ٣. (انهيار الشيوعية أمام الإسلام)

سعد الدين صالح، الزقازيق، دار الأرقم، ١٩٨٩م

## ٤. (تاريخ الفلسفة الحديثة)

يوسف كرم، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٦م

## ٥. (أخطاء المنهج الغربي في العقائد والتاريخ والحضارة)

أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠م

## ٦. (التفكير الفلسفي في الإسلام)

عبد الحليم محمود، دار المعارف، ١٩٨٩م

## ٧. (مبادئ الفلسفة)

ديكارت، ترجمة عثمان أمين، دار الثقافة، ١٩٧٤م

## ٨. (مقال عن المنهج)

ديكارت، ترجمة محمود محمد الحضري، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

١٩٨٥م

## ٩. (نقد الثقافة الإلحادية)

أحمد عبد الرحمن إبراهيم، دار هجر، ١٤٠٦ هـ

## ١٠. (ينابيع الفلسفة الغربية)

محمد رشاد دهمش، القاهرة، دار الفكر، ٢٠٠٢ م

## ١١. (نظريات الغرب وحضارته في ميزان الإسلام)

ماهر خليل، مجمع البحوث الإسلامية، ١٤٠٦ هـ

## ١٢. (الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة في القديم والحديث)

عبد القادر محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦ م

## ١٣. (الفلسفة الحديثة والمعاصرة)

إمام عبد الفتاح، دار الثقافة، ١٩٨٦ م

## ١٤. (الفلسفة الحديثة عرض نقدي)

كريم متي، ليبيا، بنغازي، دار قاريونس، ١٩٨٩ م

## ١٥. (الأسس الفلسفية للمذهب المادي)

جعفر شيخ إدريس، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٣ م

